
من نور القرآن

من نور القرآن

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي
(دام ظله)

الجزء الرابع

سورة النحل - سورة النور

هوية الكتاب

اسم الكتاب:..... من نور القرآن

تأليف : ..... سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الموضوع :..... التفسير

الجزء :..... الرابع

عدد الصفحات :..... ٤٢٠

الطبعة :..... الرابعة

التاريخ :..... ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠

دار الصادقين

القبس/١٠٦

سورة النحل:﴿١٦﴾

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾

موضوع القبس: أهل البيت (عليهم السلام) نجوم أهل الأرض

فسرّت روايات كثيرة النجوم الواردة في عدة آيات كريمة بأهل البيت (عليهم السلام) لعدة وجوه مشتركة سنشير اليها ان شاء الله تعالى، وقد استعمل القرآن الكريم التشبيه لإيصال حقائق كثيرة تعرّف فضل أهل البيت (عليهم السلام) ووظائفهم ودورهم في حياة البشرية فكانوا (عليهم السلام) تأويل هذه الآيات الكريمة وهذا شأن القرآن الكريم في كثير من الحقائق التي لم يبيّنها في التنزيل لمصلحةٍ ما خصوصاً ما يتعلق بأهل البيت (عليهم السلام) لكن الأئمة (عليهم السلام) أفادوا تأويلها ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:﴿٤٣﴾) ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:﴿٢١﴾).

وقد بيّن القرآن الكريم اهتمامه بالنجوم وما يرتبط بها من وظائف وحركة متقنة ومواقع دقيقة، قال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة:﴿٧٥﴾-﴿٧٦﴾) ونشير هنا استطراداً إلى نكتة القسم بالمواقع دون نفس النجوم ولعلها لأمرين على الأقل:

١-بيان دقة توزيع هذه النجوم في مواقعها والانسجام التام في حركتها فتكون من آيات الخالق، ولعلمنا بهذه الدقة والانسجام فإننا نبني على قوانينها الكونية المنضبطة ونستطيع معرفة أمور وحوادث قبل وقوعها بسنين، ولو كانت

مبعثرة وعشوائية لما أمكن الاعتماد عليها قال تعالى ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢) فهذه الدقة في المواقع والحركة جُعِلَت في كل شيء ليتعلمها الانسان ويستفيد منها في حياته.

٢-لتصحيح عقائد الناس خصوصاً وأنهم قريبو عهدٍ بالجاهلية حيث كانوا يعتقدون بأن للنجوم أرواحاً وانها تتحرك بإرادتها وبقى هذا الاعتقاد إلى وقت قريب[١] وكانوا أيضاً يعتقدون بتأثيرها المستقل وجلبها للخير والشر ويحلفون بها فعدل الى الحلف بمواقعها ليعرفوا أنها مخلوقات مدبّرة ومسيّرة من قبل الخالق العظيم.

وهذا المعنى وارد في الروايات ففي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن مواقع النجوم رجومها للشياطين، فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه (فلا أقسم بها))[٢] وقال (عليه السلام) (كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال الله عزوجل:فلا أقسم...).

والمستفاد من استقراء الآيات الكريمة:ان للنجوم عدة وظائف وهي جارية ببعدها المعنوي في أهل البيت (عليهم السلام).

١ – الهداية، قال تعالى ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦) وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) حيث استطاع يوهانس كبلر (١٥٧١ – ١٦٣٠) وصف حركتها بمعادلة رياضية ثم علل إسحاق نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) حركتها بمحصلة قوى الاستمرارية والجاذبية.

(٢) مجمع البيان: ٩/ ٢٨٧.

قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٩٧) حيث كان الناس يتخذونها دليلاً لمعرفة الطرق في اسفارهم خصوصاً في البحار والمحيطات حيث لا توجد أي علامة غيرها قبل اختراع الآلات واستفادوا منها لتحديد الاتجاهات كالكعبة وبعض الأوقات فمن دون علامات في البر[1]، ونجوم في الجو لا يهتدون الى الطريق الموصل للغرض.

وكان الجاهليون يستهدون بها لمعرفة حظوظهم ومستقبلهم ويتفاءلون بها ولذا كانوا يطلبون الخير والبركة منها، ولعل هذا يفسّر الحركة التمويهية التي قام بها إبراهيم في قوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات:٨٨-٩٠) فكأنه (عليه السلام) طلب منهم أن يكتشفوا من النجوم التي يعتقدون بها ما يشير إلى سقمه، وما كان سقيماً في جسده ولكنه كان مرتاداً طالباً للحقيقة وهي معرفة الله تبارك وتعالى.

وهذه الوظيفة – وهي الهداية – هي من أهم وظائف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فقد اختارهم الله تعالى ليكونوا هداة إليه وادلاء على طاعته يأخذون بأيدي الناس من ظُلمات الجهل والتعصب والضلال واتباع الشهوات والفتن إلى نور الهداية والسعادة والفلاح، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٧٣) فهم يهدون بأمر الله تعالى كالنجوم التي وصفها الله تعالى بأنها ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾

(١) كاختلاف التضاريس الأرضية من جبال وسهول وأنهار لذا كانوا يتيهون في الصحراء لعدم وجود علامات مميزة.

(الأعراف:﴿٥٤﴾)، ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ﴾ (الأنعام:﴿٩٧﴾) عن علي ابن إبراهيم ان (النجوم:آل محمد(عليهم السلام))[1] ووردت عدة روايات بهذا المعنى في تفسير قول الله عز وجل:﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ منها عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (رسول الله (صلى الله عليه وآله)) النجم، والعلامات هم الأئمة (عليهم السلام) بهم يهتدون)[2].

وهم (عليهم السلام) أولى بالهداية لأنهم آيات الله العظمى التي تمشي على الأرض بين الناس اما النجوم فهي بعيدة عنهم ولا يعرفون تفاصيلها.

فمن سار على هداهم نجا ومن تنكب عنهم هلك:وقد اشتهر عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (الا مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف هنها هلك)[3]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (وخلف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلّف عنها زهق، ومن لزمها لحق)[4].

وهذا ما أكدته السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها (أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيه (صلى الله عليه وآله) لما اختلف في الله أثنان ولورثها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين (عليه السلام) ولكن قدّموا من أخره الله وأخروا من قدّمه الله)[5].

---

(١) تفسير القمي: ١/ ٢١١.

(٢) الكافي: ج١/ ١٦٠/ ح١، وتجد مجموعة الروايات في البرهان: ٥/ ٣٢٨.

(٣) فضائل الصحابة- أحمد بن حنبل: ٧٨٥/٢.

(٤) نهج البلاغة: خطب الإمام علي: ج١/ ص١٩٣.

(٥) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٦/ ٣٥٢/ ح٢٢٤، ط مؤسسةالوفاء.

ومن رسالة الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) إلى شيعته (او ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون اليها، واعلاماً تهتدون بها من لدن آدم كلما غاب علم بدا علم، واذا أفل نجم طلع نجم)[١].

٢ – الزينة قال تعالى ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت:١٢) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات:٦) والزينة ما يحسِّن الانسان ويجمّل هيئته الظاهرية ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف:٣١) والزينة تشمل الأمور الظاهرية والباطنية روى جابر الانصاري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (زيّنوا مجالسكم بذكر علي بن أبي طالب)[٢] عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (كنت انا وعلي نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر الف عام، فلما خلق الله آدم قسّم ذلك النور جزأين ركّبا في آدم فجزء أنا وجزء علي بن أبي طالب، فنور الحق معنا نازل حيثما نزلنا)[٣].

روى الكليني (قال أبو عبد الله (عليه السلام):إن الله خلقنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه في عباده ولسانه الناطق في خلقه ويده المبسوطة على عباده، بالرأفة والرحمة ووجهه الذي يؤتى منه وبابه الذي يدل عليه وخزانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار، وجرت الأنهار وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب

---

(١) الاحتجاج: ٢/٢٧٢.

(٢) بشارة الإسلام، أبو جعفر الطبري: ٢/ ١٠٤.

(٣) تذكرة خواص الأمة: ٤٦.

الأرض وبعبادتنا عبد الله ولولا نحن ما عبد الله)[١].

٣ - الحماية والأمان:قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر:١٦-١٧) روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (النجوم أمان لأهل السماء، اذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فاذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض)[٢].

وقد اكتشف العلم الحديث الكثير من هذه الوظائف للنجوم من حيث حفظ التوازن في الكون وصدّ الشهب الثاقبة ومعرفة موقع واتجاه الحركة في الكون ونحو ذلك.

واخرج الحاكم عن ابن عباس، قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق - فلو لم يستهدوا بالنجوم فأنهم يتيهون في البحار ويغرقون-، وأهل بيتي أمان لامتي من الاختلاف فاذا خالفها قبيله من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس)[٣].

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد)[٤] وروى البرقي في المحاسن (فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فان فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين

---

(١) الكافي: ١/ ١٤٤.

(٢) امالي ابن الشيخ: ٢٤١.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٦٢.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧/ ١٥٠/ ح٤٣.

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[١].

عن معاوية بن وهب قال (سمعت أبا عبدالله (عليه السلام) قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (ان لله عند كل بدعة تكون بعدي ويُكاد بها الايمان ولياً من أهل بيتي موكلاً به يذبّ عنه، ينطق بالهام من الله ويعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين ويعبر عن الضعف فاعتبروا يا اولي الابصار وتوكلوا على الله)[٢].

ونستشعر هذا الأمان من خلال ولايتنا لأهل البيت (عليهم السلام) ووجود امام معصوم يتابع شؤوننا (نحن وإن كنّا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أراناه الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإنا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنّا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. إنّا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولو لا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء)[٣].

ويمكن أن نأخذ تصوراً عن هذا الدور المهم للأئمة المعصومين (عليهم السلام) من خلال التجربة والمعايشة للدور المبارك الذي تؤديه المرجعية الرشيدة في حفظ كيان الأمة وحمايتها وتحصينها من الانحراف والضلال والمؤامرات الخبيثة التي تحاك لها، وخذ العراق مثلاً فان الفتن التي تعرّض لها والمكائد الخبيثة والمشاريع

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٩٢.

(٢) الكافي: ١/ ٥٤.

(٣) الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج٢/ ص٣٢٣.

الشيطانية التي أغرقته في بحور من الدماء والفساد والشبهات والصراعات الا أنه بقي صامداً محافظاً على مبادئه بدرجة كبيرة بينما تنهار الدول والحكومات بأقل من ذلك بكثير.

ومن مجموع هذه الوظائف العظيمة للنجوم فانه لا يمكن الاستغناء عن وجودها لذا فان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لا يمكن التخلف والاعراض عنهم او اتباع غيرهم بدلاً عنهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (لا يقاس بآل محمد (صلى الله عليه وآله) من هذه الأمة أحد ولا يُسَوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا)[1]. لكن بعض المنحرفين عن أهل البيت (عليهم السلام) وضعوا حديثاً لخلط الأمور وتضييع الحقيقة على الناس وافتروا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وهم يعلمون باليقين أن كثيراً من هؤلاء الأصحاب ارتكبوا الجرائم والموبقات الكبيرة وبدّلوا دين الله تعالى وحرّفوا أحكامه وقتلوا أولياء الله تعالى فكيف يُهتدى بهم.

نعم وجدت في بعض مصادرنا ان الحديث مروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لكنهّ فسَّر الاصحاب بأهل بيته (عليهم السلام)، فقد روى الشيخ الصدوق (رحمه الله) بسند معتبر عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):ما وجدتم في كتاب الله عز وجل فالعمل لكم به لا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله عز وجل وكانت فيه سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا به، فإنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم بأيها اخذ اهتدي، وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم

(١) نهج البلاغة: خطب الإمام علي (عليه السلام): ج١/ ص٣٠.

رحمة. فقيل:يا رسول الله ومن أصحابك؟ قال:أهل بيتي[1].

نسأل الله تعالى أن يهدينا بنورهم ويزيننّا بولايتهم ويحصنّنا بأمانهم في الدنيا والآخرة.

(١) معاني الاخبار: ص١٥٦-١٥٧.

القبس/١٠٧

سورة النحل:﴿٩٦﴾

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾

موضوع القبس: أعملوا لما عند الله تعالى

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:﴿٩٦﴾).

النفاد يعني الفناء وانتهاء الشيء، قال تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف:﴿١٠٩﴾) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان:﴿٢٧﴾).

فالآية الكريمة تقرّر حقيقة أساسية مهمة يجب الالتفات إليها واستحضارها دائماً والعمل على أساسها، وهي أن كل ما عندكم من أمور الدنيا وما تتعلقون به وتعملون من أجله وتتفاخرون به وتحرصون عليه وتتصارعون فيما بينكم للاستئثار به سواء كان مالاً أو سلطةً أو أعواناً أو جاهاً أو لقباً علمياً أو مقاماً اجتماعياً أو عشيرةً أو أبناءً أو غير ذلك فإنها تزول وتفنى وتبقى تبعاتها إن لم يوظّفها في الموضع الصحيح لها، روى علي بن إبراهيم في تفسير الآية (أي ما عندكم من الأموال والنعمة يزول، وما عند الله مما تقدمونه من خير أو شر فهو باقٍ)[1] ورواه

(١) تفسير القمي: ١/ ٣٩٠.

في الدر المنثور عن سعيد بن جبير[١].

وفيها معنىً آخر أدقّ وهو: أن أي عمل لم يبتغِ وجه الله تعالى به وإنما عمله لنفسه رياءً أو طلباً للسمعة والجاه أو مجاملةً وتملقاً لأحدٍ بغير حق أو لأي غرض دنيوي فإنه داخل في عنوان ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ وهو لا قيمة له ولا ينتفع به صاحبه وقد يضره ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣) أما الباقي الذي ينفع في الآخرة فهو ما ابتغى به وجه الله تعالى قال سبحانه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى:٣٦) ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧)، ويشير أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الفرق الشاسع بين ما عندكم وما عند الله في قوله: (شتان ما بين عملين: عمل تذهب لذّته وتبقى تِبعَته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره)[٢].

وينبغي الالتفات إلى شرط الوصول إلى ما عند الله تعالى وهي ولاية أهل البيت (عليهم السلام) فهم (باب الله الذي يؤتى منه)[٣]، وفي زيارة الجامعة الكبيرة (بكم تقبل الطاعة المفترضة، ولكم المودّة الواجبة)[٤] وهم المعين الذي لا نفاد له لاتصاله بالله تبارك وتعالى، فقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام): أنه سئل عن قوله تعالى ﴿...إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك:٣٠)

---

(١) الدر المنثور: ٥/ ١٦٣.

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات، رقم (١٢١).

(٣) بحار الأنوار: ٢٥/ ٢/ ح٣.

(٤) مصابيح الجنان: ٤٥٤.

فقال: (﴿مَاؤُكُمْ﴾ أبوابكم الأئمة (عليهم السلام)، والأئمة أبواب الله، ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي يأتيكم بعلم الإمام)[1]، وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله عن المفضل: (قال لي ذات يوم وكان لا يكنيني قبل ذلك: يا أبا عبد الله قال: قلت: لبيك، قال: إن لنا في كل ليلة جمعة سرورا قلت زادك الله وما ذاك؟ قال: إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله (صلى الله عليه وآله) العرش ووافى الأئمة (عليهم السلام) معه ووافينا معهم، فلا ترد أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفدنا)[2].

وقد نهت الآية الكريمة السابقة على هذه عن ابتغاء غير الله تعالى فإنه قليل زائل مهما عظم في أعينكم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٩٥)، ومجيء الآية محل البحث بعدها كالتعليل لها.

وللآية تأثير عجيب في ردع النفس الأمّارة بالسوء، روى العلامة الطبرسي في سبب نزولها عن ابن عباس (أن رجلاً من حضرموت يقال له عبدان - الأشرع قال: يا رسول الله إن امرئ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها مني والقوم يعلمون أني لصادق لكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) امرئ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ يمينه، فلما قام

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٧٩، س١١، والتفصيل في تفسير من نور القرآن قبس قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (الملك:٣٠).

(٢) الكافي: ١/ ٢٥٤.

ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّهِ..﴾ الآيتان فلما قرأهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال امرئ القيس: أمّا ما عندي فينفد وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا..﴾ الآية)[1].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦): ترغيب في الأعمال الصالحة بالوعد الصادق المؤكّد بأن الله تعالى سيجزيهم على عملهم بأحسنه، ووصفهم بالذين صبروا لأن العمل لما عند الله تعالى والثبات عليه ومنع النفس من شهواتها واتباع أهوائها يتطلب صبراً طويلاً ومجاهدة مستمرة للنفس.

وقد قسَّم الحديث الشريف الصبر إلى مراتب ثلاث وأعطى للصبر على الطاعة مرتبة سامية، ففي الحديث عن علي (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش)[2].

وتركيز الآية على وصف الصبر يؤكد محورية الصبر في الأعمال الصالحة

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ١٠٨.

(٢) الكافي: ٢/ ٩١.

والجزاء عليها ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)، وهذا يعني أن كبح جماح النفس وضبط تصرفاتها في إطار ما يرضي الله تعالى ليس حرماناً ولا كبتاً كما يصوّر مروجو الفسق للمرأة بأن الحجاب تقييد وأن عدم إشباع الغرائز حرمان وكبت، بل إن هذا الانضباط متاجرة مع الله تعالى لنيل أحسن الجزاء.

وذكرنا في قبس سابق[1] عدة وجوه للأحسنية، إذ قد يراد بالأحسن الحسن فيجزي على الحسن الذي فعله دون السيئ، وقد تكون بمعنى أنه يكافئه على أساس أحسن الصور التي أتى بها عندما تكون أعماله متفاوتة الجودة فمنها حسن ومنها أحسن، كالأستاذ الذي يحتسب لطلابه الدرجة الأعلى في الامتحانات التي أدوّها، ويستفاد من بعض الأدعية المباركة معنى آخر وهو أن الجزاء على عملٍ ما قد يكون على طبق أفضل حالة للعمل صدرت من عباد الله الصالحين وهذا كرم لا يتصوره أحد.

وتضيف هذه الآية معنى آخر للأحسنية يستفاد من مقتضى المقابلة مع النفاد، وهو الخلود والأبدية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (ص:٥٤)، فهنا الأحسن بمعنى دوام العطاء وبقائه، ولا شك أن العطاء يكون أهنأ عندما يدوم، ففرق بين من تعطيه مكافئة على خدمةٍ قدّمها لك، وبين من تخصّص له عطاءً شهرياً مستمراً جزاءً على تلك الخدمة، فمثل هذا الجزاء أحسن من

(١) أنظر: قبس قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧). في تفسير من نور القرآن.

الحسن.

والباء للمقابلة كقولك: (بعتُ هذا بهذا) فأحسن الجزاء عوض عن العمل الصالح الذي صبر على الإتيان به.

فالآية الكريمة ترشدنا إلى لابدية الإخلاص في العمل وقصد ما عند الله تعالى ليكون الجزاء حسناً هنيئاً دائماً لا يفنى، وبمقدار الإخلاص يكتسب العمل قيمته، وقد أكّدت آيات كريمة هذه الحقيقة الراسخة وكذا الأحاديث الشريفة، روى البرقي في المحاسن بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن ربكم لرحيم، يشكر القليل، إن العبد ليصلي ركعتين يريد بهما وجه الله عز وجل، فيدخله الله بهما الجنة)[1] ورُوي عنه (عليه السلام) في التحذير من قصد غير الله تعالى في العمل قال: (قال الله عز وجل: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً)[2].

ومضافاً إلى هذه العمومات فقد أشارت إليه الأحاديث في كل طاعة أيضاً كالجهاد مثلاً أو الهجرة فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[3].

---

(١) وسائل الشيعة: ١ /٦١، أبواب مقدمة العبادات، باب ٨، ح٨، عن المحاسن، للبرقي: ١/ ٢٥٣، وفي من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ١/ ٢٠٩) عنه (عليه السلام): (إياكم والكسل فإن ربكم رحيم، يشكر القليل، إن الرجل ليصلي الركعتين يريد.. الحديث).

(٢) وسائل الشيعة: ١/ ٦١، أبواب مقدمة العبادات، باب ٨، ح٩.

(٣) سنن أبي داود: ١/ ٤٩٠/ ح٢٢٠١.

وجاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: (يا رَسولَ اللَّهِ، ما القِتَالُ في سَبيلِ اللَّهِ؟ فإنَّ أحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَباً، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إلَيْهِ رَأْسَهُ، قالَ: وما رَفَعَ إلَيْهِ رَأْسَهُ إلَّا أنَّه كانَ قَائِمًا، فَقالَ: مَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، فَهو في سَبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ)[1].

وفي خصوص الحج - بمناسبة حلول موسمه - روى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الحج حجان: حجّ لله وحج للناس فمن حجَّ لله كان ثوابه على الله الجنة، ومن حجَّ للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة)[2] أي حجَّ رياءً أو للمباهاة أو تنافساً أو للسياحة والتنزه ونحو ذلك، وفيه أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من حجَّ يريد الله عز وجل لا يريد بها رياءً ولا سمعةً غفر الله له البتة).

والإخلاص في العمل ليس دعوى مجردة وإنما يكتشفه الشخص بتعريض مشاعره ودوافعه للامتحان، مثلاً إذا امتعض لأنه بنى مسجداً ولم يكتب على بابه شيّده فلان، أو إذا رأى أنه لم يجلسوه في صدر المجلس وهو يرى أن له شأناً اجتماعياً، أو إذا خوطب بدون لفظ الجمع ولا أوصاف التعظيم نحو (سماحتكم)، أو إذا حسد زميلاً له في حلقة الدرس لأنه تفوق عليه وتحوَّل حسده إلى تسقيط وانتقاص وافتراء ونحو ذلك، فهذه كلها مظاهر عدم الإخلاص؛ لأن هذه المشاعر تعني أنه كان يريد بعلمه وعمله أن يكون له جاه وشأنية وتقدم وثناء ونحو ذلك، ولو كان عمله لله تعالى فإن الله يعلم بحقائق الأمور وأنه يفرح لكل عمل فيه نصرة

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٣٦/ ح١٢٣، ط. السلطانية.

(٢) والذي يليه: وسائل الشيعة: ١١/١٠٩/ باب ٤٠/ ح١، ح٢.

للدين وإعلاء كلمة الله تعالى سواء صدر منه أو من غيره.

فمن الضروري أن يلتفت الإنسان إلى دوافعه ويختبر نيته في أي عمل يقوم به بأن يكون مبتغياً ما عند الله تعالى، وألّا يغفل فإن الغفلة تعطي الفرصة للنفس أن تتبع هواها فيكون عمله لمصالح دنيوية زائلة كاشتهار عنوانه الخاص أو بناء مجده أو رياءً أو مجاملةً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤).

ومن مظاهر إخلاص النية:

١- الهمة والنشاط في العمل الصالح والمبادرة إلى الخير وعدم الاكتفاء بإسقاط الفرض.

٢- سروره بوقوع العمل الصالح والإنجاز المثمر خارجاً على يد أي أحد ويثني عليه، ولا يرى الخير حكراً عليه فإما أن يقترن باسمه وإلا فلا.

٣- نكران الذات وإنصاف الناس من نفسه والتواضع وقول الحق وإن كان مخالفاً لهواه ونحو ذلك.

القبس/١٠٨

سورة النحل:﴿٩٧﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

موضوع القبس: الإسلام يحقق الرفاه في الدنيا والسعادة في الآخرة

قال الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:﴿٩٧﴾).

وعدٌ من الله تعالى و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ﴿٩﴾) على نحو قانون عام ثابت تنشرح له النفس ويطمئن به القلب وتنشط به الجوارح خصوصاً للنساء اللواتي صودرت حقوقهن وأهينت كرامتهن وأنقصت درجاتهن.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ أيَّ عمل صالح، سواء كان العمل صغيراً أو كبيراً، ظاهراً أو خفياً، واحداً أو متعدداً فإنه مشمول بالآية الكريمة، وهذا يدعونا إلى عدم التقاعس عن القيام بأي عمل مادام صالحاً ولا نقلّل من شأن شيء منه، لأننا لا نعرف قيمة العمل ولا نعلم أثره، فقد اخفى الله تعالى رضاه في طاعته، حتى يكون ذلك حافزاً للقيام بكل عمل صالح.

﴿مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى﴾ بيان للتأكيد على عدم الفرق بين الذكر والأنثى في العمل وفي الجزاء، ولا في الواجبات والاستحقاقات، فالخطاب لهما واحد على حد سواء، ولكل منهما القابلية على نيل الكمالات، وقد كانت ﴿مَنْ﴾ في بداية

الآية كافية للدلالة بإطلاقها على شمولها للذكر والأنثى على السواء، لكن جيء بهذا التفصيل لتأكيد هذه الحقيقة، حيث سجّلت سورة النحل قبل ذلك عقيدة الجاهلية في الأنثى وضيق نفوسهم بها، وسطّرت جملة من صور احتقار المرأة كاستياء من يُبشَّر بولادتها وتواريه عن الناس قال تعالى في نفس سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ إلا سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).

فتساوي الآية الكريمة بين الذكر والأنثى في العمل الصالح والجزاء الحسن بشرط أن يحسنوا مقدمات الحصول على الحياة الطيبة، ومنها مراعاة الاحكام الخاصة لكل منهما مضافاً الى الاحكام المشتركة بينهما ولا يجوز للمرأة تجاوزها باسم المساواة ونحو ذلك ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٢٩) وقد تتورط المرأة بإسم العرفان والسلوك الى الله تعالى وتغريها بعض الكلمات المعسولة من قطّاع الطرق وشياطين الإنس فتقع فريسة لهم بسذاجتها وجهلها وكان عليها أن تعلم من أول الطريق أن (العفة رأس كل خير)[1]، كما ورد عن الإمام علي ابن ابي طالب(عليه السلام)وهي قد أضاعت العفّه عندما ارتبطت بهؤلاء الماكرين على (الخاص) وتبادلوا الكلمات العاطفية فالحذر الحذر.

وفي الآية تطمين للمرأة بان حقها ثابت، وكرامتها محفوظة، وأن الامتهان

(١) غرر الحكم للآمدى: ص٦٢/ح١٢١٢

والانتقاص الموجودين في القوانين الأرضية والدينية المُحرفة لا يمتّان إلى الدين الإلهي بصلة، وهذا غاية ما يُقال في المساواة بين الرجل والمرأة، ودعك من عقائد الجاهلية وأحاديث المتشدقين بظلم المرأة والحيف عليها والمطالبة بحقوقها، فهذا هراء يُعرف القصد منه، ولن تجد الكرامة والعدالة والمساواة إلا في ظل الإسلام، وإنما يريدون بدعواتهم هذه إفساد المجتمع، وإخراج المرأة من عفافها وحيائها لتتحول إلى سلعة تحقق المتعة لهم، ثم يرمونها على قارعة الطريق.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو حالية: فكون العمل صالحاً ظاهراً لا يكفي في الحصول على الدرجات الرفيعة، ما لم يقترن بالإيمان، وما لم يصدر بنية خالصة لله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة:٥)، فكم من عمل يبدو صالحاً في نفسه إلا أنه غير مقبول، ولا يترتب عليه الجزاء الطيب لأنه لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، كمن ينفق ماله رياءً أو يقاتل عصبية أو لغنيمة يطلبها، فإن حظه يكون تحقق الغاية التي أرادها، روي عن النبي (ﷺ) قوله: (إنما الأعمال بالنيات، إنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه)[1].

فلا بد أن يكون المؤمن دقيقاً من هذه الناحية ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤) وربما يظهر من بعض الروايات أن هذه النية تخفى حتى على الملك الرقيب على الإنسان، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام

(١) بحار الانوار: ٦٧/ ٢١٣، عن غوالي اللئالي.

الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله) إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فاذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجّين، إنه ليس إياي أراد بها)[1].

ولعل تقديم العمل على الإيمان في الآية لإلفات النظر إلى أن العمل يعكس حقيقة الإيمان، ويكشف عن صدقه ولا ينفع إيمان إلا مع عمل، كما لا ينفع العلم إلا بالعمل به.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ أي من يعمل صالحاً وهو مؤمن يفيض الله تعالى عليه حياة أخرى ارقى من الحياة الاعتيادية التي يشترك فيها مع جميع الناس، ولعلها المقصودة بالمرتبة الثالثة أو الرابعة من مراتب النفس الإنسانية بحسب تقسيم أمير المؤمنين (عليه السلام)[2]، وهي الحياة الإنسانية الحقيقية أما غير المؤمن فليس كذلك لأن حياته جسدية حيوانية لا تزيد عن فعاليات الحيوان فهو مثله يأكل ويشرب ويتحرك وينام وينكح، وقد يزيد على الحيوان بوجود عقل نظري يتقن به بعض العلوم لكنه يفتقد الحياة المعنوية التي يتميز بها الإنسان، واستحق بها أن يكون خليفة الله في أرضه؛ لذا ضرب القران الكريم مثلاً لحياة غير المؤمنين بالأرض الهامدة والميتة فاذا انزل الله تعالى عليها برحمته ماء الايمان والمعرفة بالله فإنها تنتعش وتزدهر قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٢٣/ ح٧.

(٢) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): قوله لكميل بن زياد النخعي (يا كميل، وأي الأنفس تريد أن أعرفك؟ قلت: يا مولاي هل هي إلا نفس واحدة؟ قال: يا كميل إنما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية) (بحار الأنوار: ٥٨/ ٨٥).

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥).

((فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرّم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: لنطيبّن حياته فالآية نظير قوله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام:١٢٢)))[١].

((وليست هذه الحياة الجديدة المختصة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة، وإن كانت غيرها فإنما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد فلا يتعدد بها الإنسان كما أن الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلا ارتفاع الدرجة دون تعدد الشخصية))[٢].

﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ صفة للحياة التي يختص بها المؤمنون بلطف الله تعالى وتأييده ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة:٢٢) ويتنعمون بها، وهذا الوعد مطلق فهو لا يختص بحياة الآخرة وإنما يكون ذلك في الدنيا أيضاً ولا ينافي الآيات التي دلّت على اختصاص الآخرة بصفة الحياة باعتبارها المستمرة الباقية والحقيقية كقوله تعالى ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:٢٤) وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:٦٤) فهذا الوصف بلحاظ خلودها وعدم فنائها في الدنيا، اما الوعد بالحياة الطيبة فإنه لحاظ

(١) الميزان في تفسير القران: ١٢/ ٣٤١.

(٢) الميزان في تفسير القران: ١٢/ ٣٤٣.

آخر لا مانع من أن تكون مطلقاً فيشمل الدنيا بإطلاقه، فإن من ذكرتهم الآية يتنعمون بالجنة وهم في الدنيا، كما ورد في خطبة أمير المؤمنين(عليه السلام) في وصف المتقين: (....فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ)[1]، وتوجد أدلة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة على أن الإنسان يعيش الجنة والنار في حياته الدنيوية بنحو من الأنحاء.

بل لعلَّ هذا الوعد متعيّن في الدنيا، لأن حسن جزاء الآخرة مذكور في نهاية الآية ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ وهو أوضح في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر:٤٠).

ووصْفها بالطيبة مطلق ولا يختص بجهة معينة من الحياة، فهي آمنة مطمئنة سعيدة هادئة هانئة، تمتزج فيها المبادئ السامية مع العيش الرغيد، وليس من الضروري أن يتحقق ذلك بمال وفير أو جاه عريض أو سلطة قوية، وتزداد طيبة هذه الحياة بأن الله تعالى نسبها إليه مباشرة ﴿لَنُحْيِيَنَّهُ﴾ فالمؤمن العامل للصالحات يدّبره الله تعالى بحسن صنيعه، ويختار له الخير في جميع أموره، فالله تعالى ينصره في كل مواطن المواجهة وبكل أشكالها ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١) ويتولى أمره ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (فصلت:٣١) ويزيل عنه الهم والحزن ويبشّره ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس:﴿٦٢﴾-﴿٦٤﴾). وممّا يميّز هذه الحياة الطيبة حصول نور الفرقان في قلبه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:﴿١٠٨﴾) فيميّز بين الحق والباطل فيعرض عن الباطل ويتعلق بالحق ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (يونس:﴿٨٢﴾)، وغير ذلك من المنن الالهية العظيمة، وتتحقق بها استجابة لدعائهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة:﴿٢٠١﴾).

وقد فُسِرت الحياة الطيبة في الروايات بمعان عديدة: منها: القنوع[1] كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة والإمام الصادق (عليه السلام)، وكلها مصاديق لما يوجب الحياة الطيبة، أو إنها من آثارها على حياة الإنسان كقول ابن عباس: أنها السعادة[2].

وتكون النتائج أوضح لو أن المجتمع عمل بهذا القانون فإن حياته الطيبة ستتجلى في الأمن والسلام والمحبة والتكامل والرفاه والإيثار، وسيزول عنه الظلم والطغيان والاستبداد والاستكبار والاستعباد وعبادة الأهواء والطواغيت، ولذا فإن هذه الحياة الطيبة ترتبت على العمل الصالح وليس الإيمان وحده، وهذه نتائج طبيعية لأنهم سيتصلون بالله تعالى وسيفيض عليهم من صفاته الحسنى بما يناسب درجاتهم، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ

(١) نور الثقلين: ٣/ ٨٣، بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤٥.

(٢) الدر المنثور: ٥/ ١٦٤.

رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦) وقال تعالى في الأمم التي تنكّرت للإيمان والعمل الصالح فسُلِبت نعمتا الغذاء والأمن ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٥-١٧).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن الله تعالى وعد عباده ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام:٨٤) وإذا كان عملهم الصالح متفاوتاً في الحسن بحسب إقبال قلوبهم ونشاط جوارحهم وتهيئة الظروف المناسبة، فإن الله تعالى سيعطيهم الجزاء وفق أحسن عمل قدموه، كالأستاذ الذي يمتحن طلابه عدة مرات ثم يحتسب لهم اعلى درجة أحرزوها، أو كتاجر محسن يأتي إلى صاحب بضاعة مختلفة في الجودة والسعر فيأخذها كلها بسعر أفضلها، هذا بلحاظ عملهم، أما بلحاظ كرم الله تعالى وفضله فإن حسن الجزاء سيزداد بغير حساب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٦١) فيكون المعنى بأحسن مما كانوا

يعملون وهذا معنى ثانٍ للأحسنية، ويمكن أن يكون المعنى أنهم إذا كان في عملهم طاعة ومباح إحتسب المباح طاعة كقول النبي (ﷺ): (ونومكم فيه عباده)[1] وفي وصيته (ﷺ) لأبي ذر أن النكاح يكون عبادة وفي بعض الأحاديث أنه إذا فاتته طاعة لمرض ونحوه كتبت له وهكذا.

وهنا معنى رابع بأن يكون الأحسن بمعنى الحسن المحض مقابل السيئ فيكون المعنى أن الله تعالى يجزيهم على أعمالهم الحسنة فقط أما السيئة فلا يحاسبهم عليها لأنه سبحانه سيغفرها لهم برحمته ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر:﴿٤٠﴾) أي لا يحاسبهم عليها أو يبدلها حسنات ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان:﴿٧٠﴾).

الدين مشروع لاعمار الدنيا وليس للآخرة فقط:

والوعد بالحياة الطيبة في الدنيا يدعونا إلى تصحيح أسلوب الخطاب الديني فإننا حين ندعو الناس إلى الالتزام بالدين والعودة إلى الله تبارك وتعالى نقدّم لهم وعوداً بالجزاء في الآخرة بأنهم سيدخلون الجنة ويتنعمون بها، وهذا لا يكفي لإقناع الناس بالدين لأنهم أبناء هذه الدنيا ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (القيامة:﴿٢٠﴾) وهم يفكرون في تحسين أوضاعهم المعاشية ويسيرون خلف من يضمن لهم ذلك فلا بد أن تبيّن لهم أن الدين ليس فقط مشروعاً لإصلاح الآخرة بل هو مشروع

(١)أمالي الشيخ الصدوق: ١٥٣/ح١٤٩.

لسعادة الدنيا أيضاً، وهذا منهج قراني، فإنه امتدح قوماً يطلبون الحسنة في الدنيا كما يطلبونها في الاخرة، قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة:٢٠١) وفي أوائل البعثة الشريفة لما دعاهم إلى عبادة الله تعالى كفل لهم أهم حاجتين الغذاء والأمن، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٣-٤) بل إن أول إنسان خلقة الله تبارك وتعالى وهو النبي آدم (عليه السلام) أبو البشر تعهد الله تعالى له بذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ لَكَ إلا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه:١١٨-١١٩)، وقد رغّب الله تعالى المؤمنين في الجهاد بثواب الآخرة وغنيمة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ (الفتح:٢٠).

ومن يتتبّع أحاديث النبي واله (صلوات الله عليهم أجمعين) يجد هذه الرؤية واضحة، مثلاً في قضية الزواج تجد الأحاديث الأخروية كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (من أحب أن يتبع سنتي فإن من سنتي التزويج)[1] وقول الإمام الصادق (عليه السلام): (ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب)[2]، وتجد أيضاً حديث الإمام الباقر (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (اتخذوا الأهل فإنه

(١) وسائل الشيعة: ٢٠/ ١٧ ط. مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام).

(٢) وسائل الشعة: ٢٠/ ١٨.

أرزق لكم)[١] وقال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن شكا له الحاجة: (الرزق مع النساء والعيال)[٢].

أو قضية طلب العلم فقد وردت فيه أحاديث كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)[٣] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (الشاخص في طلب العلم كالمجاهد في سبيل الله)[٤] كما ورد فيه مثل قول النبي (صلى الله عليه وآله): (من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب)[٥].

ولا بد من الانتباه هنا إلى أن الأغراض الدنيوية يجب أن تكون في طول نية القربة إلى الله تعالى وتحت سقفها كما يقال، وليس في عرضها على نحو التشريك فضلاً عن كونها هي الغاية، فإنه خلاف الإيمان والإخلاص الذي اشترطته الآية الكريمة وغيرها، خُذ مثلاً حديث الإمام الصادق (عليه السلام) عن طلب العلم: (من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة)[٦].

وهكذا تجد عبادات كثيرة جُعِلَ جزاؤها دنيوياً معجلاً كتحصيل الذرية أو التوسعة في الرزق أو تفريج الهموم والغموم أو السعادة الزوجية أو راحة البال

---

(١)وسائل الشيعة: ٢٠/ ١٩.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٠/ ٤٤/ ح٤، ٥.

(٣) تنبيه الخواطر: ٢/ ١٧٦ ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٦.

(٤) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٢٧/.ح ٣٣١٢٠

(٥) كنز العمال: ح ٢٨٨٥٥، ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٧.

(٦) الكافي: ١/ ٤٦/ ح٢، ميزان الحكمة: ٦/ ١٦٤.

وغير ذلك، وهو لا ينافي الإخلاص وقصد القربة وتصحيح ذلك أنها من باب الداعي إلى الداعي أي أن الداعي إلى الصلاة تكون القربة إلى الله تعالى وأن الداعي إلى هذا الداعي هي هذه الحاجات والمطالب المعجَّلة.

ومن يقرأ الأهداف التي أعلنها الإمام الحسين (عليه السلام) لخروجه يجد فيها إقامة السنة وإماتة البدعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويجد إلى جنبها إقامة العدالة الاجتماعية وتوفير الأمن وحرية التعبير عن الرأي وسائر حقوق الناس وتوزيع الثروات على الشعب بالعدل والعمل بالقانون وإبطال إمامة الجور ونحو ذلك من الأغراض التي تلبي الاحتياجات العاجلة للناس.

القبس/١٠٩

سورة النحل:﴿٩٨﴾

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾

شرحنا في القبس[1] المعنون بالآية ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:﴿٣٦﴾) وجه الحاجة المستمرة إلى الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم وشرحنا معنى الاستعاذة وانها ليست مجرد تحريك لسان وإنما هي حالة معنوية يعيشها الانسان.

وكان الأمر بالاستعاذة عاماً لكن الملفت ان الله تعالى خصَّ مورداً واحداً بالذكر طلب فيه الاستعاذة وهو عند قراءة القرآن ولا سيما في الصلاة التي هي معراج المؤمن، قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ واختيار وصف الرجيم له لزيادة التنفير منه وللتذكير بتمرده وعصيانه على الخالق العظيم مما اوجب رجمه وطرده.

وقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ يشير الى حالة الابتداء بالقراءة وان كان بصيغة الماضي كما لو قلت اذا اردت الذهاب الى كذا فخذ معك كذا، ويمكن ان يراد به بعد الانتهاء من القراءة كما هو ظاهر صيغة الماضي، وكون الامر بالاستعاذة جواب الشرط فتحقيق معنى الاستعاذة مطلوب قبل وبعد واثناء تلاوة القرآن وكان العبارة (لما تقرأ القران استعذ بالله من الشيطان الرجيم) اما قبلها فلازالة المعوّقات

(١) راجع: قبس قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:﴿٣٦﴾) في تفسير من نور القرآن.

عن التدبر في الآيات والاستفادة منها وخلق البيئة النقية لتلقي المعارف القرآنية وتوجيه كل المشاعر الى الله تعالى ، واما اثناءها فلمنع الشيطان من التشويش وخلط الأفكار والايحاء بمعاني مخالفة لمراد المنزل العظيم كالذين قال تعالى فيهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:١٢٥).

واما بعد القراءة فللمحافظة على ما حصل عليه من بركات القران الكريم علما وعملا.

في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:(من قرأ القرآن ولم يخضع لله، ولم يرق قلبه، ولا يكتسي حزنا ووجلا في سره، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسرانا مبينا، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء:قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم)[1].

فشرط الاستفادة من القرآن الكريم وفهم معانيه تنقية نفس الانسان بالتقوى وتطهير القلب، في الحديث الشريف (لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني ادم لنظروا الى ملكوت السماوات)[2].

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٨٢/ ٤٣/ ح ٣٠.

(٢) بحار الانوار: ١٦٣/٥٦.

القبس/١١٠

سورة الإسراء:﴿١١﴾

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾

موضوع القبس: في العجلة الندامة الا في فعل الخير

قد يتوصل الانسان إلى معرفة عميقة بأجزاء جسمه ووظائفها والامراض العارضة لها وكيفية علاجها، لكن لا أحد يستطيع أن يصف الانسان في هواجسه وميوله وغرائزه ومكنونات ضميره أفضل من خالقه العظيم، وقد كشف القرآن الكريم عن جملة من هذه الاوصاف، قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ (المعارج:١٩) ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢) ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤) ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف:٥٤) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج:٦٦) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات:٦) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩) ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ﴿المؤمنون:٧٠﴾ وغيرها مما تستحق أن يفرد لها بحث مستقل إلى ان تصل ذروة الشكوى من الانسان والدعاء عليه في قوله تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس:١٧) وكانت نتيجة ذلك ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر:٢).

والمقصود ليس الانسان بذاته وحقيقته وأصل خلقته لأنه صُمِّم ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) ليكون خليفة الله في أرضه وأسجد له ملائكته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:٧٠) وعنده القابلية لأن يكون أعلى درجة من الملائكة اذا أخلص العبودية لله تعالى، وفي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) (ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من المؤمن لأن الملائكة خدّام المؤمنين)[1]؛ وعلّل ذلك الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سأله عبدالله بن سنان: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال (عليه السلام) (قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام): إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقلُهُ شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم)[2].

وانما المقصود الانسان بواقعه الخارجي وسلوكه العملي الذي اختاره بنفسه لأنه لم يحافظ على فطرته ولم يلتزم بما خُطِّط له واتبع هواه وغرّته الدنيا وزين له الشيطان عمله وفي الحديث (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ويمجسانه)[3]، ولو ناله التوفيق الإلهي وحصلت له التربية الصالحة لما انحدر إلى تلك الصفات، ولذا استثنت الآيات الكريمة ولم تشمل كل انسان ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۞ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج:١٩-٢٣) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٢-٣).

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٣/ ح٢.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٩٩/ ح٥.

(٣) بحار الأنوار: ج٣/ ص٢٢.

ومن هذا نعرف أنه لا يوجد تنافي بين هاتين النظرتين القرآنيتين ومن تلك الغرائز والميول:العجلة وعدم التأني في اتخاذ القرار والموقف فيتخبط ويوقع نفسه في الضرر ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧) حتى إنه بسبب استعجاله يدعو ويطلب الشر لنفسه كطلبه الخير حين يندفع لتحقيق مطامعه من دون أن يفرِّق بين الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى أهدافه. ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء:١١) فكونه عجولاً بطبعه علة لدعائه بالشر كما يدعو بالخير والظاهر أن (كان) هنا شأنية أي ان من شأنه ذلك أو (كان) التامة بمعنى وُجِد وخلق وفي طبعه العجلة، وتكون (عجولا) حالاً وليس خبر كان بناءاً على كونها ناقصة.

والدعاء هنا بمعنى الطلب وهو أوسع من كونه باللسان أو بالسعي والعمل فدعاؤه بالخير والشر أي طلبه لهما وسعيه اليهما كمن يطلب الرزق تارة بلسانه وأخرى بسعيه وجهده، قال تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الرحمن:٢٩) وليس كلهم يسألون باللسان فالإنسان لطبعه العجول يطلب الشر أو يسعى اليه بالعمل كطلبه الخير ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الحج:٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ (الرعد:٦) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ (النمل:٤٦).

وقد أورد القرآن الكريم نماذج من هؤلاء كقوله عن أحدهم – قيل إنه

النضر بن الحارث[١] - ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢) وقد استجاب الله تعالى دعائه وتمكّن منه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقتله ولذا ورد التوجيه من الإمام الصادق (عليه السلام) (اعرف طريق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وانت تظن أن فيه نجاتك)[٢].

دوافع العجلة:

وإنما يعجل الانسان لاتباعه هواه فيستعجل تحصيل اللذة والمتعة وما يوافق هواه أو لسذاجته وحسن ظنه المفرط أو لجهله بحقائق الأمور وعواقبها فيتوهم الأمور بالعكس فيرى الخير شراً والشر خيراً وتنقلب الموازين في نظره فيصبح عنده المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فيصير ذلك حجاباً عن الحقيقة والمعرفة ومانعاً من التكامل.

الاستعجال محمود ومذموم:

والاستعجال قد يكون محموداً أو مذموماً فالمحمود ما كان في فعل الخير إذ تستحب المبادرة إليه ، قال تعالى ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣) وقال تعالى ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (آل عمران:١١٤) ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٨) وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (التؤدة في كل شيء خير الا في عمل

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٧/ ١٦٢.

(٢) نور الثقلين: ٣/ ١٤١، عن مصباح الشريعة.

الآخرة)[١] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (التؤدة ممدوحة في كل شيء الا في فرص الخير)[٢] وعنه (عليه السلام) قال: (اذا عرض شيء من أمر الآخرة فابدأ به، واذا عرض شيء من أمر الدنيا فتأنَّه حتى تصيب رشدك فيه)[٣]، وإنما طلب التعجيل إلى فعل الخير لأن التثاقل والتباطؤ فيه يعطي فرصة للشيطان وللنفس الامارة بالسوء لثني الشخص عن المضي فيه كما في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (من همَّ بشيء من الخير فليعجّله فان كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة)[٤] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (اذا همَّ أحدكم بخيرٍ أو صلةٍ فإن عن يمينه وشماله شيطانين، فليبادر لا يكفّاه عن ذلك)[٥].

واما الاستعجال المذموم ففي اقتحام الأمور من دون حساب عواقبها والسير وراء المطامع والشهوات بمجرد خطورها في ذهنه وتراءي مصلحة ما فيها من دون تروّي وملاحظة النتائج والاثار وحينئذٍ يصطدم بالنتيجة وتحلّ به الندامة، اما اذا درس الموضوع بشكل جيد وعرف وجه الصلاح فيه. فحينئذٍ ينفذّ ما انعقد عليه عزمه، قال تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ (آل عمران:١٥٩).

فعلى الانسان ان يصبر ويتأنى في نيل مقاصده واغراضه ويتحقق من كونها مشروعة وان الوسائل التي يريد بها تحقيق غرضه مشروعة أيضاً

---

(١) كنز العمال: ٥٦٧٤.

(٢) غرر الحكم: ١٩٣٧.

(٣) الامالي للطوسي: ٧/ ح٨.

(٤) أصول الكافي، ج٢، كتاب الايمان والكفر، باب: تعجيل فعل الخير.

(٥) أصول الكافي، ج٢/ كتاب الايمان والكفر، باب: تعجيل فعل الخير.

ونقية وعفيفة، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله:(انما اهلك الناس العجلة ولو ان الناس تثبتوا لم يهلك أحد)[١] وعنه (صلى الله عليه وآله) قال (ان الاناة من الله والعجلة من الشيطان)[٢] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة)[٣]. وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (التأني في الفعل يؤمن الخطل، التروي في القول يؤمن الزلل)[٤].

وبذلك يتّضح ان الاناة والتثبت من جنود الرحمن والعقل وان العجلة والتسرع من جنود الشيطان والجهل.

روي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) دخل المسجد وقال لرجل (امسك علي بغلتي - أي احفظها وما عليها من السرقة والضياع إلى ان ينهي الإمام عبادته لكن الرجل المؤتمن طمعت نفسه - فخلع لجامها وذهب به فخرج علي (عليه السلام) بعد ما قضى صلاته وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فوجد البغلة عطلى - أي خالية من السرج فقد سرقه الرجل طمعاً بثمنه -، فدفع إلى غلامه الدرهمين ليشتري به لجاماً، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق قد باعه الرجل بدرهمين، فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه.

فقال علي (عليه السلام): إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر

---

(١) المحاسن: ١/ ٣٤٠/ ح٦٩٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ح٦٩٨، كنز العمال: ٥٦٧٤.

(٣) الخصال: ١٠٠/ ح٥٢.

(٤) غرر الحكم: ١٣١٠.

ولا يزداد على ما قدر له)[1]. فعجلته لتحصيل المال أدّت به إلى هذه النتيجة السيئة ولنا كلمة مستقلة اعطينا فيها امثلة من الواقع على هذه النتيجة.

ومن صور الاستعجال المذموم قيام البعض بالتشهير بالآخرين وذمهم وتسقيطهم ونشر غسيلهم بمجرد وصول خبر إليه بذلك من دون أن يتحقق من صدق الخبر أو يعطي الفرصة للآخر لكي يبيّن الحقيقة ويعطي العذر، في الحديث المروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (يا عبد الله لا تعجل في عيب أحدٍ بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصيةٍ فلعلك معذب عليه)[2].

ومن كتابه (عليه السلام) إلى مالك الاشتر لما ولّاه مصر (لا تعجّلن إلى تصديق ساعٍ فان الساعي غاش وإن تشبّه بالناصحين)[3].

وهذه العجلة المركوزة في طبع الانسان هي التي تعمي بصيرته وتسلب عقله فتدفعه إلى التشبث بالدنيا والتمسك بها لأنه يجد فيها لذة عاجلة ويعزف عن متطلبات الآخرة لأنها مؤجلّة ﴿إِنَّ هَـؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ (الإنسان:٢٧).

وقال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن

(١) ميزان الحكمة – محمد الريشهري: ج٢/ ص١٠٧٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/ ١٦٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٠.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ (الإسراء:١٨).

ومن اسوأ النماذج على هؤلاء عمر بن سعد فانه عندما كلّفه ابن زياد بقيادة الجيش الخارج الى حرب الامام الحسين وبات ليلته يفكّر ويتأمل في ما عرض عليه من ولاية الري وجرجان ان قتل الحسين (عليه السلام) وفيها نار جهنم وانشأ ابياتاً منها:

أأترك ملك الري والري منيتي ام ارجع مأثوماً بقتل حسين[1]

وأختار في النهاية الدنيا العاجلة الفانية معللاً ذلك بقوله (وما عاقل باع الوجود بدين) لكنه لم يكن عاقلاً في اختياره بل كان أحمقاً ومتوهماً

(١) اللهوف في قتلى الطفوف- ابن طاووس: ١٩٣.

القبس/١١١

سورة الإسراء:﴿١٩﴾

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾

الأمور بخواتيمها:

مما يوجب حذر المؤمن في هذه الحياة الدنيا ويجعله في توجّس ويدفعه إلى مزيد من الاعتصام بالله تعالى، هو أن لا يختم له بخير، وإن كان عمله بحسب الظاهر صالحاً الآن إلاّ أنه لا تعرف خاتمته والأمور بخواتيمها، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة لا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له)[1].

وقد ينجح الإنسان في امتحانات عديدة لكنه يسقط في أحدها سقوطاً نهائياً والعياذ بالله، عن النبي (صلى الله عليه وآله): (أن العبد ليعمل عمل أهل الجنة فيما يرى الناس وإنه لمن أهل النار، وإنه ليعمل عمل أهل النار فيما يرى الناس وإنه لمن أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم)[2] وعنه (صلى الله عليه وآله):(الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها)[3].

قصة أحمد بن هلال العبرتائي:

وهذه الحقيقة لها شواهد قرآنية تاريخية كثيرة، ولنذكر مثالاً (حوزوياً) وهو

(١) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧١/ ح١٣.

(٢) كنز العمال: ح ٩٥٠.

(٣) ميزان الحكمة- الريشهري: ٧٢٤/١.

أحمد بن هلال العبرتائي من كبار العلماء والرواة فقد قال عنه الشيخ الطوسي (روى أكثر أصول أصحابنا) ناهز التسعين من العمر (١٨٠-٢٦٧)، حجّ (٥٤) حجة، عشرون منها ماشياً على قدميه، قال عنه الكشي (وقد كان رواة أصحابنا بالعراق لقوه، وكتبوا منه) وقال العلامة (قد) أنه سمع منه (جل أصحاب الحديث واعتمدوه فيها).

وكان من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) إلاّ أنّه مرّ بامتحان بعد استشهاد الإمام العسكري (عليه السلام) ففشل فيه وغلبه هواه وحسده وحبّه للرئاسة والزعامة فورد التحذير أولاً من الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) من الانخداع بظاهره فقد كتب الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) إلى نوابه (قوّامه) بالعراق في ابتداء أمره (احذروا الصوفي المتصنّع) ثم جاء لعنه من الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، فقد ورد في كتاب الغيبة في ذكر المذمومين الذين ادّعوا البابية (قال أبو علي بن همام:كان أحمد بن هلال من أصحاب أبي محمد(عليه السلام)، فأجمعت الشيعة على وكالة محمد بن عثمان (رضي الله عنه) بنص الحسن (عليه السلام) في حياته، ولما مضى الحسن (عليه السلام)، قالت الشيعة الجماعة له: ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان، وترجع إليه، وقد نصّ عليه الإمام المفترض الطاعة؟ فقال لهم لم أسمعه ينصّ عليه بالوكالة، وليس أنكر أباه، يعني عثمان بن سعيد، فأمّا أن أقطع أنّ أبا جعفر وكيل صاحب الزمان فلا أجسر عليه، فقالوا: قد سمعهُ غيرك، فقال: أنتم وما سمعتم، ووقف على أبي جعفر، فلعنوه وتبرئوا منه، ثم ظهر التوقيع على يد أبي القاسم حسين بن روح، بلعنه، وبالبراءة منه في جملة من لُعن).

ولم يتحمل كثير من الأصحاب هذا الخبر في حق ابن هلال لما ذكرنا من

منزلته عندهم وأنكروا ما ورد في مذمّته (فحملوا القاسم بن العلاء على أن يُراجع في أمره فخرج إليه توقيع طويل جاء فيه (ونحن نبرأ إلى الله تعالى من ابن هلال لا رحمه الله وممن لا يبرأ منه، فأعلم الإسحاقي وأهل بلده مما أعلمناك من حال هذا الفاجر، وجميع من كان سألك ويسألك عنه)[1].

أهمية حسن الخاتمة:

فهذا وأمثاله كثير ممن كان له ظاهر تمتد إليه الأعناق، لكن قدمه زلّت ولم يتب ولم يصلح خطأه وأصرّ عليه فكان من الملعونين لذا ورد في الحديث النبوي الشريف (لا عليكم أن تُعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بما يُختمُ له، فإنّ العاملَ يعمل زماناً من عمره أو بُرهة من دهره بعملٍ صالحٍ لو مات عليه دخل الجنة، ثمّ يتحوّل فيعمل عملاً سيئاً)[2] وعنه (صلى الله عليه وآله):(إنّ الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثمّ يختم له بعمل أهل النار)[3].

ولأهميّة حسن الخاتمة فقد أشير إليها كثيراً في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وتكرّر طلبها في الأدعية المباركة، وأجاب القرآن الكريم باختصار عن كيفية ضمان الفوز بحسن الخاتمة في قوله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣)

---

(١) هذه النصوص نقلها من مصادرها: السيد الخوئي (قدس سره) في معجم رجال الحديث: ٢/ ٣٦٧-٣٧٠.

(٢) مسند احمد: ج٣/ ٢٢٣.

(٣) كنز العمال - المتقي الهندي: ١/ ١١٦/ ح٥٤٥.

وبتفصيل أكثر قال تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (الإسراء:١٩).

متطلبات الفوز بالآخرة:

فالفوز بالآخرة يتطلب بحسب الآية الشريفة:

١- إرادة جديّة وقصد حقيقي لنيل رضوان الله تبارك وتعالى وليس مجرد لقلقة لسان كما وصفهم الإمام الحسين (عليه السلام) (الناس عبيد الدُنيا، والدين لعقٌ على ألسنتهم يحيطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحصّوا بالبلاء قلّ الديانون)[١]، وأن تكون إرادته مبنية على قصد الوصول إلى الهدف الحقيقي وهو رضا الله تبارك وتعالى وليس طاعة لغيره أو لأي هدفٍ آخر سواه.

٢- السعي الجاد الدؤوب بما يصلح الآخرة ويضمن الفوز فيها، فقوله تعالى ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ يتضمن عدة خصائص لهذا السعي منها كونه حثيثاً ودؤوباً فقد قيل في معنى السعي أنّه ((المشي السريع ويستعمل للجد في الأمر)، (وأكثر ما يُستعمل السعي في الأفعال المحمودة)) ولتأكيد ذلك فقد أضافت الآية السعي إلى الآخرة أي أن يكون السعي مناسباً للآخرة بكل ما يعني ذلك، لتختصر كل ما تطلبه الآخرة من نوع السعي ومقداره وخصوصياته، قال السيّد صاحب الميزان ((والمعنى وسعى وجدّ للآخرة السعي الذي يختص بها ويُستفاد منه أنّ سعيه لها يجب أن يكون سعياً يليق بها ويحقّ لها كأن يكون يبذل كمال الجهدِ في حسن العمل وأخذه من عقل قطعي أو حجة شرعية))[٢].

---

(١) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٢٤٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦٥/١٣.

٣- أن يقترن ذلك بالإيمان بالله تعالى وبرسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنّه شرط القبول ونيل الجزاء لأنّ باب الله الذي لا يُؤتى إلاّ منه ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة:١٨٩) وأن يتعزز الإيمان بالمعرفة بالله تعالى وإخلاص النية له سبحانه، وهذا الإيمان والمعرفة لابد أن تكون لها حقيقة، فيعتقد أن هذا كله لطفٌ من الله تعالى وأنّه لا يستقل بشيء عن ربّه، وأن يكون خائفاً مشفقاً إذا نظر إلى العمل من زاويته الشخصية، فإذا قُبل عمله بفضل الله ورحمته وهذا ما أكدته الآية اللاحقة ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء:٢٠) ونحو ذلك من المعاني.

ما يؤمنك من سوء العاقبة:

وقد بيّنت الروايات الشريفة بعض مظاهر هذه المعرفة وهذه الأعمال الصالحة:عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إذا أردت أن يؤمنك الله سوء العاقبة فاعلم أن ما تأتيه من خير فبفضل الله وتوفيقه، وما تأتيه من سوء فبإمهال الله وإنظاره إياك وحلمه وعفوه عنك)[1]؛ ومن كلام الإمام الصادق (عليه السلام) لبعض الناس (إن أردت أن يُختم بخير عملك حتّى تُقبض وأنت في أفضل الأعمال فعظّم لله حقّه أن تبذل نعمائه في معاصيه، وأن تغتر بحلمه عنك، وأكرم كلّ من وجدته يذكر منّا أو ينتحل مودّتنا)[2]؛ عن الإمام الكاظم (عليه السلام): (إنّ خواتيم أعمالكم قضاء حوائج اخوانكم والإحسان إليهم ما قدرتم وإلاّ لم يُقبل منكم عمل، حنّوا على اخوانكم

(١) بحار الأنوار: ٧٠/ ٣٩٢/ ح ٦٠.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢/ ٤/ ح٨.

وارحموهم تُلحقوا بنا)[1].

فمثل هؤلاء يكون سعيهم مشكوراً، وقد أطلق لفظ الشكر ليكون لا حدود له لأنّ صفات الله تبارك وتعالى لا حدود لها، ومن أسمائه الشكور.

لا بد أن يقترن الدعاء بالسعي:

وشدّدت الآية على أن الجزاء لا يتخلف عن السعي بل يكون نتيجة حتمية له، بعكس من يطلبون الدُنيا الذين ذكرتهم الآية السابقة على هذه، قال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ (الإسراء:١٨) فلا يتحقق له ما يريد بل ما يريده الله تبارك وتعالى، وليس لكل أحدٍ بل لمن يشاء الله تعالى أن يعطيه.

وبهذا المعنى الذي شرحناه لسعي الآخرة لابد أن نفهم معنى انتظار الإمام صاحب الأمر (عليه السلام) والدعاء بقيام دولته المباركة، فلابد أن يقترن بالسعي الخاص به والمناسب له، فتقيّد أحاديث ثواب الانتظار والمنتظرين بأن يُسعى له سعيه.

وهكذا كل قضية في حياتنا يُراد تحقيقها فلابد أن يسعى لها سعيها المناسب لها كمن يريد أن يصبح طبيباً أو مهندساً فلابد أن يبذل الجهد المطلوب كماً ونوعاً ويسير وفق الآليات التي توصله إلى هدفه، ولا ينال كل ذلك إلاّ بلطف الله تعالى وتوفيقه ومدده.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٣٧٩.

القبس/١١٢

سورة الإسراء:﴿٢٣﴾

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾

موضوع القبس: بر الوالدين

الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة في وجوب بر الوالدين والاحسان اليهما وحرمة عقوقهما كثيرة جدا قال تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء:٢٣) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان:١٤-١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ (الأحقاف:١٥) ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة:٨٣).

اما الروايات فكثيرة جدا نذكر منها:

ما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما سُئل عن حق الوالدين على ولدهما قال (صلى الله عليه وآله) باختصار (هما جنتك ونارك) وعنه (صلى الله عليه وآله) قال (رضى الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد) وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال:(برُّ الوالدين اكبر فريضة)[1].

هذا معنى واضح ومعروف ولا يحتاج الى بيان وتفصيل وكل الذي علينا هو التنفيذ والالتزام بكل حب ومودة ورحمة وصبر وسعة الصدر.

---

(١) راجع هذه الروايات وكثير غيرها في ميزان الحكمة: ٩/ ٥٦٧.

أبوا هذه الأمّة:

اما ما اريد ان اشير اليه فهو مصداق آخر للوالدين تنطبق عليهما هذه الآيات والروايات بل هي فيهما آكد وأشد، وتبينهُ الرواية التالية، روى الشيخ الصدوق بسنده عن انس ابن مالك قال: (كنت عند علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الشهر الذي أصيب فيه وهو شهر رمضان فدعا ابنه الحسن (عليه السلام) ثم قال: يا أبا محمد اعل المنبر فاحمد الله كثيرا، وأثن عليه، واذكر جدك رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأحسن الذكر، وقل: لعن الله ولدا عق أبويه، لعن الله ولدا عق أبويه، لعن الله ولدا عق أبويه، لعن الله عبدا أبق من مواليه، لعن الله غنما ضلت عن الراعي[1] وانزل. فلما فرغ من خطبته ونزل اجتمع الناس إليه فقالوا: يا ابن أمير المؤمنين وابن بنت رسول الله نبئنا (الجواب) فقال: الجواب على أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقال أمير المؤمنين: إني كنت مع النبي (صلى الله عليه وآله) في صلاة صلاها فضرب بيده اليمنى إلى يدي اليمنى فاجتذبها فضمها إلى صدره ضما شديدا ثم قال لي: يا علي، قلت: لبيك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: أنا وأنت أبوا هذه الأمة، فلعن الله من عقنا، قل:آمين، قلت: آمين. ثم قال: أنا وأنت موليا هذه الأمة فلعن الله من أبق عنا، قل: آمين، قلت: آمين، ثم قال: أنا وأنت راعيا هذه الأمة فلعن الله من ضل عنا، قل: آمين، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): وسمعت قائلين يقولان معي: "آمين" فقلت: يا رسول الله ومن القائلان معي "آمين"؟ قال: جبرئيل وميكائيل (عليهما السلام))[2].

---

(١) في رواية اخرى ان الفقرة الثالثة (لعن الله من ظلم أجيره) وذكر (صلى الله عليه وآله) في معناها (الا واني وانت اجيرا هذه الامة فمن ظلمنا أجرتنا فلعنة الله عليه)، أنظر: مستدرك سفينة البحار- الشيخ النمازي: ٢٦٤/٩.

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١١٨/ ح١.

وورد في تفسير فرات بن ابراهيم بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤) قال (رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي ابن ابي طالب (عليه السلام)).

وفي تفسير القمي في قوله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال: (فالوالدان رسول الله (صلى الله عليه وآله) وامير المؤمنين (عليه السلام))، وورد عن جابر عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (البلد:٣) انه امير المؤمنين (عليه السلام)، وما ولد من الائمة (عليهم السلام) وورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ (الأحقاف:١٥) هما رسول الله وعلي بن ابي طالب (صلوات الله عليهما).

ويشرح في تفسير العسكري معنى ابوتهما (صلوات الله عليهما) قال (ولقد قال الله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) افضل والديكم واحقهما بشكركم محمد وعلي، وقال علي ابن ابي طالب (عليه السلام) سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول انا وعلي بن ابي طالب ابوا هذه الامة، ولحقّنا عليهم اعظم من حق والديهم فانا ننقذهم ان اطاعونا من النار الى دار القرار ونلحقهم من العبودية بخيار الأحرار)[1].

في معنى الأب:

قال الراغب في المفردات (الاب): الوالد ويُسّمى كل من كان سببا في

(١) هذه الروايات في بحار الانوار : ٦/٣٦-٩ في باب عنوان (ان الوالدين رسول الله واميرالمؤمنين (صلوات الله عليهما) وتوجد روايات اخرى في باب بعنوان (تأويل الوالدين والولد والارحام وذوي القربى بهم (عليهم السلام)) في بحار الانوار :٢٥٧/٢٣.

ايجاد شيء او صلاحه او ظهوره اباً ولذلك يسمى النبي (صلى الله عليه وآله) ابا المؤمنين، قال الله تعالى﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦) روي انه (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (انا وانت ابوا هذه الامة)[1].

حياتان ووجودان:

فالإنسان له حياتان ووجودان:**الاولى:حياة ووجود بدني مادي** في هذه الحياة الدنيا به يأكل ويشرب ويتحرك ويتزوج مما يشارك فيه الحيوانات وينتهي بالموت، واصله من الوالدين النسبيين الاب والام مما اوجب لهما الحقوق المعروفة للوالدين.

الثانية: حياة ووجود معنوي به يتكامل ويسمو ويرتقي وهو الموجب للفوز في الحياة الابدية وقوامه الايمان بالله تعالى وبما جاءت به رسُلُه، وهذه هي الحياة الحقيقية للانسان ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:٦٤)، وقد وصف الله تعالى في آيات كثيرة من القران الكريم الايمان بالحياة والكفر بالموت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ (آل عمران:١٦٩) وضرب امثلة عديدة للمؤمن والكافر بالأرض الميتة فأحييناها بماء الايمان والمعارف الالهية.

الابوة المعنوية:

والنبي (صلى الله عليه وآله) وامير المؤمنين علي (عليه السلام) هما اصل هذه الحياة المعنوية

---

(١) المفردات للراغب، مادة (اب).

ووجودنا فيها ولولاهما لكنّا امواتاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف:﴿٤٣﴾) فهما ابوا هذه الامة في حياتها المعنوية ولانها الحياة الاهم والاسمى كان حقهما (صلوات الله عليهما) اكبر من الوالدين النسبيين.

ولعل مما يدل عليه من القران الكريم لرفع الاستغراب قوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ (الزخرف:﴿٢٢﴾) فقد حُمِل على العلماء (اي علماءنا الذين ربونا بالعلم بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب:﴿٦٧﴾) وقيل في قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ﴾ انه عنى الاب الذي ولده والمعلم الذي علمه)[1].

بل يمكن القول انهما ابوا هذه الامة حتى بالمعنى الاول، لانهما العلة الغائية للموجودات خلق الكون لأجلهم وبهم يرزقون وبهم تستمر الحياة ((ولولاهم لساخت الارض باهلها)) وبهم يسبب الله الاسباب.

لنكن أبناء بارّين:

والى الان نكون قد عرفنا جانبا من الحديث الذي له اتجاهان لان الابوّة من المعاني المتضايفة كما يعبر اهل المنطق والاصول اي النسبية ذات الاتجاهين، فلا تتحقق الابوّة الا بالبنوّة، لذا علينا ان نلتفت الى هذا التشريف العظيم الذي منَّ الله تعالى به علينا اذ جعلنا ابناءاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن ابي طالب (عليه السلام) الذي يعرف قيمته مثل الإمام الصادق (عليه السلام) حين يقول (ولايتي لعلي بن أبي طالب

(١) المفردات للراغب، مادة (اب).

(عليه السلام) أحب إلي من ولادتي منه، لأن ولايتي لعلي بن أبي طالب فرض، وولادتي منه فضل)[١].

لنقرأ الآيات برؤية جديدة:

وحينئذٍ نقرأ الآيات الكريمة بهذه الرؤية الجديدة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وتقدم ان حقهما (صلوات الله عليهما) اعظم من حق الوالدين الذي عرفنا عظمته، عن الإمام الحسن السبط (عليه السلام) قال (محمد وعلي ابوا هذه الامة فطوبى لمن كان بحقهما عارفا ولهما في كل احواله مطيعا يجعله الله من افضل سكان جنانه ويسعده بكراماته ورضوانه) وعن الإمام الحسين (عليه السلام) قال (من عرف حق ابويه الافضلين محمد وعلي (عليهما السلام) واطاعهما حق الطاعة قيل له تبحبح في اي الجنان شئت)[٢].

في خصائص البنوة:

وعلينا ان نكون ابناءا بارين مطيعين، نقل في المناقب عن القاضي ابي بكر احمد ابن كامل قوله (يعني ان حق علي على كل مسلم ان لا يعصيه ابدا)[٣].

واذا لم تتحقق شروط البنوة فان النبي (صلى الله عليه وآله) واميرالمؤمنين (عليه السلام) يتبرءان منه وينفيان انتسابه اليهما، وتصور العار الذي يلحق من يتبرأ منه ابواه

---

(١) البحار: ج ٣٩: ص ٢٩٩.

(٢) بحار الانوار: ٣٦/ ١٠، عن تفسير العسكري: ٣٣٠.

(٣) بحار الانوار: ٣٦/ ١١، عن مناقب آل ابي طالب: ٣/ ١٢٦.

وينفيان نسبته اليهما، عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (اما يكره احدكم ان ينفى عن ابيه وامه الذين ولداه قالوا بلى، قال فليجتهد ان لا ينفى عن ابيه وامه الذين هما ابواه افضل من ابوي نفسه)[1].

حُكي ان ذئباً نزى على انثى غزال فحملت منه وولدت مولودا اختلف فيه هل هو ذئب ام غزال ليُطبَّق الحكم الشرعي على كل منهما، وتقول الحكاية ان القاضي حكم بان يقدم امامه نوعان من الطعام احدهما من الرياحين والمسك والاخر من الجيف ولحوم الميتة، فان تناول الاول فهو غزال وان تناول الثاني فهو ذئب[2].

ومحل الشاهد ان بنوّة الانسان لأحد تعرف من خلال المنهج الذي يسير عليه ويرتضيه لنفسه فان كان صالحا كان ابنا لرسول الله واميرالمؤمنين (صلوت الله عليهما) وان كان فاسدا منحرفا فهو ابن لمعاوية ويزيد ونظرائهما.

في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (فإن الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق الحديث وادّى الأمانة وحسُن خلقه مع الناس قيل هذا جعفري، فيسرُّني ذلك ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، واذا كان على غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر)[3].

فالإمام الصادق (عليه السلام) ينسبك فعلاً اليه والى ابائه الطاهرين (عليهم السلام) وتحمل لقبه اذا تحليت بهذه الصفات.

---

(١) بحار الانوار: ٣٦/ ١٠، عن تفسير العسكري: ٣٣٠.

(٢) (غضوا ابصاركم ترون العجائب): ٨٩ عن كتاب سلسلة اصول الدين للمرحوم دستغيب: ١٠٩/٢.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، باب١/ ح٢.

وفي القرآن الكريم قول ابراهيم (عليه السلام) ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم:٣٦) فمن سار على نهجه (عليه السلام) واتبعه كان منه وليس فقط ينتسب اليه وبهذا استحق سلمان الفارسي هذا اللقب في الحديث النبوي المشهور (سلمان منا اهل البيت)[1] وبالعكس فان الانتساب البدني لا قيمة له اذا لم يكن مقترناً بالطاعة والاتباع، كما حكى القرآن الكريم في ابن النبي نوح (عليه السلام) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود:٤٦).

نسأل الله تعالى ان يجعلنا اهلاً للتشرف بالبنّوة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) واامير المؤمنين (عليه السلام) وأن نؤدي حقوق هذا الانتساب بفضله وكرمه.

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٩٨، والطبراني: ٦/ ٢٦١.

القبس/١١٣

سورة الإسراء:﴿٣٦﴾

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾

موضوع القبس: لا تعتنق عقيدة أو فكرة ولا تقل أو تفعل فعلا إلا عن علم ويقين بصحته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:﴿٣٦﴾).

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي لا تتبع، من القفو وهو الاتّباع كقولك اقتفيت أثره، والفرق أن الاتّباع يطلق على كل أفراده سواء كان اختيارياً أو بإكراه، أما الاقتفاء فيختص بالاتّباع الاختياري، فالآية الكريمة فيها جزءان، يؤسس كل منهما لقاعدة رصينة.

إحداهما: في لزوم التثبّت والحذر وضبط التلقّي والأخذ من قنوات ومصادر المعلومات الخارجية وهي الأذن والعين وغيرها من الحواس، والداخلية كالنوازع النفسية والنوايا القلبية والخواطر الذهنية فإن بعضها معرّض للسؤال.

وثانيتهما: استشعار المسؤولية عن مصادره المعرفية والأدوات التي يستعملها في أفعاله، والثانية كالعلة للأولى فان النهي عن الاقتفاء بغير العلم لإنَّ كل هذه الحواسّ وغيرها ستكون شاهدة على الإنسان بما فعل ونوى وهم شهود مصدّقون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:﴿٢٤﴾).

وإثارة هذا الشعور بالمسؤولية والتعرّض للحساب يحفّز الإنسان على التقوى والمراقبة والحذر، إذ يصل مستوى المسؤولية الى ما نبّه اليه الإمام الجواد (عليه السلام) بقوله: (من اصغى الى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وان كان الناطق ينطق عن لسان ابليس فقد عبده)[1] لان العبادة هي الطاعة والانقياد فمن اصغى الى مُغنٍّ او مجاهر بالسوء او داعٍ الى الباطل والفساد فقد اطاع الشيطان.

وهذا الشعور بالمسؤولية يدفعه إلى استثمار حواسّه في ما يرضي الله تعالى، لأنه مسؤول عن سوء استعماله لها أو تقصيره في الاستفادة منها، فالإنسان مسؤول عن حواسه واعضاءه في أي شيءٍ استعملها، وهي مسؤولة عنه لتشهد عليه، لذا يحتمل الوجهان في فاعل كان وضمير عنه ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، ولا يخدع الانسان نفسه ويتصور خلّوه من المسؤولية في بعض الحالات، روى الشيخ الكليني بسند معتبر عن مسعدة بن زياد، قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له رجل: بأبي أنت وأمي، إنني أدخل كنيفاً لي، ولي جيران عندهم جوارٍ يتغنين ويضربن بالعود، فربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهنّ، فقال: لا تفعل فقال الرجل: والله ما آتيهن إنما هو سماع أسمعه بأذني، فقال: لله أنت، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦)؟ فقال: بلى والله، لكأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من أعجمي ولا عربي، لا جرم إنني لا أعود إن شاء الله وإني أستغفر الله فقال له: قم فاغتسل وسلْ ما بدا لك، فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك، احمد

(١) تحف العقول: ٣٣٦.

الله وسله التوبة من كل ما يكره فإنه لا يكره إلا كل قبيح والقبيح دعه لأهله فإن لكلٍّ أهلاً)[1].

فلا بد أن يكون العمل مستنداً إلى العلم الذي يشمل المعلومات المتيقنة المأخوذة عن حس ومشاهدة، أو عن مصادر معتبرة عند العقلاء التي لا يُعبأ باحتمال الخطأ فيها كإخبار الثقة أو التواتر.

ولعل تنكير ﴿عِلْمٌ﴾ ليفيد هذه السعة ويشمل هذه المراتب العلمية التي تشمل القطع والاطمئنان وسائر الطرق المعتبرة، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) حيث روى الشيخ الكليني في الكافي والشيخ المفيد في الاختصاص بسند صحيح عن الإمامين الصادق والباقر (عليهما السلام) تفسيرهما للطعام في الآية بأنه (علْمه الذي يأخذه عمّن يأخذه)[2]، فيرفض الاعتماد على الوسائل غير العلمية كالقياس والأحلام وعادات السلف والتقاليد الموروثة والوساوس الشيطانية وأهواء النفس والسلوك الجمعي والإعلام الكاذب والمنافق والشائعات ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (يونس:٣٦).

وهذه القاعدة القرآنية يجب تفعيلها في كل نواحي الحياة، فلا يرتب أثراً على ما يسمعه أو يجده مكتوباً أو ينقدح في ذهنه أو يميل إليه قلبه إلا إذا وجد دليلاً شرعياً صحيحاً عليه سواء كان في الاعتقاد أو السلوك أو العلاقات مع الآخرين، ولا يشهد على شيء حتى يكون كما قال الإمام الصادق (عليه السلام) لرجل

---

(١) الكافي: ٦/ ٤٣٢.

(٢) الكافي: ١/ ٥٠/ ح٨، الاختصاص: ٤، البرهان: ١٠/ ١٠٧.

بعد أن أراه الشمس (على مثلها فاشهد، أو دع)[١]، ولا يتبنى فكرة ولا ينشر خبراً إلا بعد أن يتأكد من مصداقيته وجواز نشره، بل ما هو دون ذلك كوضع علامة إعجاب على منشور معين لم يتحقق منه.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن من حقيقة الإيمان أن لا يجوز منطقك علمك)[٢]، وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) (ليس لك أن تتكلم بما شئت، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾)[٣]، وفي الحديث النبوي (أيّما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاذ ما قال)[٤]، فمن لا يأخذ بهذه القاعدة ويلتفت إلى هذه المسؤولية يعرّض نفسه للعقوبة والهلاك، ويكون أول شاهد عليه حواسّه ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:٣٦).

مثلاً شخص يدّعي عنواناً معيناً كالسفارة عن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أو الوكالة الخاصة عنه لا يجوز تصديقه وكذا النيابة العامة إذا لم تكن مستندة إلى العلم لانها تكون مجرد دعوى.

قال الامام الصادق (عليه السلام) في وصيته لأبي حمزة محذراً (اياك ان تنصب

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٣٤٢، كتاب الشهادات، باب ٢٠/ ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة: ١٨/١٧،١٦.

(٣) علل الشرائع – الشيخ الصدوق: ٢/ ٦٠٥/ ح ٨٠.

(٤) بحار الأنوار: ٢/ ٨٣.

رجلاً دون الحجة فتصدقه في كل ما قال)[1].

أو شخص يتبنى مشروعاً معيناً كإصلاح الأوضاع العامة وتغيير أحوال الناس نحو الأحسن لا يجوز تصديقه واتّباعه حتى يتحقق من مصداقيته.

أو ما ينشر على مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من اتهامات لهذا وذاك بالفساد والصفقات المشبوهة لا يجوز تصديقه وترويجه إلا بعد التحقق من صدقه.

أو ما تتداوله الناس من أخبار عن هذا وذاك أنه فعل كذا وقال كذا لا يجوز تبنّيه وترتيب الأثر عليه لأن مثل هذه المصادر لا يوثق بها، وقد تصل الحالة إلى الاقتتال والقتل لمجرد أنه قيل له أن هذا الرجل أو تلك المرأة فعلا كذا وكذا فيتسرّع في اتخاذ القرار قبل أن يتبيّن حقيقة الأمر، وقد يكون المخبر مبغضاً أو حاسداً أو له غرض شخصي فيعمل على إلقاء الفتنة بهذه الأخبار، وقد يكون متوهماً أو مشتبهاً كما وقع في الكثير من الحالات.

والشرع المقدس يرى الصدق في ما يوجب الفتنة والتنازع قبيحاً فكيف بالكذب، لأن فيها تدميراً للعلاقات الاجتماعية وتخريباً للأُسر، في الحديث النبوي الشريف (ثلاث يقبح فيهن الصدق: النميمة وإخبارك الرجل عن أهله بما يكرهه وتكذيبك الرجل عن الخبر)[2] ومن وصية امير المؤمنين (عليه السلام) لولده محمد ابن الحنفية (يا بني لا تقل مالا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم فإن الله تبارك وتعالى قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة، ويسألك عنها،

(١) الكافي- الشيخ الكليني: ٢/ ٢٩٨/ ح٥.

(٢) ميزان الحكمة: ٥/ ٤٤.

وذكرها ووعظها وحذرها وأدبها ولم يتركها سدى، فقال الله عز وجل ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[1]، وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (مَن روى على أخيه المؤمن رواية يبتغي بها شينه وهدّم مروّته أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان ثم لا يقبله الشيطان)[2] بغضّ النظر عن كونه صادقاً أو كاذباً في ما روى، وبالمقابل مدح الله تعالى قوماً فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧-١٨) فلا يكتفي أحدهم بصدق الخبر حتى يرتّب عليه الأثر أو ينقله للغير، لأن الصدق قد يكون ضاراً، بل يتثبت من حسن القول ومطابقته للحكمة مضافاً إلى صدقه، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات:٦) لا تقف عند حد اختبار الصدق بل التثبت من النوايا والاغراض والآثار.

وهذه القاعدة القرآنية لا تختصّ بسوء الظن وترتيب آثاره بل تعمّ حسن الظن والبناء عليه من دون تثبّت فإن الإنسان لا يعذر فيه، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لا تثقنَّ بأخيك كل الثقة، فإنَّ صرعة الاسترسال لا تستقال)[3]، وحدد أمير المؤمنين (عليه السلام) الميزان في ذلك بقوله: (إذا استولى الصلاح على

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٦٢٦.

(٢) الكافي ٢/ ٣٥٨.

(٣) تحف العقول: ٣٥٧.

الزمان وأهله ثم أساء رجلٌ الظن برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظَلَم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجلٌ الظن برجل فقد غرّر)[1].

وهي مما تدعو له الفطرة السليمة أيضاً فإنها تتحرّى دائما الوصول إلى الواقع والحقيقة فلا تعطي قيمة للمظنون أو المشكوك، ويحاول العقلاء أن يصلوا إلى الحقيقة وتحصيل العلم بأنفسهم إن أمكن وإلا فيرجعون إلى من له العلم بذلك كمراجعة المريض للطبيب، أو رجوع عامة الناس إلى المجتهد العارف بتحصيل الأحكام الشرعية وهكذا، ولا يعذرون من يتبنى عقيدة أو قولاً أو فعلاً من دون ذلك، وقد لبّى الله تعالى حاجة هذه الفطرة لدى الإنسان فأعطاه السمع والبصر والعقل لتكون له أدوات يصل بها إلى الحقيقة، وسيسأل الإنسان عن كيفية توظيفه واستعماله هذه الأدوات، فهل أن ما أصغى له بسمعه كان من مصدره الموثوق، وهل أن ما نسبه إلى عينه حينما يقول رأيت كان قد رآه فعلاً وواضحاً لديها فعلاً؟ وهل أن ما فكّر فيه ورتّبه بذهنه كان مستنداً إلى معلومات ومقدمات صحيحة؟ وهذه الحواس ستشهد عليه وتجيب بصدق ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت:٢٠) فعلى الإنسان أن يحذر ويتجنب اتباع ما ليس له به علم والمطلوب دائماً هو التثبت من المعلومة قبل البناء عليها، ومن صدق الدعوى قبل التسليم بها وإلا فإنه لا يكون معذوراً.

ولو بنى المجتمع حياته على هذه القاعدة القرآنية لأغلق أبواب الكثير من

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة: ١١٤.

المفاسد والأضرار والخرافات والانحرافات، وبهذا المنهج نحافظ على العلاقات الاجتماعية وسمعة الأشخاص وكرامتهم ومنع حصول حالة الإحباط واليأس لدى العاملين بسبب ما يشيعه الحاسدون، وبذلك نستطيع تقويم عقائد وأفكار المجتمع من الانحراف والضلال.

فعلى مستوى الاعتقاد: لم يقدّم الملحدون دليلاً علمياً على نفي وجود الخالق تبارك وتعالى وغاية ما يدّعون أنه لم يثبت عندهم أي ينفون علمهم بوجوده سبحانه فكيف يريدون بجهلهم هذا نفي الأدلة القاطعة على وجوده تبارك وتعالى.

والذين ينكرون المعاد ليس عندهم دليل وإنما هو مجرد استبعاد وقصور أذهانهم عن تصور الحالة بينما المؤمن عنده الحجج الدامغة على هذه الحقيقة، وكذلك الذين ينكرون الوحي والنبوة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (يونس:٣٦).

وهكذا إذن المطلوب التثبت وتحصيل العلم في كل شؤون الحياة فلا يجوز تصديق خبر بناءاً على الإشاعات، أو الإقدام على فعل لمجرد أن الناس فعلته مما سمّوه بالسلوك الجمعي وجعلوا له مثلاً يستشهدون به وهو (حشر مع الناس عيد) كالقيام ببعض الأعمال التي لم يثبت أصلها، أو اتباع شخص لمجرد ادعاءات ما لم يتحقق من توفر الشروط المطلوبة.

فهذه كلها مخالفة لهذه القاعدة القرآنية، وقد روي في كتب العامة عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (بئس مطية الرجل: زعموا)[1] وقوله (صلى الله عليه وآله): (إياكم والظن

(١) سنن أبي داوود: ٤/٤٤٩/ح٤٩٧٢.

فإن الظن أكذب الكذب)[١] وفي رواية أخرى (أكذب الحديث)[٢]، وفي حديث آخر (إن أفرى الفرى أن يُريَ الرجل عينيه ما لم تريا)[٣].

وفي حواراتنا لا بد أن نستند في مواقفنا إلى الحجة والبرهان لا الظنون والقياسات، ولا في أحكامنا على الآخرين بالظن والتهمة والاشتباه والاحتمال، لذا لا يبني القاضي على كلام المدعّي في قضية معنية وإنما يطالبه بالبينة ويسمح للمدعى عليه بالدفاع عن نفسه وهكذا.

وبذلك يكون الإسلام قد سبق الحضارات المعاصرة في تأسيس منهج التثبت العلمي الشامل لكل شيء، بما فيها العلوم التجريبية والطبيعية حيث لا مكان للافتراضات الوهمية والاحتمالات غير الممحصة والأحكام الساذجة، ويجعل ذلك مسؤولية شرعية وأمانة يُسأل عنها.

وهذه الرقابة الداخلية مما تميّز المنهج الإلهي عن المادي، ويستشعرها المؤمن حتى لو خلا عن أي رقيب حتى على مستوى المشاعر والخلجات القلبية، فلا يقول كلمة بلسانه ولا ينقل حادثة عن أحد، ولا يحكم بعقله حكماً ولا يعقد في قلبه أمراً إلا وقد استند فيه إلى المعلومة الصحيحة.

فلنتعاون جميعاً لنشر هذه الثقافة القرآنية والمنهج القرآني الكفيل بتحقيق السعادة والصلاح ولتجنب التداعيات الاجتماعية الخطيرة، وإلا فان الثقة ستنعدم بالجميع، ويختلط الصالح والفاسد، وتضيع الحقيقة، ونفقد كل أمل بالصلاح والإصلاح.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨/ ٣٨.

(٢) صحيح البخاري: ٥٨/٦/ ح٦٧٢٤، سنن أبي داوود: ٤/ ٤٣٢/ ح٤٩١٧.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٥٦٥/ ح٧٠٤٣، ط. مؤسسة المختار.

القبس/١١٤

سورة الإسراء:﴿٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

موضوع القبس: الكرامة المطلقة للإنسان

الكرامة الحقيقية:

تأكيد بعد تأكيد: باللام و(قد) وصيغة التفعيل[1] لهذه الحقيقة الإلهية وهي الكرامة المطلقة للإنسان التي تعتبر من أهم الأصول التي تستند إليها القوانين والتشريعات، هذا التكريم الذي أعلنه الله تعالى لكل الخلائق في الحفل الذي أقيم عند بدء الخلقة الإنسانية للتعريف بخليفة الله تعالى في الأرض حيث أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم، قد حسد إبليسُ الإنسان على هذا التكريم الإلهي، قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَـئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٦٢) أراد اللعين سلب تلك الكرامة منهم بصدهم عن سبيل الحق، فالكرامة الحقيقية هي الوعي بالحق وهو الطريق الذي يسلك به الإنسان إلى الله تعالى.

---

(١) ثم أردفها بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، قال السيد الطباطبائي: (وهذا أيضاً أحد مظاهر التكريم فمثل الإنسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى إلى الضيافة وهي تكريم ثم يرسل إليه مركوباً يركبه للحضور لها، وهو تكريم ثم يقدم له أنواع الأغذية والأطعمة الطيبة اللذيذة وهو تكريم) (الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ١٥٤).

الكرامة تتفاوت بحسب التقوى:

وتتفاوت درجات الكرامة عند الله تعالى بحسب درجة التقوى التي يتحلى بها الانسان قال تعالى:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) وإن الإنسان يزداد كرامة عند الله تعالى حتى يفوق مقامه الملائكة، ففي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما شيء أكرم على الله من ابن آدم)[١]، وفي الرواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من المؤمن، لأن الملائكة خدام المؤمنين)[٢].

وتشرح رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) تعليل ذلك في ما نقله عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم)[٣].

من مظاهر التكريم الإلهي:

لقد تجلى هذا التكريم في كل أبعاد الإنسان، فجعل جسده ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (صورة الآدميين وهي أكرم الصور على الله)[٤].

وزوده بالعقل وأدوات العلم والمعرفة ليبني الحياة ويعمّرها ويطوّرها

---

(١) كنز العمال – المتقي الهندي: ١٩٢/١٢/ح٣٤٦٢١.

(٢) الكافي – الشيخ الكليني: ٣٣/٢/ح٢.

(٣) علل الشرائع – الشيخ الصدوق: ٤/١.

(٤) تفسير القمي: ٨٥/١.

وينمّيها بينما المخلوقات الأخرى في دورة حياة ثابتة وسلوك واحد من لدن خلقها إلى قيام يوم الساعة.

وجعل ما في الأرض في خدمة الإنسان ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجاثية:١٣) وعلّمه كيف يتمتع بالطيبات ويتفنن في صنعها والاستفادة منها.

ومن مظاهر تكريم الإنسان إعطاؤه حرية الاختيار والإرادة والقابلية على التكامل والسمو والارتقاء ثم بعث إليه الأنبياء والرسل وأنزل معهم الشرائع الإلهية ليدلّوه على طريق السعادة والفلاح وليستطيع التمييز بين الخير والشر والهدى والضلال، ولتحفظ كرامة الإنسان وحقوقه.

تكريم الإنسان معيار سلامة المناهج والأديان:

ان أوضح دليل على صحة وسلامة المنهج المتبع – أيً منهج حتى الاديان– هو سعيه لتحقيق كرامة الانسان وحفظ حقوقه بحيث يجد الانسان انسانيته فيه، اما مناهج التكفير والعنف والاستغلال والاستعباد والاستئثار بثروات الشعوب وقهرها فهي خارجة عن الدين وان تسمّت باسمه وادّعت الدفاع عنه، لان الاديان السماوية شُرّعت لحفظ انسانية الانسان وكرامته وسعادته.

روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:(يقول الله تعالى:لم أخلقك لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح علي، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فإني ناصر لك من

كل شيء)[1].

ما الذي أراده القرآن الكريم من حقيقة التكريم؟

إن بيان القرآن لهذه الحقيقة يستهدف:

١- تأسيس هذه القاعدة الأساسية التي تبنى عليها كل القوانين والأنظمة والتشريعات حتى الدين نفسه وهي كرامة الإنسان التي هي فوق كل شيء وأي قانون أو تشريع يتعارض مع هذا الأصل أو يتنافى مع حقوق الإنسان التي وهبها الله تعالى لبني آدم يجب أن يُلغى أو يُعدَّل.

٢- إلفات نظر الإنسان إلى عظمة مكانته عند الله تعالى وما حباه الله من نعم ليحترم نفسه ويحافظ على طهارتها ونقائها ولا يبيعها بثمن بخس، في الحديث الشريف:من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته[2].

فالتفات الإنسان إلى هذه الحقيقة يعطيه الثقة بنفسه ويعينه على الثبات والاستقامة، وهذه من الوسائل المهمة في التربية الصالحة.

٣- لا تخلو الآية من عتاب للإنسان على تمرده وعصيانه على ربه الذي أكرمه بأفضل ما يكون الإكرام وأغدق عليه من النعم حتى صار الإنسان يقيِّم ربَّه على أساس ما يعطيه من نعم مادية ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (الفجر:١٥-١٦).

---

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ٣١٩/٢٠، ورواه القرطبي عن وهب بن منبه، أنظر: تفسير القرطبي: ٨٥/١٣.

(٢) نهج البلاغة: ج٤/ ح٤٤٩.

ليس للإنسان أن يتنازل عن كرامته:

وهذه الكرامة للإنسان هبة من الله تعالى وإن الإنسان قد يحافظ عليها ويعطيها حقها، وقد يستخف بها ويتنازل عنها قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج:١٨) لذا على الإنسان أن يحفظ كرامة نفسه وأن يحفظ كرامة الآخرين بنفس الدرجة، فليس له أن يتنازل عن كرامته أو أن يذل نفسه أو أن يتخلى عن حقوق الإنسانية، في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله تبارك وتعالى فوَّض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه)[1] وعنه (عليه السلام) قال: (لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه) فقيل له:وكيف يذل نفسه؟ قال (عليه السلام): (يتعرض لما لا يطيق) وفي رواية أخرى (يدخل فيما يُعتذر منه).

ويوصينا الأئمة (عليهم السلام) دائماً بحفظ كرامتنا وعزتنا والترفع عن فعل ما ينافيهما وإن بدا محبباً إلى النفس وموافقاً للشهوات، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى رغبة، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)[2].

لكي تكون الحياة كريمة:

إن كرامة الإنسان تتوفر بتمتعه بحقوقه في الحياة من الحرية والأمن والاستقرار والرفاء وسائر مستلزمات الحياة الكريمة، لكنها تكتمل بأمرين:

١- الالتزام بالدين، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن الله قد أكرمكم

---

(١) وما بعده الكافي - الشيخ الكليني: ٦٣/٥/ح١، ح٤، ح٥.

(٢) تحف العقول: ٧٧.

بدينه وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه)[١]، وروي عنه (عليه السلام) قوله: (كل عز لا يؤيده دين مذلّة)[٢].

٢- طاعة الإمامة الحقة والقيادة المنصوبة من الله تعالى بالحجة الشرعية، فقد جاء في الآية التالية لآية التكريم هذه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (الإسراء: ٧١) وهذا شاهد على ارتباط كرامة الإنسان وانسانيته باتباع الإمامة الحقة[٣].

وقد وصف الله تعالى عباده المكرمين بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧) فهذه هي صفاتهم: متنزهون عن اتباع الشهوات التي تذل الإنسان وتهينه، دائبون في طاعة الله تعالى فاستحقوا منه المقام الرفيع ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي

(١) وقعة صفين، ابن مزاحم المنقري: ١١٢، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣/ ١٨٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم- الآمدي: ص٥٠٨.

(٣) روى الكليني بسنده عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن ابيه الحسين (عليه السلام) انه اجاب رجلا سأله فقال: (أما قولك: أخبرني عن ﴿النَّاسُ﴾، فنحن ﴿النَّاسُ﴾ ولذلك قال الله تعالى ذكره في كتابه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩)، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي أفاض بالناس.
وأما قولك: أشباه الناس، فهم شيعتنا وهم موالينا وهم منا (وهم اشباهنا ل خ) ولذلك قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (الرعد: ٣٦)، وأما قولك: النسناس، فهم السواد الاعظم واشار بيده إلى جماعة الناس ثم قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤)) الكافي: ج٨، /ص ٢٤٤/ح ٣٣٩.

مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ﴿٢٦﴾-﴿٢٧﴾).

معنى الاعتداء على الآخرين:

إن اعتداء الإنسان على كرامة أخيه الإنسان وسلبه حقوقه تبدأ من حين تخلي الإنسان عن كرامته الشخصية واتباعه لشهواته ورضاه بعبودية نفسه الأمّارة بالسوء أو طاعة غيره من العبيد، عن الإمام الهادي (عليه السلام) قال:(من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه)[1] وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (أذلّ الناس من أهان الناس)[2].

دولة الإنسان ودولة القانون:

إن كرامة الناس كل الناس لا تتحقق إلا في دولة الإنسان وذلك عندما يسود القانون الكريم على يد القائد الكريم وحينما تقام الدولة الكريمة التي تحفظ للجميع حقوقهم وتقوم على أساس المبادئ الإنسانية العليا، فدولة الإنسان أسمى وأرقى من دولة القانون؛ عندما لا يكون القانون صالحا وانما يشرّعه الناس لرعاية مصالحهم الضيقة ووفق رؤيتهم المحدودة والقاصرة ، ولا يكون صالحا الا اذا حفظ كرامة الانسان، لذا كان من الدعاء الذي علّمه الإمام (عليه السلام) لشيعته: (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة)[3]، أما الدولة التي لا تقوم على أسس الكرامة الإنسانية فإنها تؤول إلى تسلط الأشرار والفاسدين واستعباد الناس

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤٨٣.

(٢) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ١٩٦.

(٣) مفاتيح الجنان: ٢٣٥.

ومصادرة حرياتهم والاستئثار بأموالهم وحرمانهم من مظاهر الحياة الكريمة.

الزهراء (عليها السلام) تضحي من أجل دولة الإنسان النبوية:

أيها المؤمنون الموالون:

لقد كان موقف السيدة الزهراء (عليها السلام) نوعياً بكل معنى الكلمة وفي مرحلة استثنائية من حياة الأمة التي قُدّر لها أن تقود البشرية جميعاً، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، تلك المرحلة التي شكّلت فيصلاً بين خط الكرامة الإنسانية التي وهبها الله تعالى للبشر، وخط الذلة والهوان والفساد والانحراف الذي يزداد انحطاطاً كلما مرّ الزمن.

فوقفت السيدة الزهراء (عليها السلام) موقفها العظيم في ذلك الجو الرهيب لتحفظ كرامة الإنسان والأمة التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وآله) من الله تعالى، لكن الفترة التي قضاها النبي (صلى الله عليه وآله) في أمته لم تكن كافية لتطهير مجموع الأمة من رواسب الجاهلية وأغلالها وعصبياتها، وإن الأصنام المنصوبة في الكعبة وإن حُطّمت يوم الفتح، إلا أن الأصنام المصنوعة في النفس الأمارة بالسوء من التعصب والجهل والانانية كانت موجودة ومحرّكة لسلوكيات الكثيرين، فكان القيام الفاطمي معزّزاً بعناصر التأثير والصدمة[1] التي أحدثتها السيدة الزهراء (عليها السلام) مكمِلاً لرسالة الإصلاح والتطهير التي أداها النبي (صلى الله عليه وآله) من أجل تحرير الإنسان وتكريمه.

ومن أهم معالم الحياة الإنسانية الكريمة التي دافعت عنها الزهراء (عليها السلام) استمرار دولة الإنسان الكريمة التي أسسها النبي (صلى الله عليه وآله) وضَمِن

(١) كهيئة خروجها من المسجد وانينها وبكائها وفصاحتها في الخطاب وحججها البالغة (عليها السلام).

ديمومتها بالقيادة الربانية التي اختارها الله تعالى المتمثلة بأمير المؤمنين (عليه السلام) ومما قالت (سلام الله عليها) في وصف الحياة الإنسانية الكريمة في ظل هذه القيادة الإلهية وما تنعم به الأمة من بركات فيما لو انصاعوا للحق ووّلوا امير المؤمنين (عليه السلام):(ولسار بهم سيراً سُجحاً –أي سهلاً- لا يكلم حشاشه ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً، روياً، تطفح ضفّتاه، ولا يترنق - أي يتكدر- جانباه ولأصدرهم بطاناً –أي شبعانين- ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل ولا يحظى منها بنائل غير ري الناهل وشبعة الكافل)[1] أي لا يبقي لنفسه شيئاً دون الأمة كالأب الرحيم الكافل للعائلة فانه يكتفي بالقوت ويعطي ما عنده لعائلته.

وبالمقابل حذرتهم من تداعيات الابتعاد عن منهج الكرامة الإلهية ومما قالت (عليها السلام): (وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتدٍ غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم! وأنى بكم وقد عميت عليكم! ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود:٢٨)) فهذه هي نتائج عدم إقامة الدولة الكريمة:فتن وصراعات وهدر للأموال وفوضى عارمة واستبداد الحكام وفقدان للأمن والاستقرار والنظام.

---

(١) الاحتجاج: ١٣٩/١.

كلامهم صدق:

أيها الأحبة:

لاحظوا المصداقية الكاملة لكلام السيدة الزهراء (عليها السلام) فيما نعيشه اليوم وفي كل يوم، وهكذا يجب أن نتدبر في كلماتها (عليها السلام) ونستفيد منها في معالجة مشاكلنا ووضع البرامج الصحيحة لحياتنا، أما الاقتصار على ذكر مظلومية الزهراء (عليها السلام) دون التعرض لبيان أهداف حركتها فإنه تقصير في حقها وفي فهم رسالتها المقدسة، فقد كانت (سلام الله عليها) مكمّلة لدور أبيها وبعلها (صلوات الله عليهما) في مشروع بناء دولة الإنسان التي تكون فيها القيمة العليا للإنسان وتُراعى حقوقه في كل القوانين والأنظمة والدساتير، ولا مجال فيها للاستبداد والاستئثار والتخلف والجهل، وتتحقق نصرتنا للسيدة الزهراء (عليها السلام) بمقدار مساهمتنا في إنجاح مشروعها العظيم.

وإننا إذ نعيش هذه المرحلة الاستثنائية في حياة البشرية وهذه الانطلاقة المباركة للعقيدة التي آمنا بها بعد قرون طويلة من القهر والاضطهاد والحصار يكون المطلوب من السائرين على نهج الزهراء (عليها السلام) القيام بالعمل النوعي الذي أرست دعائمه، وعلينا أن نصنع لأنفسنا هذا الدور كالأفذاذ في كل جيل، وليس ننتظر أن يصنعه غيرنا ثم يكلّفنا به، ولا يُنال ذلك الا بتوفيق الله الكريم.

القبس/١١٥

سورة الإسراء:﴿٧٩﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

موضوع القبس: صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ يمكن أن تكون (من) بيانية لبيان خصوصية التهجّد في الليل وعظيم بركاته، مما سنذكره لاحقاً ان شاء الله تعالى ولأنّ النهار من شأنه النشاط والحركة فلا يحتاج العمل فيه إلى بيان فنَاسَبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدّثر:٢)، أما الليل فهو للنوم والسكون فالعمل فيه يحتاج إلى تنبيه لعدم قضاء الليل كله في النوم.

ويمكن أن تكون (من) تبعيضية أي بعض الليل، والتبعيض يمكن أن يستفاد من الباء ايضاً كما في آية الوضوء، وقد حدّدت آيات سورة المزمِّل هذا البعض، قال تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمِّل:٢-٤).

﴿فَتَهَجَّدْ﴾ الهجود هو النوم ومعنى تهجّد أي قاوم النوم وتكلَّف اليقظة فيكون من استعمال الشيء فيما يقابله، كما يقال متأثم اذا كره الاثم[1]، وكالتمريض الذي اشتق من المرض الا انه يعني معالجة المرض.

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة هجد.

وربما[١] كان اصل معناه النوم المتقطع فيكون من يستيقظ ويصلي ثم يرجع الى النوم يقال له يتهجّد كما سننقل من فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله).

او ان يكون معناه الركود كما قيل في اللغة واستعماله في النوم مجازي فاستعير لقيام الليل لما فيه من الخشوع والاستكانة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي صلِّ نافلة تكون فرضاً زائداً خاصاً بك وهبة إضافية لك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث أن قيام الليل واجب عليه خاصة[٢] ومستحب لبقية الأمة، وبتنقيح المناط قد يدلّ على وجوب صلاة الليل على ولاة أمور المسلمين.

﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ تَرَجّى وأمل بأن يبلغ بهذا القيام في الليل المقام المحمود عند الله تعالى، ويمكن ان يراد به مقام الرسالة العظمى والولاية الكبرى أو إظهار دينه على الدين كله[٣]، أو الشفاعة الواسعة المقبولة، أو تفضيله على الخلق أجمعين كما في الدعاء له (صلى الله عليه وآله) (اللهم أعطه الدرجة والوسيلة من الجنة وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون)[٤]، ولا داعي للاقتصار على أحدها كالشفاعة في تفسير المقام المحمود فإنها ذُكرت في الروايات من باب التطبيق.

---

(١) المقام المحمود في سورة الاسراء المباركة: ٢١٣.

(٢) رواه الشيخ الطوسي في التهذيب: ٢/ ٢٤٢/ ح٩٥٩ عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(٣) كما ورد في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) والدعاء له (اللهم ابعثه مقاما محمودا تنصر به دينك، وتقتل به عدوك، وتبير به من نصب حربا لآل محمد، فإنك وعدت ذلك وأنت لا تخلف الميعاد) الكافي: ٤/ ٥٧٥.

(٤) الكافي: ٤/ ٥٥١.

وفيها إلفات الى إنّ الله تعالى هو الذي يمنح الشفاعة لأوليائه ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ إكراماً لهم وإظهاراً لجلالة قدرهم، ولا يعني بأي حال أنهم أرحم من الله تعالى بعباده.

واستعمال صيغة الترجي وليس صيغة الجزم والقطع بترتب النتيجة على الفعل ليس بلحاظ مشيئة الله تعالى لبلوغ النبي (صلى الله عليه وآله) المقام المحمود فإن إرادة الله إذا تعلّقت بأمر فإنما ﴿يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ونتيجة حتمية بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فانه وعد له (صلى الله عليه وآله) والله لا يخلف الميعاد وإنما الترجي والأمل بلحاظ الأمة التي يتوقع منها الاستنان بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فهم مخاطبون بالآية تبعاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ولهم ما وعدت به الآية بحسب المقامات المناسبة لهم كالشفاعة في الاهل وسائر المؤمنين، فلعل عرض النتيجة بصيغة الترجّي لإحداث المزيد من الرغبة والعزم، كالذي ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٤) لحثّ النبي موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) على بذل الوسع في دعوة فرعون إلى الإيمان والتوحيد، والله تعالى يعلم أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى.

أو لإلفات النظر الى أن الجزاء الحسن من الله تعالى كرم وتفضّل وليس استحقاقاً لما يقوم به العبد من عمل صالح حتى تكون نتيجة حتمية، وليس لنا إلا الرجاء والأمل بفضل الله تعالى.

أو لبيان أن نفس الفعل لا يوجب هذه النتيجة بذاته وتلقائياً بل لا بد من انضمام كمالات أخرى كالإخلاص وإتقان العمل.

أو لإبقاء القلب متعلّقاً بالله خائفاً من التغيير والبداء ما دام في الدنيا، فهذه الحالة للقلب فيها خير كثير، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (رُبط جنان لم يفارقه الخفقان)[1]، وقال الإمام السجاد (عليه السلام): (وإن في اللهف إلى جودك والرضا بقضائك عوضاً من منع الباخلين)[2]، أو لعله مثل قوله تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:١٠٨) فبعد أن عرفوا الله في الجنة علموا أن التعلق به سبحانه أكثر تطميناً للقلب من التعلق بثبات عالم الآخرة، وأن التعلق بالمعطي أفضل من التعلق بالعطاء حتى وهو عطاء غير مجذوذ. ويؤيده ما روي عن الصادق (عليه السلام) أنه ذكر أن المحتوم قد يغيره الله فيظهر فيه البداء فقيل له: (نخشى أن يبدو لله في المهدي، فقال: المهدي من الموعود والله لا يخلف الميعاد)[3]، فمتعلق وعد الله مما لا يخضع للبداء الذي يخضع له كل شيء في الكون.

وقد بيّنت آيات سورة المزمِّل المتقدمة أن قيام الليل يهيئ لأداء الأدوار الكبيرة وتحمّل المسؤوليات العظيمة، وتتمتها ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ٥-٦) سنوحي إليك قولاً يحمل مسؤولية عظيمة وفيه معاني عميقة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ١/ ٢٠٩.

(٢) الصحيفة السجادية (ابطحي): ٢١٥.

(٣) كتاب الغيبة – محمد النعماني: ١/ ٣١٣.

لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١)، وهو ثقيل في آثاره ونتائجه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف:٩)، وهو ثقيل في ما يسببه لمن يصدع به من مصاعب ومشاق ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٢)، وقيل إن القول الثقيل تبليغ الأمر بخلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده، لأن الآية التي سبقتها أمرت بترتيل القرآن ويأتي بعده إلقاء القول الثقيل.

فلكي تتحمل هذه الأثقال استعن بناشئة الليل أي العبادة التي تُنشئها في الليل لأنها أصعب مراساً وأشدّ على النفس وأثبت للإيمان وأصدق في الأداء وأدْعى لحضور القلب، لانقطاع الشواغل، وفيها امتحان للإخلاص ففي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) (يعني بقوله: وَأَقْوَمُ قِيلاً: قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز وجل[1] ولا يريد به غيره)[2] لذا فإنها تكون أحسن إنتاجاً وتحقيقاً للغرض.

ان أولياء الله تعالى عرفوا ما لقيام الليل من وسيلة لنيل رضا الله تعالى فواظبوا عليه، وإن الذين بلغوا ما بلغوا من مقامات كانت علامتهم المميزة مواظبتهم على

---

(١) أي أنه (عليه السلام) فسّر (أقوم قيلاً) بالإخلاص، فإن الرجل إذا قام في الليل وترك الراحة والرياء كان عمله خالصاً، وظهرت فيه العبودية والولاية، حتى روي من كتب الفريقين أن اختصام الملأ الأعلى في الدرجات والكفارات.. ومنها إسباغ الوضوء في السبرات.. جعلها الله مما يختصم الملأ الأعلى في ثوابها ومما فُسّر به قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ ... قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۞ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾، وهو من عين ص التي يُشتق منها كل ذكر. (راجع كتاب: عين الذِكر في سورة ص المباركة).

(٢) وسائل الشيعة: ٢٦٩/٥ أبواب بقية الصلوات المندوبة، باب ٣٩ ح ٥.

قيام الليل، لاحظ أن موسى (عليه السلام) قضى أربعين يوماً وليلة في المناجاة إلا أن الله تعالى خصّ الليالي بالذكر ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف:١٤٢).

فإذا كنتم من الساعين لنيل تلك المقامات - وحريٌّ بكل عاقل أن يكون كذلك - فأعِدُّوا أنفسكم بهذه الرياضة المعنوية لتساعدكم على نيل المقامات الحميدة والخصال الكريمة.

لذا تضمنت الوصايا التي قدّمها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يُعِّده لخلافته العظمى تركيزاً على صلاة الليل، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (كان في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) أن قال: يا علي، أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم أعنه.... - إلى أن قال - وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل)[1].

ومن سننه (صلى الله عليه وآله) أنه كان يفرّق صلاة الليل على أجزائه ليكون في جميع وقته مستأنساً بلقاء ربه ففي التهذيب بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: وذكر صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) قال: كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثم قلّب بصره في السماء ثم تلا الآيات من آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل

(١) رواها في وسائل الشيعة عن المشايخ الثقات في أصولهم في عدة مواضع منها في كتاب الصلاة، أبواب بقية الصلوات المندوبة، باب ٣٩، ح١.

عمران:﴿١٩٠﴾) فما بعدها الآيات، ثم يستن[١] ويتطهّر، ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءة ركوعه وسجوده على قدر ركوعه[٢]، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد ويصلي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ ويجلس ويتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين، ثم يخرج إلى الصلاة)[٣] ورواه الكليني في الكافي بسند صحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) وفيه (ثم قال: لقد كان لكم في رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة حسنة، قلت: متى كان يقوم؟ قال: بعد ثلث الليل)[٤] وفيه قال: في حديث آخر: (بعد نصف الليل)[٥].

---

(١) لعل الكلمة في الأصل (ثم يستاك)، والسواك سنّة لغيره بما سنّه هو (صلى الله عليه وآله) للناس من أفعاله.

(٢) قراءة الركوع هي ما يُقرأ من سور، وقول (عليه السلام): (على قدر قراءة ركوعه) أي أن مدة ركوعه مساوية لمدة القراءة في كل ركعة.

(٣) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٥/ ح١، التهذيب: ٢/ ٣٣٤/ ح١٣٧٧.

(٤) وهذا مما يُستدل به على أن وقت صلاة الليل يبدأ قبل منتصف الليل بعد مضي ثلثه، ومما يدلّ على ذلك آيات سورة المزمَّل الماضية فان فيها (نصفه، أو زد عليه) والزيادة على النصف تعني القيام قبل منتصف الليل.

(٥) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٦/ ح٢، الكافي: ٣/ ٤٤٥/ ح١٣.

وقد اختصر الحديث المروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) هذه الأهمية بقوله (الوصول إلى الله تعالى سفر لا يدرك إلا بامتطاء الليل)[1] أي أن الأعمال الصالحة الموصلة إلى الله تعالى لا بد أن تُتوَّج بصلاة الليل لتوصل إلى الهدف.

وهذا الحديث له دلالات عديدة منها أن الوصول إلى الله تعالى ممكن ولكنه يحتاج إلى حركة وسلوك وقطع مسافة بما يتطلب ذلك من جهد وجهاد، وأنّه يحتاج إلى مركب يمتطيه ليقطع به الطريق وهي صلاة الليل، وأن يتجرد من الاعتماد على كل شيء مما يتعلق به قلبه وراءه كالمسافر الذي يهجر وطنه وداره وأهله وماله ومنصبه وجاهه وعلاقاته وسائر تعلقاته.

ويفيد الحديث أيضاً أن الصلوات المفروضة قد لا يكفي اتخاذها وسيلة لقطع هذا السفر ولا بد من امتطاء صلاة الليل معها ليتحقق الوصول إلى الهدف بإذن الله تعالى، وإن الصلاة بشكل عام هي أداة هذا العروج إلى الله تعالى ولعل هذه المعاني منشأ الكلمة المشهورة على ألسنة العلماء (الصلاة معراج المؤمن)[2] فهذه كلها معانٍ يمكن استفادتها بوضوح من الحديث الشريف.

---

(١) بحار الأنوار: ٣٧٩/٧٨، مسند الإمام العسكري: ٣٧٩، الأنوار البهية للمحدث القمي: ١٦١.

(٢) قال الشيخ محمد الريشهري: ((لا يخفى أن عبارة (الصلاة معراج المؤمن) مع كثرة تداولها على الألسن بحيث صارت من أشهر الكلمات في وصف الصلاة، لم نجد لها مصدراً مسنداً إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أو الأئمة (عليهم السلام)، وهذا بعد أن استقصينا كلمات أصحاب الكتب في شتى العلوم ووجدناها في أكثر من ثلاثين موضعاً من عباراتهم، علماً أن كتب السنة كلها وكتب الشيعة جلها إلا ما دون في القرون الأخيرة – كروضة المتقين وبحار الأنوار للمجلسيين أعلى الله مقامهما والرواشح السماوية

ويظهر من الحديث الشريف أن السائر الى الله تبارك وتعالى يتعرض الى مخاطر كالتي يتعرض لها المسافر فلابد له من وسيلة منجية له من المهالك، وصلاة الليل هي المنجية في هذا السفر الطويل، الا أن يقربّه الله تعالى (وَاَنَّ اِلراحِلَ اِلَيْكَ قَريبُ الْمَسافَةِ)[1]، فالمسافر يتعرض الى عدة مخاطر: كالتيه والمزالق الخطيرة والوحوش المفترسة وقطّاع الطرق وفقدان الزاد، وهذه المخاطر بوجودها المناسب موجودة لمن يريد السفر إلى الله تبارك وتعالى، فقطّاع الطرق هم المتلبّسون بالدين والمتظاهرون بالمعرفة الذين يضللون الناس بشبهاتهم ويبتدعون لهم أفكاراً منحرفة، وفقدان الزاد بضياع العمر من دون تقديم عمل صالح (آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر)[2] والوحوش المفترسة هم شياطين الجن والإنس الذين يزيّنون كل قبيح من الدنيا والشهوات ليوقعوا الإنسان في المعاصي، ويقبّحون كل حسن من الهداية والصلاح ليطفئوا في قلبه نور الإيمان، ويتحقّق التيه بعدم أخذ العلم والمعرفة من أصلهما ومعدنهما، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعداً من حاجته)[3].

هذا كله من ناحية أثر صلاة الليل في تحصيل الارتقاء في سلّم الكمال، أما من ناحية الثواب فقد ورد في صلاة الليل فضلٌ عظيم ففي الرواية عن الإمام

للمحقق الداماد (قدس سره) – خالية منها، فالظاهر أنها ليست برواية بل من عبارات علمائنا المتأخرين رضوان الله تعالى عليهم)) (كتاب: الصلاة في الكتاب والسنة: ١٥).

(١) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثّمالي.

(٢) نهج البلاغة – خطب الإمام علي (عليه السلام): ١٧/٤.

(٣) بحار الأنوار: ٢٠٩/١/ ح١١، عن نهج البلاغة.

الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) قال (عليه السلام): (ما مِن عمل حسن يعمله العبد وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله تعالى لم يبين ثوابها لعظيم خطرها عنده، فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٦-١٧))[1].

وفي حديث قدسي (إن العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً وقد وقع ذقنه على صدره فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح ثم يقول للملائكة: انظروا إلى عبدي ما يصيبه في التقرب إليَّ بما لم أفترض عليه، راجياً مني لثلاث خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أجدّدها له، أو رزقاً أزيده فيه، اشهدوا ملائكتي أني قد جمعتهن له)[2].

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله) لجبرئيل (عليه السلام): عظني: فقال: يا محمد، عِشْ ما شئت فإنك ميت، وأحببْ ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، واعلم أن شرف[3] المؤمن صلاته بالليل، وعزّه كفّه عن أعراض الناس)[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٨٧/ ١٤٠.

(٢) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٧٢.

(٣) معنى الشريف في الدنيا هو الشخص الذي يشار إليه بالبنان وتتعلق فوائد الناس به وتأثيره على حياتهم، وأما في الآخرة فهم الذين يشفعون للناس ويستغفرون لهم، وهو ما يفعله المصلي لصلاة

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (الركعتان في جوف الليل أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها)[٢].

وتوجد روايات كثيرة في الآثار الدينية والدنيوية المباركة التي تترتب على أداء صلاة الليل كَسِعة الرزق وبهاء الوجه ورفع الهمّ والغمّ وإبعاد الحسد وغفران الذنوب وأنها نور في القيامة وأنس وضياء في القبر وغير ذلك، بفضل الله تعالى وكرمه.

ولأن صلاة الليل بهذه المنزلة العظيمة فإنها لا تُنال إلا بتوفيق خاص ويحرم منها مَن ليس أهلاً لها، في الرواية (جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: إني قد حُرمت الصلاة بالليل فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) أنت رجل قيّدتك ذنوبك)[٣].

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إني لأمقُتُ الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم، حتى إذا كان الصبح قام يبادر بالصلاة)[٤].

هذا الحبّ لله تعالى وامتطاء الليل للوصول إليه سبحانه هو الذي أراده الإمام الحسين (عليه السلام) حينما طلب من ابن سعد تأجيل المعركة من عصر يوم التاسع إلى صبيحة يوم عاشوراء، فقد روي أن عمر بن سعد

الليل من الاستغفار لأهله وذويه وكأنها مكافأته بعد الصلاة إذ تقرّ عينه بمغفرة الله لهم وقبول شفاعته فيهم.

(١) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٦٩.

(٢) علل الشرائع: ٣٦٣.

(٣) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٧٩.

(٤) بحار الأنوار: ٨٣/ ١٢٧/ ح ٧٩.

زحف بجيشه نحو معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) عصر يوم التاسع فأرسل أخاه العباس (عليه السلام) ليستعلم خبرهم فقصدهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر فقال لهم العباس (عليه السلام): (ما بدا لكم، وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حُكمه أو ننازلكم! قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم) ثم أتى إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بما عرض عليه عمر بن سعد قال: (ارجع إليهم: فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية، لعلّنا نصلي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار)، فبات الحسين (عليه السلام) تلك الليلة راكعاً ساجداً باكياً مستغفراً متضرعاً، وبات أصحابه ولهم دوي كدويّ النحل)[1].

جزاهم الله تعالى عن الإسلام وأهله خير جزاء المحسنين.

(١) تاريخ الطبري: ٤١٦/٥، الكامل في التاريخ: ٥٥٨/٢، البداية والنهاية: ١٧٦/٨ الإرشاد: ٨٩/٢، مناقب ابن شهراشوب: ٩٨/٤، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ٢٥١/١ وغيرها.

القبس/١١٦

سورة الإسراء:﴿١٠٠﴾

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

موضوع القبس: معالجات قرآنية لعدم الإنفاق

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء:﴿١٠٠﴾)، قلْ يا رسول الله للكافرين والمعاندين الذين أكثروا المقترحات المذكورة في الآيات السابقة، عناداً واستكباراً وجدالاً أنه لو كانت خزائن رحمة الله تعالى على سعتها بأيديكم وتحت تصرفكم لامتنعتم من الإنفاق وإعطاء العباد احتياجاتهم مدّعين خوف الفقر إذا أنفقتم، والأمر ليس كذلك لأن خزائن رحمة الله لا تنفد (ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً)[1]، لكن البخل والإمساك والتضييق أصبح صفة لازمة في نفوسكم الأمّارة بالسوء.

لقد جُبِل الإنسان على حب المال، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:﴿٢٠﴾) وليس في ذلك نقص ذاتي، فلو كان حب كسب المال من أجل التقرب إلى الله تعالى بإنفاقه في موارد البر والإحسان كالحج والعمرة وزيارة المعصومين (عليهم السلام) ومساعدة المحتاجين ونصرة الدين ونشر العلوم والمعارف النافعة وتزويج الشباب المتعففين وإنشاء المشاريع ذات النفع العام كالمستشفيات والمدارس ومحطات المياه والكهرباء وشق الطرق وغيرها، فإنه سيكون أمراً

(١) من دعاء الافتتاح الذي يقرأ في ليالي شهر رمضان المبارك.

محموداً بلا إشكال وسيكون من طلب الآخرة وليس الدنيا.

وإنما تبرز المشكلة لو كان هذا الحب للمال يدفعه إلى تحصيله بأي نحوٍ كان ولو من طرق غير مشروعة، أو أن هذا الحب يكبّله عن دفع ما يتعلق بذمته من مال حيث جعل الله تعالى فيه حقوقاً لغيره ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٩) وهذه الحالة هي التي ذمّها الله تبارك وتعالى، وتتحول بالانسياق المستمر لها إلى صفة متأصلة في النفس الإنسانية وتتغلب على نداء العقل والفطرة والدين وتميتها.

وهذه الصفة أصبحت غالبة لدى البشر حتى عدَّها الله تعالى من الصفات اللازمة للإنسان ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ والإقتار هو التضييق في الإنفاق والبخل بالمال والإمساك عن بذله في موارد رجحانه، وصيغة (فعول) من صيغ المبالغة التي تدل على شدة الاتصاف، وقال تعالى في آية أخرى﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء:٥٣) والنقير هو الشق في النواة ويضرب مثلاً للشيء الضئيل، وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء:١٢٨) والشُّح هو ((بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة)) فهذه الصفة حاضرة لدى الإنسان ومشاهدة فيه بوضوح إلا مَن عصم الله تعالى فحررّهم من عبودية المال وغرائز النفس الأمّارة بالسوء وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩) (التغابن:١٦).

وقد يبرّر الإنسان هذا الحرص على المال والخوف من الإنفاق بخوف الفقر والاحتياج في المستقبل فيدّخره للطوارئ حتى قيل في المثل (القرش الأبيض

ينفعك في اليوم الأسود) إلا أنه يخدع نفسه، وتفضحه الآية الكريمة بأنه حتى لو ملك خزائن رحمة الله على سعتها وعدم نفادها، فإنه سيمتنع عن الإنفاق، لأن البخل والشح والحرص على المال صفة راسخة في نفس الإنسان.

وخزائن رحمة الله هي الجهات التي جعلها الله تعالى سبباً لاستدرار رحمته كما في الدعاء (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك)[1]، وهي عامة تشمل العطاء المعنوي والمادي.

ولأن الله تعالى هو خالق الإنسان والبصير بما يعاني منه وما يصلحه فقد عالج هذه الصفة المذمومة المتأصلة من خلال عدة أساليب علمية وعملية للدخول إلى أعماق النفس الإنسانية وفتح مغاليقها وكبح جماحها، لتغيير خصالها وتهذيب صفاتها، ويمكن معرفتها من استقراء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، منها:

١- الترغيب في الإنفاق من خلال بيان الآثار المباركة له في الدنيا والآخرة كمضاعفة الثواب أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١) وأن الإنفاق سبب لغفران الذنوب ومحو السيئات، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٧١) وسبب للتثبيت على الهدى والصراط المستقيم في الآخرة ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(١) مفاتيح الجنان: ٤٢.

(البقرة:٢٦٥) (لاحظ مثلاً سورة الحديد فإن فيها ربطاً متعدداً بين التوحيد والإنفاق) وأن الصدقة تستنزل الرحمة الإلهية والاطمئنان والسكينة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة ١٠٣) وغير ذلك.

وقد أخبرت الأحاديث الشريفة ببعض هذه النتائج المباركة كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (أرض القيامة نار ما خلا ظلَّ المؤمن، فإن صدقته تُظِّله)[١]، وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (الصدقة تسدُّ سبعين باباً من الشرّ)[٢]، وقال (صلى الله عليه وآله): (أكثروا من الصدقة ترزقوا)[٣].

ولم يكتفِ بذلك بل فرض حقوقاً يجب إيصالها إلى مستحقيها ولا يُعذر المتخلف عنها ولم يدع الإنفاق لرغبة الشخص، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣) وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٩) ثم بيَّن موارد كثيرة لاستحباب الإنفاق وهكذا.

٢- ذم البخل والإمساك عن الإنفاق الراجح، واعتبارها صفة مذمومة مقيتة، ليتحرّك الإنسان التوّاق إلى الكمال والرقي والسعادة إلى معالجتها، وبيان أن البخيل لا ينفع نفسه بل يضرها، قال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي

(١) الكافي: ٤/ ٣/ ح٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٣٢/٩٦/ ح٦٤.

(٣) إرشاد القلوب- الديلمي: ١٨١.

سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨) وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٠) وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء)[١]، وروي عن الإمام الهادي (عليه السلام) قوله: (البخل أذمّ الأخلاق)[٢]، ومما قيل من شعر الموعظة في البخيل:

يفني البخيل بجمع المال مدّتَه ... لم يعتبر بأناس قبله جمعوا

كدودة القزّ ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

٣- التحذير من سوء عاقبة المتخلفين عن الإنفاق كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٥-٣٤) وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٤) وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٨، راجع ميزان الحكمة: ١/ ٣٥١ للاطلاع على مزيد من الأحاديث.

(٢) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٩٩/ ح٢٧.

يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون:١-٣) وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (المدثر:٤٢-٤٤) فهذه صور لعواقب فظيعة يكفي مجرد تصورها للإصابة بالذعر والهلع الشديدين ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥) فقد جعلت عدم الإنفاق سبباً لوقوع الفرد والمجتمع في التهلكة بصورها المتعددة التي بيّناها في القبس السابق.

أما الأحاديث الشريفة فإنها تفوق حد الإحصاء ولا يسع المجال لذكرها نذكر أحدها وهو قول الإمام الباقر (عليه السلام): (الذي يمنع الزكاة يحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً (أي ثعبان) من نار له ريمتان[1] فيطوقه إياه ثم يقال له: الزمه كما لزمك في الدنيا، وهو قول الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠))[2].

٤- الوعد بأن الله تعالى يخلف على الإنسان ما ينفقه في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:٣٩) مضافاً

(١) كذا في جميع النسخ، وهكذا نقله في المستدرك أيضا، والصحيح " زبيتان " تثنية زبيبة وهما نقطتان سوداوان فوق عيني الحية والكلب. يخيل للرائي أن لها أربعة أعين وإذا كانت كان عضها قتالاً.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٣/ ص٨.

إلى أنّ له أجر ما أنفق[١] قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٧٢) وهذا الإيفاء متحقق في الدنيا والآخرة؛ لذا يتعجّب الإمام الصادق (عليه السلام) من البخيل ويستنكر فعله قال: (إن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا!)[٢].

٥- بيان حقيقة أن هذا المال ليس مملوكاً حقيقة للإنسان، وإنما هو وديعة لديه وأمانة استُخلف عليها وعمّا قريب تستردّ الوديعة ويرث الله تعالى الأرض وما عليها، قال تعالى معاتباً ومستنكراً: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد:١٠) وحينئذٍ يخرج الإنسان من الدنيا صفر اليدين ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام:٩٤) ولا يبقى له إلا ما أنفق في سبيل الله، وحينئذ لا يتردد عاقل في تقديم أكبر مقدار ممكن مما خوّله الله تعالى إلى حسابه الثابت في الآخرة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة:١١٠) (المزمل:٢٠) وعدم تركه وراءه بلا استثمار في ما ينفعه في حياته الباقية، قال الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) يوجد في إحدى الدول الأوروبية بنك للوقت تسجّل فيه حساباً للوقت الذي تنفقه في خدمة الآخرين على نحو المداراة الصحية أو الأعمال المنزلية وغير ذلك وهذا الرصيد يُستفاد منه عند الاحتياج إلى المساعدة في الشيخوخة أو المرض أو أي سبب آخر فيأتي من يخدمك مدة تستقطع من الرصيد فهذا تطبيق لما افادته الآية الكريمة من أن الله تعالى يخلف على المنفق.

(٢) بحار الأنوار: ٧٨/ ١٩٠/ ح١.

مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:٧) وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:١٠-١١) وسيندم الإنسان على بخله وعدم تقديم الزاد لآخرته، وسيلتمس من المؤمنين أن يسعفوه بقبس من نورهم ليضيء ظلمته في القيامة فيأتيه الجواب: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ (الحديد:١٣)، فإن الدنيا هي دار العمل واكتساب الحسنات والنور، وروت عائشة (أنَّهم ذبحوا شاةً فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ما بقيَ منْها؟ قلتُ ما بقيَ منْها إلا كتفُها. قالَ: بقيَ كلُّها غيرَ كتفِها)[1]، فإن الباقي الحقيقي هو ما أُنفِق في سبيل الله وفي وجوه البرِّ والإحسان.

٦- معالجة الإشكالات التي يوسوس بها الشيطان لمنع الإنسان من الإنفاق وعلى رأسها خوف الفقر، ولا يلتفت إلى أن الآمر بالإنفاق هو الرزّاق الكريم وبيده خزائن السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨) والشيطان يُخوِّفكم من الفقر إذا أنفقتم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥) والتخويف هنا مطلق شامل لكل أسبابه وموارده، فقال تعالى في

(١) صحيح الترمذي: ح ٢٤٧٠.

الجواب: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٢٨) والعيلة تعني الفقر، ويقال عال الرجل إذا افتقر، وقد منَّ الله تعالى على نبيه (صلى الله عليه وآله) برفع هذه الحاجه ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى:٨).

ويتعجّب الإمام الصادق (عليه السلام) من هذا التناقض المثير للسخرية الذي يقع فيه البخيل، فقال (عليه السلام): (عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء)[١].

ويمكن أن يوسوس الشيطان من جهة مصداقية المستحق للإنفاق او وثاقة الوسيط في نقل المال المستحق، وهذه كُلُها لا تبرّر الامتناع عن الإنفاق وإنما توجب التثبت والتأكد من مورد الصرف والقائمين عليه ونحو ذلك.

٧- إلفات النظر إلى أنهم إن لم ينفقوا المال في طاعة الله تعالى وما يوجب رضاه فإنهم سيبتلون بإنفاق ما هو أكثر منه في معصية الله تعالى ويجمعون عليهم خسارة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٣٦) فهذه الأموال التي بخلوا بها عن طاعة الله تعالى سينفقونها في معصيته[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٩٩/ ح٢٨.

(٢) راجع قبس قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (الأنفال:٣٦) في تفسير من نور القرآن لمعرفة تفصيل الفكرة.

٨- التعجيل في فعل الخير والمبادرة الى عمل المعروف لان التأنّي والتأخير يفسح مجال للشيطان أن يثير الوساوس لمنعه من الإقدام قال الإمام الباقر (عليه السلام): (من همَّ شيء من الخير فليعجلّه، فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة)[١].

موارد البخل ومصاديقه:

ونحن وإن ركّزنا في الحديث على الإقتار والبخل و الشُّح بالمال إلا أنه شامل لكل موارد الإنفاق التي فصلناها في قبس سابق[٢]، كالبخل بالعلم والمعرفة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيضلّ ويكون سبباً لإضلال غيره، وهو أحد مصاديق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّه مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (النساء:٣٧) فعدّه الله تعالى أمراً بالبخل عملياً فيتحمل وزره ووزر من تأثر به.

وأسوأ درجات البخل وافظعه الامتناع عن الشهادة لله تعالى بالوحدانية ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالرسالة، وعدم أداء الواجبات الشرعية كالصلاة اليومية أو صوم شهر رمضان فإنه بخل فظيع، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (أبخل الناس من بخل بما افترض الله عليه)[٣]، كما يروى عن أحد طواغيت قريش أنه أجاب النبي

---

(١) الكافي: ١٤٣/٢/ ح٩.

(٢) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥). في تفسير من نور القرآن.

(٣) بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٠٠/ ح٢.

(ﷺ) حين طلب منه أن ينطق بالشهادتين فقال: ((إن حمل الجبال الرواسي على ظهري أهون عليّ من النطق بهما)).

وهكذا من البخل كتمان كل شهادة حق، وعلى رأسها الشهادة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٣) ومنها البخل على أهل بيت النبي (ﷺ) بالمودّة، وهو حقهم الذي فرضه الله تعالى وجعله أجر تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣).

وتصل ذروة البخل بالامتناع عن أداء حق النبي (ﷺ) وشكره على جهده وجهاده بالصلاة عليه وعلى آله عند ذكره، ففي الحديث النبوي الشريف: (إن أبخل الناس من ذُكِرتُ عنده ولم يصلِّ عليَّ)[١]، وقال (ﷺ): (البخيل حقاً من ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ)[٢].

ومن موارد الشحّ ما ورد في تفسير الآية المتقدمة بالنسبة للمرأة بأنه: عدم ارتدائها اللباس الفاخر وترك التزين والامتناع عن تلبية احتياجات الزوج، فيعالج الشح بأداء حق الآخر وقد يتطلب التنازل عن بعض حقه لإيقاع الصلح قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء:١٢٨).

ومن موارد المنع والإمساك أن يبخل الشخص بالسلام فلا يبتدئ أحداً بالسلام، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (البخيل من بخل بالسلام)[٣].

---

(١) كنز العمال: ٢١٤٤.

(٢) بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٠٦/ ح٢٨.

(٣) معاني الأخبار: ٢٤٦/ ح٨.

بل قد لا يردّ السلام مع وجوبه، وآخر يبخل بالكلمة الطيبة فلا يقول شكراً لمن قدَّم له خدمةً كزوجته مثلاً، وآخر لا يسدي معروفاً إلى أحد مع قدرته عليه.

القبس/١١٧

سورة الكهف:﴿١٣﴾

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾

موضوع القبس: الفتوة زينة الانسان

تعرف المعاجم اللغوية الفتوة بانها مرحلة عمرية للإنسان فالفتى هو الشاب الطري الحدث وتطلق على غير الانسان كالفتي من الابل، لكن المحققين في أصول المفردات يرون ان الشباب غير كافٍ وحده لإطلاق عنوان الفتوة مالم تجتمع فيه خصال الكمال لذا قيل (ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال)[1] مع شيء من الطراوة والجدة لذا فإن الشاب اعم من الفتى.

وتوسع المعنى - وهو الأمر البالغ التّام - من الأشياء الخارجية كالفتى من الانسان والحيوان إلى المعنوية، فاشتقت الفتوى إذ ان الإفتاء هو النظر التام البالغ الذي يبيّن المشكل من الأمور ويقوّي الحق فيها لذا فالنظر أعم من الفتوى، ولا تختص بالأحكام الشرعية، قال تعالى ﴿قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف:﴿٤١﴾) وقال تعالى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ (يوسف:﴿٤٦﴾) وقال تعالى ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى﴾ (النمل:﴿٣٢﴾).

وعلى هذا فليس كل شاب فتى ما لم يكن تاماً بالغاً ومدبراً عاقلاً، وقد توسّع هذا المعنى في القرآن الكريم وروايات المعصومين (عليهم السلام) لكل من اتصف

(١) التهذيب: ٣٢٧/١٤ بواسطة كتاب التحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي: ٢٨/٩.

بهذه الخصال الكريمة وان لم يكن في عمر الشباب قال تعالى : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء:٦٠) وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ (الكهف:٦٠)، ووصف النساء العفيفات - وإن كن مملوكات - بالفتيات للتبجيل والتوقير، قال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ (النور:٣٣) وقال تعالى ﴿فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (النساء:٢٥).

وبهذا اللحاظ أطلق القرآن الكريم على أصحاب الكهف وصف الفتية وهم لم يكونوا شباباً، ففي رواية الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه قال (لرجل عنده:ما الفتى عندكم؟ فقال له:الشاب، فقال:لا، الفتى المؤمن، إن أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسماهم الله عز وجل فتية بإيمانهم)[1].

ورويت بطريق آخر عن سليمان بن جعفر الهمداني عنه (عليه السلام) قال فيها (أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كهولاً فسمّاهم الله فتية بإيمانهم، يا سليمان من آمن بالله واتقى فهو الفتى)[2].

وقد أظهر أصحاب الكهف من الفتوة ما أبهر العقول واستحق الثناء من الله تبارك وتعالى فقد آمنوا بالله تعالى ووحّدوه ونبذوا ما كان عليه قومهم من الشرك والوثنية وعبادة الطاغوت وهو امبراطور الرومان ولم ترعبهم قوته وبطشه وقسوته ولم يخلدوا إلى الدنيا التي تزيّنت لهم وكانوا فيها مترفين ومن علية القوم، لكنهم

---

(١) الكافي: ٨/ ٣٩٥/ ح٥٩٥.

(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٣٢/ ح١١، تفسير البرهان: ٦/ ١١٨.

آثروا ما عند الله تعالى ووقفوا بشجاعة في وجه الطاغوت وعرّفوه بحقيقته التافهة واعانهم الله تعالى بالتأييد والثبات وقوة القلب ورسوخ الايمان ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ (الكهف:١٣-١٤) وهؤلاء الفتية نعم الأسوة لنا، ولم يكونوا من الأنبياء ولا من المعصومين حتى يقال اننا لا نستطيع بلوغ درجتهم وتكرار نسختهم.

وقد اعطى المعصومون (عليهم السلام) قيمة كبيرة للفتوة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (ما تزيّن الانسان بزينةٍ أجمل من الفتوة)[١] وبيّنوا (عليهم السلام) عدة خصال كريمة يتضمنها معنى الفتوة كبذل المعروف للناس وكف الأذى عنهم واجتناب القبائح ونحو ذلك فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (بعد المرء عن الدنيّة فتّوة)[٢] وعنه (عليه السلام) قال (الفتوة نائل - أي عطاء - مبذول، وأذى مكفوف)[٣] وعنه (عليه السلام) قال (نظام الفتوة - أي تمامها وكمالها - احتمال عثرات الاخوان وحسن تعهد الجيران)[٤].

وقد تجلّت الفتوة بأكمل خصالها في رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده

---

(١) غرر الحكم: ٩٦٥٩.

(٢) غرر الحكم: ٤٤٢٥.

(٣) غرر الحكم: ٢١٧٠.

(٤) غرر الحكم: ٩٩٩٩.

(عليه السلام) قال (ان اعرابياً أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فخرج اليه في ثوب مزيَّن ، فقال:يا محمد لقد خرجت اليَّ كأنك فتى، فقال: (صلى الله عليه وآله) نعم يا اعرابي أنا الفتى ابن الفتى أخو الفتى، فقال:يا محمد أما الفتى فنعم، وكيف ابن الفتى وأخو الفتى، فقال:اما سمعت الله عز وجل يقول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فانا ابن إبراهيم، واما أخو الفتى فان منادياً نادى في السماء يوم أحد: لا سيف الا ذوالفقار ولا فتى الا علي، فعلي أخي وأنا أخوه)[1].

وصحّح الأئمة أيضاً المعاني المنحرفة لهذه الصفة النبيلة حيث اطلقت على المكر والخداع و(البلطجة) في مصطلح اليوم، روي ان أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) تذاكروا عنده الفتّوة (فقال (عليه السلام): وما الفتوة؟ لعلكم تظنّون أنها بالفسوق والفجور! كلاّ، إنما الفتّوة طعام موضوع، ونأئل مبذول، وبشر مقبول، وعفافٌ معروف، واذى مكفوف، واما تلك فشطارة وفسق)[2] أي دهاء وخبث.

ولعله (عليه السلام) يشير إلى الظاهرة الاجتماعية التي انتشرت يومئذٍ بمن يسمّونهم (الشطّار والعيّارين) وكانوا يؤذون الناس ويستهزئون بهم ويسلبونهم أموالهم وممتلكاتهم بعنوان الشطارة وهكذا في كل زمان يوجد من يُلبس الأفعال والمظاهر السيئة عناوين جميلة لتسويقها داخل المجتمع.

وحكى في مجمع البحرين أن هذا الكلام منه (عليه السلام) (رد على ما كان يزعمه سفيان الثوري وغيره من فقهاء العامة من أن التوبة بعد التفتي والصبوة ابلغ

---

(١) معاني الاخبار: ١١٩.

(٢) أمالي الصدوق: ٤٤٣، المجلس٨٢/ ح٣، أمالي الطوسي، معاني الأخبار: ١١٩، بحار الأنوار: ٧٩/ ٣٠٠/ ح٩.

وأحسن في باب التزّهد، من الزهادة والكف عن المعصية رأساً في بدء الأمر)[1] وهذه من شطحاتهم المنكرة.

وقد التصقت الفتوة بالشباب لأن عندهم الأهلية للتحلي بمعانيها الكريمة فأنهم يتصفون بطراوة الفطرة وطهارة النفس وبالشجاعة والقوة والاقدام والتضحية والنخوة والحيوية والمسارعة إلى الخير، حيث يقوم شبابنا اليوم بخدمات إنسانية وفعاليات ميدانية وتعبوية تجسّد معنى الفتوّة .

فلإحياء هذه الصفة الكريمة وبيان معانيها السامية وترسيخها في الفرد والمجتمع وتنقيتها من سوء الاستعمال وتشجيع الفعاليات الميدانية والتعبوية التي يطلق عليها احياناً عنوان (الكشافة) ولبيان سيرة فتيان الإسلام ندعو الى تعيين يوم للفتوة، وقد اخترت له يوم الخامس عشر من شوال لأنه ذكرى معركة أحد وإعلان السماء أن أمير المؤمنين (عليه السلام) هو فتى الإسلام بلا منازع يوم نادى منادي السماء (لا فتى الا علي).

فأدعوكم إلى إقامة هذه الفعالية وضعوا برامج لاكتساب المجتمع خصوصاً الشباب هذه الخصلة الكريمة لنساهم في ارتقاء الأمة وازدهار البلد، وليقم العلماء والكتّاب والمفكّرون بالتعريف بتفاصيلها والله معكم وهو ناصركم إن شاء الله.

---

(١) مجمع البحرين: المجلد الأول: ٢٠١ مادة فتا.

القبس/١١٨

سورة الكهف:﴿١٦﴾

﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

موضوع القبس: اللجوء إلى الكهف المعنوي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ (الكهف:﴿١٦﴾).

تقع الآية الشريفة في سياق قصة أصحاب الكهف التي حكاها القرآن الكريم في سورة باسم الكهف، وقد كان الإيواء إلى الكهف واتخاذه مأوى وسكناً بعيداً عن قومهم ليمارسوا شعائر الله تعالى هو القرار الذي ألهمه الله تعالى الفتية أصحاب الكهف الذين ربط الله تعالى على قلوبهم وزادهم هدى، فاتفقوا عليه بعد أن دعوا قومهم إلى الإيمان والتوحيد ونبذ الشركاء والآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى سواء كانت هذه الآلهة حجرية أو بشرية وهم أباطرة الرومان، لكن دعوتهم لم تؤثر في المجتمع الوثني يومئذٍ، وانكشف أمرهم للسلطة فلاحقتهم للقضاء عليهم وعلى دعوتهم، فرأوا أن القرار الذي يجب اتخاذه هو الفرار من قومهم واعتزالهم والابتعاد عنهم ونبذ ما يعبدون من دون الله تعالى واللجوء إلى كهف يقع في جبل خارج المدينة ليحافظوا على أنفسهم وعلى عقيدتهم وأخلاقهم، وكلّفهم هذا الإيواء التنازل عن مواقعهم في السلطة والحياة المترفة التي كانوا عليها ومفارقة الأهل والأحبة والأوطان، وافترشوا التراب في

كهف ناءٍ مظلم موحش مخيف، لكنهم كانوا يرون في ذلك الكهف الضَيّق الحياة الرحيبة الهنيئة لأن رحمة الله تظلله ويملأه رضوان الله تعالى، أما الحياة المترفة في ظل السلطة البعيدة عن الله تعالى فإنها نكدة ضيُّقة وكأنهم يكررون بذلك ما قاله الصديق يوسف (عليه السلام) حين رفض الاستجابة لإغراءات امرأة العزيز مفضلاً حياة السجن الخشنة: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، وهذا سمو روحي لا يدركه إلا من أحبّ الله تعالى من أعماقه وتعلق به مخلصاً.

فهذا الإجراء قبل أن يكون مادياً - ان صح التعبير - لحفظ حياتهم وأنفسهم من القتل، فإنه إجراء معنوي لحفظ عقيدتهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم من التلوث ببيئة الكفر والشرك والنفاق وما تحويه من فتن وضلالات وانحراف وفساد، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الأنفال:٢٥)، وقد كان خوفهم وقلقهم على دينهم أكثر من خوفهم على أرواحهم وقد حكى القرآن الكريم تصريحهم بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي قومهم الوثنيون ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ (الكهف:٢٠).

ولعل الفتية أصحاب الكهف كان نظرهم إلى الاعتزال المعنوي أكثر من المادي، وهذا واضح من النتيجة التي توخّوها فإنهم لم يقولوا نلجأ إلى الكهف لنأمن على أنفسنا ونحفظ حياتنا من القتل - وان كان هذا حقا مشروعاً لهم - وإنما قالوا: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ فقدموا الهدف المعنوي وهو تحصيل الرحمة الإلهية الخاصة التي

كانوا يطلبونها من الله تعالى ويصفونها في دعائهم باللدنية، ويسألونه تعالى أن يمنَّ بها عليهم ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ (الكهف:١٠)، ثم إيجاد حل ينفعهم ويرفق بهم ويجعل لهم فرجاً ومخرجاً من المأزق الشديد الذي هم فيه، ويخلصّهم من الأعداء المتربصين بهم.

والمرفق هو ما يرتفق به أي ينتفع، ولا يخفى ما في لفظ ﴿يَنْشُرْ﴾ من الإشارة إلى أن الرحمة الإلهية بكل درجاتها موجودة (لا بخل في ساحته) إلا أنها مطويّة وتُستحق بشروط، فنشرت عليهم حين أووا إلى الكهف، فلم يعد الكهف ضيّقاً خشناً بل أصبح واسعاً رفيقاً ليّناً برحمة الله تعالى، وهذه قيمة عظيمة للإيمان يُحرَم منها الماديون والملحدون. وقد كان الفتية على ثقة مطلقة بأن الله تعالى سيعتني بأمرهم وسيلطف بهم بحيث ذكروا النتيجة مسلّمة ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته﴾ ولم يقولوا عسى ولعل، وهذا ما حصل فعلاً وأبقى الله تعالى ذكرهم خالداً بخلود كتاب الله تعالى لهداية الناس، وهذه سُنّة إلهية أمر الله تعالى بها كما في سورة الكافرون وغيرها، حاصلها إنَّ شرط نزول الرحمة والنصر الإلهيين يتحقق بمباينة أهل المعاصي واجتنابهم، وقد أدركها أصحاب الكهف بلطف الله وعنايته.

ومن لطائف القرآن الكريم أنه لا يذكر الحوادث ويسرد القصص بشكل يجعل آياته مختصة بالواقعة التي نزلت فيها، وإنما يصوغها بنحو مثمر مبارك ينتفع بها الخلق جميعاً إلى قيام يوم الساعة ولو توقفنا عند خصوصيات كل حادثة

يحكيها القران الكريم، فأنها ستكون حكاية عن كيفية خاصة بأهل الكهف.

فالآية الكريمة تعطينا درساً في الرجوع إلى الله تبارك وتعالى دائماً واللجوء الى كهفه الحصين في الأزمات والشدائد وعند اختلاط الأمور وانتشار الفتن ليشملهم برحمته الخاصة ويهيئ لهم من أمرهم رشداً، وتبيّن بأن الوسيلة إلى النجاة من بيئة النفاق والفساد والضلال والظلم والانحطاط هو باعتزالها معنوياً وتجنب التأثر بها، وليس من الضروري الانعزال[١] عنها والانزواء في البيت أو أي مكان آخر لوجود ضرورة لممارسة الحياة الطبيعية من حيث طلب الرزق وسدّ الاحتياجات المتنوعة والاهم من ذلك التفقه[٢] في الدين وممارسة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وارشاد الضال والدعوة الى الله تتبارك وتعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) واهل بيته (صلوات الله عليهم اجمعين) وكلها تقتضي الاختلاط بالناس والتعامل معهم، فالمهم إذن هو الاعتزال المعنوي، وهكذا كان أصحاب الكهف فقد روى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما بلغت تقية أحد تقية أصحاب الكهف إن كانوا ليشهدون الأعياد ويشدون الزنانير[٣] فأعطاهم الله أجرهم مرتين)[٤].

وقد دلّتنا الأحاديث الشريفة والأدعية المباركة على مصاديق الكهف

---

(١) راجع خطاب المرحلة (سلامة الدين في اعتزال الناس) في موسوعة خطاب المرحلة: ٨/ ٢٨٩ ونظائرها من الخطابات.

(٢) كما روى الكليني بسند معتبر انّ رجلا قال للإمام الصادق (عليه السلام): جعلت فداك رجل عرف هذا الأمر لزم بيته ولم يتعرّف إلى احد من اخوانه، قال: فقال: كيف يتفقّه هذا في دينه: الكافي ج١/ ح٩.

(٣) جمع زنار وهو ما يشده النصارى والمجوس على اوساطهم، شعاراً لهم يعرفون به.

(٤) الكافي: ٢/ ١٧٣/ ح٨، تفسير العياشي: ٢/ ٣٢٣/ ح٩.

المعنوي الذي نلجأ إليه والعروة الوثقى التي نتمسك بها عند اشتداد الفتن والأزمات وانتشار الفساد والضلال والانحراف والنفاق.

أولها: الإيمان بالله تعالى وتوحيده بإخلاص، ففي الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة:٢٥٦)، وفي الحديث القدسي (لا إله إلا الله حصني فمن دخله أمِن من عذابي)[١]، ومن وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (وألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز)[٢]، وفي الدعاء الشريف: (يا كهفي حين تعييني المذاهب)[٣] و(يا كهف من لا كهف له)[٤].

وثانيها: كهف الإسلام والانقياد لأوامر الله ونواهيه والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:٢٢).

وثالثها: القرآن الكريم وولاية أهل البيت (عليهم السلام) كما في حديث الثقلين المشهور: (إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب

---

(١) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق: ١٤٤/١، ح٢، باب ٣٧: ما حدث به الرضا (عليه السلام) في مربعة نيسابور وهو يريد قصد المأمون.

(٢) نهج البلاغة: ٣٩/٣، بشرح محمد عبده.

(٣) الكافي للكليني: ٣/ ٣٢٥/ ح١٧، باب: الركوع وما يقال فيه من التسبيح والدعاء فيه وإذا رفع الرأس منه.

(٤) بحار الأنوار: ٨٤/ ٢٥٧، عن مصباح المتهجد والبلد الأمين وغيرهما.

الله وعترتي أهل بيتي)[١] وما رواه أبو الصلت عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام): (يقول الله عز وجل ولاية علي بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي)[٢]، وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في صفة أهل البيت (عليهم السلام) قال:(وهم الرحمة الموصولة والكهف الحصين للمؤمنين)[٣].

حكى السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) في إحدى رسائله التي جمعتها وطبعتها في كتاب قناديل العارفين قال: ((إنني يوماً فتحت القرآن الكريم لأجد فيه منزلتي أمام الله سبحانه أو قل - بالتعبير الدنيوي- (رأي) الله فيّ فخرجت هذه الآية من سورة الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾. إن كل هذه الآية مفهومة لي بحسب حالي يومئذٍ إلا قصة (الكهف) الذي يكون من المطلوب أن آوي إليه، أي كهف هذا؟ وذهبت إلى الحرم العلوي على ساكنها السلام عسى أن ينفتح لي هناك عن هذا المعنى، وبدأت بزيارة (أمين الله) حتى وصلت إلى قوله (عليه السلام): (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك.. إلى قوله:يا كريم) وقد حصل لي في تلك اللحظة (حدس) قوي بأن الكهف الذي يجب أن أدخله هو هذا، أي أن تصبح نفسي على هذه الأوصاف وتجانب ما سواها، وقد عرضت ذلك على (مولاي) - يقصد به استاذه (قدس سره) في السير

(١) الكافي: ٢/ ٤١٥/ ح١، باب: أدنى ما يكون به العبد مؤمناً أو كافراً أو ضالاً.

(٢) عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٤٦، باب ٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦/ ٢٥٥، عن تفسير فرات بن إبراهيم.

والسلوك الى الله تعالى – فأقرّه وقال بصحته))[١].

وهؤلاء هم من وصفهم الإمام السجاد (عليه السلام) في مناجاة العارفين بقوله (عليه السلام) (فهم الى اوكار الأفكار يأوون)[٢] أي انهم يأوون الى كهف المعرفة بالله تعالى.

أيها الاحبّة يا أنصار السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام).

هذا اللجوء إلى الكهف المعنوي لتحصيل الرحمة الإلهية الخاصة وحل الأزمات والنجاة من الفتن والضلالات هو ما أرادته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من الأمة ودعتهم إليه حينما قالت لهم في خطبتها: (فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة)[٣].

وقالت في اللجوء إلى ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام): (وتالله لو مالوا عن المحجّة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردّهم إليها، وحملهم عليها ولسار بهم سيراً سُجُحاً لا يكلم حشاشه ولا يكل سائره ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً، صافياً، روياً، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل)[٤].

وكثرت وصايا أهل البيت (عليهم السلام) في وصف أهل البيت (عليهم السلام) بأنهم

---

(١) قناديل العارفين: ١٨٨، ط. مؤسسة الرافد.

(٢) الصحيفة السجادية: ٢٧٥ مناجاة العارفين.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ١/ ١٢٨.

(٤) المصدر السابق: ١٣٩.

(الكهف الحصين) الذي يجب على الأمة اللجوء إليه:

١- ففي الصلوات الشعبانية للإمام السجاد (عليه السلام): (اللهم صلّ على محمد وآل محمد الكهف الحصين وغياث المضطر المسكين وملجأ الهاربين وعصمة المعتصمين)[١].

٢- وفي زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) (السلام عليك أيها الكهف الحصين)[٢].

وأوصوا (سلام الله عليهم) من بعدهم بالإيواء إلى كهف العلماء العاملين المخلصين، روى في كتاب الاحتجاج عن الإمام الهادي (عليه السلام) قوله: (لولا مَن يبقى بعد غيبة قائمنا (عليه السلام) من العلماء الداعين إليه، والدالّين عليه والذابّين عن دينه بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شِباك إبليس ومردته ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة، كما يمسك صاحب السفينة سكّانها أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل)[٣] وهم موجودون في كل جيل بحسب إخبار الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[٤]، وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال في حديث (لأن المؤمنين الفقهاء حصون المسلمين كحصن سور المدينة لها)[٥].

والمجاهدون المدافعون عن مقدسات المسلمين وحرماتهم وأوطانهم هم

---

(١) بحار الأنوار: ٨٤/ ٦٧.

(٢) بحار الأنوار: ٩٧/ ٣٢٤.

(٣) بحار الأنوار: ٢/ ٦/ ح١٢، عن الاحتجاج: ١٨، وتفسير العسكري: ٣٤٤/ ح٢٢٥.

(٤) بصائر الدرجات: ٣٠/١، ب ٦، ح٧.

(٥) الكافي: ٣٨/١، كتاب فضل العلم، باب فقد العلماء، ح٣، ورواه في قرب الإسناد.

حصون الإسلام، فقد خاطبت السيدة الزهراء (عليها السلام) الأنصارَ بقولها: (معشر البقية وأعضاد الملة وحصون الإسلام)[١].

وورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته للأشتر حين ولاه حكم مصر: (فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم)[٢].

والمسجد كهف معنوي عظيم على من يأوي إليه ويتردد عليه، روى الإمام الحسن (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال (من أدمن الاختلاف الى المساجد أصاب أحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله عزوجل أو علماً مستطرفاً أو كلمة تدلّه على هدى أو أخرى تصرفه عن الردى أو رحمة منتظرة أو ترك الذنب حياءاً أو خشيةً)[٣].

والإخوة في الإيمان يلجأ إليهم المؤمن، ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (اعلم يرحمك الله أن حق الإخوان واجب فرض لازم) إلى أن قال: (وهم حصونكم التي تلجأون إليها في الشدائد في الدنيا والآخرة، لا تماطوهم (أي لا تفخروا عليهم ويحتمل أن يكون لا تمايطوهم أي لا تباعدوهم: هامش البحار) ولا تخالفوهم ولا تغتابوهم ولا تدعوا نصرتهم ولا معاونتهم، وابذلوا النفوس والأموال دونهم، والإقبال على الله عز وجل بالدعاء لهم، ومواساتهم ومساواتهم في كل ما يجوز فيه المساواة والمواساة ونصرتهم ظالمين ومظلومين بالدفع

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤٣/٢٩.

(٢) نهج البلاغة: ٩٠/٣.

(٣) الخصال للشيخ الصدوق: ٢٠٧ أبواب الثمانية.

عنهم)[١].

كما بيّن الأئمة (عليهم السلام) مصاديق أخرى للكهف المعنوي لحثّ الأمة على التمسّك بها والإيواء إليها كالورع؛ ففي خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) (ولا معقل أحرز من الورع)[٢]، والمعقل هو الحصن، فالورع أمنع الحصون وأحرزها من وساوس الشيطان وأهواء النفس.

وكذلك الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة حصون للإيمان تحفظه من سراق شياطين الإنس والجن، وكل ما تجمعه كلمة (التقوى) من أفعال وتروك.

ومنها الدعاء كما في قول الصادق (عليه السلام): (الدعاء كهف الإجابة كما أن السحاب كهف المطر)[٣]، ومنها الموعظة عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (الموعظة كهف لمن وعاها)[٤].

ومنها عقول وقلوب المؤمنين التي تحفظ علوم ومعارف أهل البيت (عليهم السلام) وتكتم أسرارها إلا عن أهلها والتلطف في نشر أمرهم قال الصادق (عليه السلام) في وصيته لشيعته: (اقرَأ موالينا السلام، وأعْلِمْهم أن يجعلوا حديثنا في حصون حصينة وصدور فقيهة وأحلام رزينة، والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما الشاتم لنا عِرضاً والناصب لنا حرباً أشدّ مؤونة من المُذيع علينا حديثنا عند من لا يحتمله)[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٧١/ ٢٢٦.

(٢) الكافي: ٨/ ١٩، وهي من كلامه (عليه السلام) الذي خطب الناس به في المدينة بعد سبعة أيام من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٣) الكافي: ٤٧١/٢.

(٤) الكافي: ٢٣/٨. من لا يحضره الفقيه: ٣٩/٤.

(٥) الاختصاص للشيخ المفيد: ٢٥٨، ونقله في البحار: ٨٩/١.

احبّتي:

ما احوجنا اليوم وفي كل يوم خصوصاً ونحن نعيش في أعتى ازمنة الظلم والضلال والاستبداد والقهر والحرمان ان نأوي الى كهف الله تعالى الحصين وولاية النبي وآله الاطهار (صلى الله عليهم اجمعين) والسير خلف العلماء العاملين المخلصين ونبذ الفرقة واتباع الاهواء والانانيات وعدم الانسياق بالسلوك الجمعي وراء الدعوات المنكرة والمجهولة وغير المستندة الى الأسس الرصينة التي وضعها لنا أئمة اهل البيت (عليهم السلام) لكي ينشر الله تعالى علينا من لدنه رحمة ويهيئ لنا من امرنا رشدا ويهدينا الى حل الازمات وفك العقد وإصلاح ما فسد من الأمور انه نعم المولى ونعم النصير.

القبس/١١٩

سورة الكهف:﴿٢٨﴾

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾

موضوع القبس: مصاحبة الصالحين تحمي من الوقوع في الفتن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:﴿٢٨﴾).

أي احبس نفسك ووطّنها على مصاحبة الصالحين وملازمة مجالسهم، وهم الذين صدقوا مع الله وأخلصوا نياتهم لله تعالى، وكرّسوا أنفسهم لما يحب ويرضى، فقّربهم وتقرَّب إليهم، واستمع إلى مشاكلهم، واقض حوائجهم ودارهم، وتحمّلهم إن ضاقت نفسك بمواساتهم، وتحمل معاناتهم ومقاطعة المجتمع لك بسببهم، فإنهم انقطعوا إلى الله تعالى وكرّسوا حياتهم بكل تفاصيلها لله، واستوعبوا رسالة الإسلام عقيدة وفكراً و سلوكاً، فهم القوة الحقيقية للدين ويعوَّل عليهم في مواجهة الأخطار والفتن، وإن كانوا لا يملأون العين لخلو أيديهم من مظاهر الترف وزينة الدنيا.

ولعل في التعبير بالغداة والعشي كنايةً عن ذكرهم المستمر لله تعالى واستيعاب الوقت فيه، قال تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر:﴿٥٥﴾) وقال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ

وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران:﴿٤١﴾) وحضور الهدف لديهم وهو طلب رضا الله تعالى في كل تفاصيل حياتهم: عبادتهم وعملهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأحاديثهم وحركتهم، ويراد أيضاً بالغداة والعشي جمعهم في أوقات الصلاة روي عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) في تفسير هذه الآية قالا: (إنما عنى بها الصلاة)[1].

ورفعت الآية من منزلتهم حينما وصفتهم بأنهم يريدون وجهه أي مخلصين لله تعالى لا يريدون جزاءً ولا شكوراً.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا تُعرض بوجهك عنهم وتبتعد عن مصاحبتهم، مجاملة للأغنياء والمترفين والمستكبرين واللاهين العابثين الذين يستنكفون من مجالسة هؤلاء المستضعفين، و طمعاً في إصابة شيء من دنياهم أو لتحظى بمكانة عندهم، فالآية الكريمة لا تدعو إلى مقاطعة المترفين وعدم إيصال صوت الحق إليهم، لأن الإسلام دين الرحمة والهداية لكل الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:﴿١٠٧﴾)، ولا إلى عدم الاستفادة من إمكانياتهم لنصرة الدين وتحسين أوضاع المحرومين، ولكن مع الفطنة والحذر من مكائدهم وشيطنتهم، و تنهى عن مجاملتهم والانسياق وراء رغباتهم على حساب الحق طمعاً في الدنيا.

ولا يبرّر إبعاد المؤمنين حتى لو كان الهدف كسب المترفين وهدايتهم حيث عدّت آية سورة الأنعام من يفعل ذلك من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ

(١) نور الثقلين: ٣/ ٢٥٨، عن تفسير العياشي.

شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢).

روي في سبب نزول الآية أن مشركي قريش عرضوا على النبي (ﷺ) أن يبعد عنه أصحابه من الطبقة الاجتماعية المتدنية بحسب نظرتهم كعمار وبلال وخبّاب حتى يجلسوا إليه ويسمعوا منه وأنهم ما يمنعهم منه إلا وجود هؤلاء حوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۞ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۞ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (عبس:١-١٢).

والأمر بالصبر يكشف عن تعرض النبي (ﷺ) لضغط من قبل المترفين لإبعاد الفقراء والمستضعفين، وكانت خديعة منهم لتفريق شمله وتوهين منزلته لدى أصحابه لما في ذلك من الإهانة والتحقير لهم.

وقد وقع مثل ذلك في المدينة بعد فتح مكة من بعض الوجهاء الذين اضطروا للدخول في الإسلام، فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره قال: (فهذه نزلت في سلمان الفارسي كان عليه كساء فيه يكون طعامه وهو دثاره ورداؤه وكان كساء من صوف فدخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وآله وسلمان عنده، فتأذى عيينة بريح كساء سلمان وقد كان عرق فيه وكان يوم شديد الحرّ فعرق في الكساء، فقال: يا رسول الله إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا واصرفه من عندك فإذا نحن خرجنا فأدخل من شئت فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري)[1].

فجاء الرد من الله تبارك وتعالى حازماً واضحاً في رفض كل هذه العروض، لأن الإسلام رسالة إلهية لإصلاح الإنسان وقلع جذور الجاهلية في نفوس الناس، ومنها هذا الاستعلاء والطبقية.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ واحذر أن تنزلق إلى مطاوعة ما يريدونه منك، أو يخدعك أولئك الذين أعمت الدنيا بصيرتهم وشغلتهم عن معرفة الحقيقة، فقضوا حياتهم في اللهو والعبث والاستمتاع واللامبالاة، وشغلوا فكرهم وقلوبهم بهذه الأمور وغفلوا عن الوصول إلى الغاية، وتحقيق الغرض الذي خُلقوا من أجله وهو السعي نحو الكمال والفوز برضوان الله تعالى، فحرموا من توفيق الله تعالى وتأييده.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولم تكن أفعالهم عن حكمة ورُشد وبصيرة بل اتباعاً للأهواء والنزوات والإثارات العاطفية شهوة أو غضباً أو جهلاً أو تعصّباً، فكأنَّ تلك الغفلة سبب لسقوطهم في اتباع الأهواء والشهوات أو نتيجة له أو كل منهما سبب للآخر، فهُم في هذا التسلسل من الانحدار: غفلة ثم اتباع هوى حتى يصلوا إلى قعر الانحطاط.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي ضائعاً مشتتاً غير محافظ على الاستقامة، منحرفاً عن الحق ومثله التعبير في سورة مريم ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩) وهو الضلال وفقدان الرشد.

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٤، الدر المنثور: ٣٥٤/٥.

إن الآية الكريمة ترشد إلى أدب من آداب القرآن يربّى عليه قادة الإسلام في نظرتهم إلى الناس وكيفية تعاملهم معهم، ويربّي أتباعه أيضاً على هذا الأساس خصوصاً الحوزة العلمية والمتصدين لمواقع المسؤولية والعاملين الرساليين، بأن لا يترفعوا عن عامة الناس وأن لا يضعوا الحواجز بينهم.

وبنفس الوقت تقدم الآية الكريمة هذا العلاج لأكثر من مشكلة:

حل مشكلة التمايز الطبقي:

١- اجتماعية: وهي التمايز الطبقي حيث يُصنَّف أبناء المجتمع الواحد إلى طبقة مستعلية من أهل الثراء والترف وهم قلة، وطبقة متدنيّة لا تملك ما عند أولئك وهم الكثرة، وتُميِّز الطبقة الأولى نفسها عن الثانية في مجالسها ونمط حياتها في المأكل والملبس وواسطة النقل وسائر شؤونها حيث يعتادون الإسراف والتبذير وبعثرة الأموال على اللهو والعبث، بينما تعيش الطبقة العامة في ضنك من العيش وصعوبة في تدبير احتياجاتها الأساسية، مما يولّد شعوراً بالانتقام من الذين يعتاشون على دمائهم، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله :(فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي)[1]، ونقل عن بعض النسخ المخطوطة للنهج (بما منع).

وهذه مشكلة معقّدة عانى منها جميع الأنبياء (عليهم السلام) فواجهوا بها نوحاً (عليه السلام) ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۞ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۞ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الشعراء:١١١-١١٥) وواجهوا بها النبي هوداً (عليه السلام) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣٢٥.

كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود:٢٧) وهذا ما جرى عليه فرعون في خطابة لموسى وهارون وقد جاءاه بهيئة الفقراء يدعوانه إلى الإيمان بالله تعالى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف:٥١-٥٣) فهم يريدون من الأنبياء والقادة المصلحين الرساليين أن يدُوروا في فلكهم ويحفظوا لهم مصالحهم وزعامتهم، وأن يسكتوا عن مظالمهم واستئثارهم بأموال الناس، وأن يجعلوا من الدين غطاءً يشرعنون به كل هذه الجرائم والانحرافات، ويجلدوا به معارضيهم، مقابل أن يحظوا بالمكانة عندهم ويعدّونهم من طبقتهم، وإلا فسيواجهونهم بشراسة، وهذا التحدي مستمر يواجهه العلماء الربانيون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٤-٣٥) فهذه النظرة الاستعلائية وجعل المقياس الأمور الدنيوية موجودة عندهم.

وضمن هذا المنهج الإصلاحي لهذه العقدة الجاهلية يجيء هذا الأمر فإن في الاستجابة لهم تأكيداً لهذه الفوقية التي يتعاملون بها مع بقية الناس مع ما يتطلبه من تقديم تنازلات على حساب العقيدة الحقة والأخلاق السامية والمداهنة ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم:٩).

فجاءت الآية الكريمة بهذا الأمر الإلهي ليردم هذه الفجوة، ويشعر طبقة

المستضعفين بأهميتهم ويزرع الثقة بأنفسهم وأنهم الأقرب ما داموا يريدون وجه الله تعالى مع زجر المتعالين حتى يتواضعوا ويحسّوا بمعاناة غيرهم ويواسوهم ويعطوهم حقوقهم.

وقد دأب قادة الإسلام المعصومون (عليهم السلام) على هذا الأدب الإلهي في حياتهم فكانوا - مع جلالة قدرهم وعلوّ مكانتهم التي لا يضاهيها أحد - يجالسون الفقراء والعبيد ويؤاكلونهم ويدعونهم إلى دورهم.

وبذلك وحّد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الجميع تحت راية الإسلام وصنع من أعراب الجاهلية خير أمة أخرجت للناس ومنحها القوة والاقتدار لتفتح العالم وتبني أرقى حضارة إنسانية.

لما علم أمير المؤمنين (عليه السلام) أن واليه على البصرة عثمان بن حنيف دعي إلى مأدبة للأغنياء ورجال الأعمال كما يسمونهم أسرع في إرسال كتاب له جاء فيه (أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفوّ وغنيهم مدعوّ)[1].

وتنقل الآيات الكريمة مشهداً في يوم القيامة للمفاجأة المذهلة التي يصدم بها المترفون المتعالون حينما يجدون أنفسهم في الجحيم ويجدون من كانوا يصفونهم بالأراذل في أعالي النعيم ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ (ص:٦٢-٦٣).

وتصف الآية التالية للآية محل البحث عاقبة هؤلاء وصورتهم الحقيقية في

(١) نهج البلاغة: قسم الكتب، رقم ٤٥.

الآخرة بعد أن خدعوا بالصورة الدنيوية المزوّقة، لكن الحقيقة أن ما أكلوا من أموال ناس بالباطل سيصير سوائل مذابة فائقة الحرارة تشوي الوجوه عند تقريبها قبل شربها، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩) فالمشروبات المثلّجة التي كانوا يتنعّمون بها في الدنيا على حساب المحرومين أصبحت بهذه الصورة لأنهم بترفهم حرقوا قلوب أولئك المحرومين والمستضعفين.

وبالمقابل يتساءل أصحاب الجنة فيما بينهم وهم يرفلون بأنواع النعم التي وصفتها سورة الصافات ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۞ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (الصافات:٥٤-٥٧) وفي هذا كله تحذير وتنبيه لأهل الغفلة من المترفين.

حل مشكلة القلق والتخبط في الفتن:

٢- دينية وأخلاقية: وهي مشكلة الضياع والقلق وعدم الاستقرار وسط تجاذبات الفتن فتعالج الآية الكريمة هذه المشكلة لترويض النفس حتى تكون مطمئنة ولتطهير القلب حتى يكون سليماً من الرذائل وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن التدبر في سورة الكهف يقي من الفتن ففي مجمع البيان عن أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من قرأها فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة، فإن خرج الدجال في تلك الثمانية الأيام عصمه الله من فتنة الدجال) وروي أيضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستة أيام من كل فتنة

تكون فإن خرج الدجال عصم منه)[1].

فقدّمت السورة عدة عواصم منها ومثبتات على الهدى والاستقامة، منها:

أ- الإخلاص لله تعالى كما في الآية الأخيرة من السورة.

ب- والاهتداء بالقرآن حيث جاء في الآية السابقة ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (الكهف:٢٧).

ج- تحقير الدنيا التي من مساوئها مفارقة الصالحين، والتحذير منها والانخداع بزخارفها التي هي وهمٌ تزول لذّتُه وتبقى تبعته كقوله تعالى في الآية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف:٤٥) فإن (حب الدنيا رأس الفتن وأصل المحن)[2] كما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأن (رأس كل خطيئة حب الدنيا)[3] كما عن الإمام الصادق (عليه السلام).

د- ما في هذه الآية فيكون أحد وسائل الإنقاذ من الفتن والثبات على الاستقامة، مصاحبة الصالحين وملازمة مجالسهم خصوصاً إذا كانوا من العلماء الذين يتحفونك بالنصيحة والإرشاد والهداية وتعليم ما ينفعك في دنياك وآخرتك، روى ابن عباس قال (قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الجلساء خير قال (صلى الله عليه وآله وسلم): من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة

(١) مجمع البيان: ٦/ ١٦٨، الدر المنثور: ٥/ ٣٥٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم- الآمدي: ص٣٤٨/ح٣.

(٣) الكافي للكليني: ٢/ ٣١٥/ح١.

عمله)[1].

والمتأمل في سورة الكهف يجد أنها عرضت أشكالاً من الفتن من خلال قصص أصحابها، فورود الآية ضمن السورة فيه إرشاد لبعض وسائل مواجهتها، وقد ذكرت السورة عدة فتن منها:

١- الفتنة التي عاشها أصحاب الكهف وهي فتنة الدين المزيف الذي يصنعه بعض المتاجرين المتسترين بالدين ويضعون من عندهم طقوس وتعاليم وآلهة تعبد من دون الله تعالى ويستعينون بالدجل والخداع ليصنعوا لهم زعامة على الناس وليتسلّطوا على أموالهم وأعراضهم ويتحالفون مع السلطات الظالمة لترسيخ زعامتهم وفرض نفوذهم واستئصال خصومهم، لكن أصحاب الكهف لم يُغرهم ترف القصور ولم يرعبهم بطش الطواغيت فوقفوا ونطقوا بالحقيقة الكبرى أمام الناس ليزيلوا الغشاوة عن بصائرهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف:١٣-١٤)، وهذا القول الشطط هو علامة من كان أمره فرطاً، وفوجئ أصحاب الكهف ببقاء نفس الثقافة لدى الناس رغم مرور مدة طويلة تبلغ ثلاثمائة عام و تحولهم إلى الإيمان ظاهراً.

حيث اختلفوا فمنهم يريد أن يبني عليهم بنياناً كالمعبد لتنشيط السياحة والحركة التجارية ونحوها من أمور الدنيا، وغفلوا عن الاتعاظ بهذه المعجزة الإلهية ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (الكهف:٢١).

---

(١) امالي الطوسي: ١/ ١٥٧.

٢- فتنة المال من خلال قصة الرجلين الذين رزقهما الله تعالى ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ (الكهف:٣٢) فاغترّ أحدهما وكفر بنعمة الله تعالى وقال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف:٣٤)، بل أعتقد إن إقبال الدنيا عليه والحياة المترفة التي يعيشها دليل على أحقيته وجدارته، وهذا الانحراف في الرؤية يحصل داخل الوسط الديني ويرون إن العامل الرسالي الذي يعاني من الضيق والبلاء ويعيش وسط الفقراء والمحرومين ليس بصاحب حق؟ فيستضعفونهم ويحاصرونهم ويقللون من شأنهم وينفرون الناس منهم، و ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (الكهف:٣٥-٣٦) ولم يستمع إلى وعظ صاحبه فجاءت الضربة القاضية ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٢).

٣- فتنة العلم من خلال قصة موسى (عليه السلام) والعبد الصالح ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:٦٥) فتواضع موسى (عليه السلام) وهو الرسول الكريم من أولي العزم لعلم العبد الصالح ولم يغتر بما عنده، وسعى للاستفادة منه.

٤- فتنة السلطة من خلال قصة ذي القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف:٨٤) فلم يشغله هذا الملك العظيم عن ذكر ربّه ولم ينسبه إلى نفسه، بل يردّد إنه من فضل ربّه والاعتراف بفضله ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ (الكهف:٩٨) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (الكهف:٩٥) واستثمر هذه القوة في تحرير المستضعفين الذين لجأوا إليه لتخليصهم من ظلم وطغيان يأجوج

ومأجوج فكان مثالاً لهؤلاء المحررين وسيدهم أمير المؤمنين لذا ورد في التفسير إنه (عليه السلام) (ذو قرني هذه الأمة)[١] وكان ميزان ذي القرنين في التعامل: التقوى والعمل الصالح ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف:٨٨).

فتكفّلت الآية الكريمة ببيان هذا العلاج مع جملة من العلاجات للخروج من الأزمات ومواجهة الفتن بنجاح.

ولذا حثّت الأحاديث الشريفة على مجالسة العلماء والصالحين والاستفادة منهم روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (ما من مؤمن يقعد ساعة عند العالم إلا ناداه ربّه عز وجل: جلست إلى حبيبي، وعزتي وجلالي لأسكننّك الجنة معه ولا أبالي)[٢]، وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (اجتمعوا وتذاكروا تحفّ بكم الملائكة، رحم الله من أحيا أمرنا)[٣]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (يا خيثمة: اقرئ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم عز وجل، وأن يتلاقوا في بيوتهم فإن لقياهم حياة أمرنا، ثم رفع يده (عليه السلام) فقال: رحم الله أمرؤاً أحيا أمرنا)[٤]، حتى روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (النظر إلى وجه العالم عباده)[٥]، وفسّره الإمام الصادق (عليه السلام) بقوله: (هو العالم الذي إذا نظرت إليه ذكرّك الآخرة، ومن كان خلاف

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٦/ ١٦٢.

(٢) أمالي الصدوق: ٩١/ح٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٣/١٢.

(٤) أمالي الطوسي: ١٣٥/ح٣١.

(٥) بحار الأنوار: ١/ ١٩٥/ ح١٤.

ذلك فالنظر إليه فتنة)[١].

وورد في الأحاديث أن مجالسة العلماء والصالحين من أسباب التوفيق، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لا يستغني المؤمن عن خصلة وبه الحاجة إلى ثلاث خصال: توفيق من الله عز وجل، وواعظ من نفسه، وقبول من ينصحه)[٢] وأن الابتعاد عنهم سبب للخذلان وعدم التوفيق ورد في دعاء أبي حمزة للإمام السجاد (عليه السلام): (أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلِفُ مجالس البطالين فبيني وبينهم خلّيتني).

كما إن هؤلاء الصالحين الذين أمرنا بمجالستهم ليسوا موجودين في المساجد وأماكن الشعائر الدينية فقط، بل يجب أن نعمل لنوجد هذه المجالس المباركة التي تتناول قضايا الدين والمجتمع والوطن والإنسان في الجامعات وفي الأسواق أو البيوت بل حتى في المقاهي والحدائق العامة وأرصفة الطرقات، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا، فإن الحديث جلاء، إنّ القلوب لترين (أي تصدأ) كما يرين السيف وجلاؤها الحديث)[٣] ولم يحدد (صلى الله عليه وآله وسلم) مكاناً محدداً لهذا اللقاء وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما أجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعاتكم

---

(١) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ١/ ٩٢.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢/ ٢٥.

(٣) بحار الانوار: ١/ ٢٠٣.

ومذاكرتكم أحياءُنا وخير الناس مِن بعدنا مَن ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا)[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤).

(١) بحار الانوار: ١/ ٢٠٠.

القبس/١٢٠

سورة الكهف:﴿١٠٩﴾

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾

موضوع القبس: معاني القرآن لا تنتهي

قال تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِـدَاداً لِّكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف:﴿١٠٩﴾).

(المداد) هو الحبر الذي يُمَّد القلم بقابلية الاستمرار على الكتابة و(النفاد) هو الفناء والانتهاء، فمعنى الآية أن البحر لو تحوّل الى مداد وصنعت أشجار الأرض كلها أقلاماً لكتابة كلمات الرب فأن البحر سيفنى قبل ان تنتهي كلمات الرب حتى لو أمددنا هذا البحر ببحر آخر.

والظاهر ان (البحر) و(المثل) هنا أُريد به اسم الجنس وليس الوحدة فالمثال شامل لكل البحار والمحيطات بقرينة قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:﴿٢٧﴾) والسبعة هنا رمز للكثرة وهذا مثال لسعة كلمات الله تعالى إذ ان محبرة صغيرة سعة ٥٠ ميللتر تكفي لكتابة آلاف الكلمات، فكيف لو تحولّت كل البحار والمحيطات التي تغطي ثلاثة ارباع سطح الكرة الأرضية وبعمق يصل أحياناً عدة كيلومترات الى حبر، واشجار الأرض الى أقلام، إنه تصوير رهيب لسعة كلمات الله تبارك وتعالى، مع ان العدد ذكر هنا لتصوير الكثرة بحسب فهم البشر وليس للتحديد.

ولم تتعرض الآيتان لذكر الكاتب او المكتوب عليه لاطلاق الخيال في تصوره وانه حتى لو كان الكاتب الجن والانس أجمعين وكانت الواح الكتاب كل ما يمكن أن يكون كذلك.

وقد يقال ان الآية الثانية لا تصلح للقرينية، لأن الاولى ذكرت كلمات الرب والثانية كلمات الله، والربوبية صفة فعل يمكن ان تكون محدودة بمحدودية المربوب وإن كانت لا تحصى بينما صفات الله تعالى اوسع من صفة الربوبية لانها تشمل صفاته الذاتية والفعلية فهذا وجه زيادة الابحر، ونجيب بأن هذا التفريق لا يضرّ لان صفات الله عين ذاته، ولان عدم النفاد أمر حق بغضّ النظر عن القرينة.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لعدم نفاد الكلمات، فأنه كما لا يغلب في ذاته كذلك لا يغلب في كلماته وحكيم لا يفوّض التدبير الى غيره.

ومن لطائف هذه الآية ورود الشجرة بصيغة المفرد والاقلام بصيغة الجمع وفيه إشارة لكثرة الأقلام المتخذة من شجرة واحدة.

والتعبير بالبحر الدال على الجنس ليشمل كل البحار والمحيطات وانه ذكر إمداد البحار بسبعة أخرى لان الحبر يستهلك اثناء الكتابة ولم يذكر امداداً للأشجار في صنع الأقلام لأنها لا تستهلك بالكتابة.

وهنا قد يثار سؤال بأننا لو حسبنا رياضياً عدد الكلمات التي يمكن كتابتها بهذه الابحر والاقلام لوجدناها تفوق عدد احتمالات ما يمكن انتاجه من ترتيب الحروف المعروفة في اللغة حتى لو لم يوضع بإزائها معنى، فكيف نفهم الآية.

ونذكر في الجواب أكثر من وجه:

الأول:ان الكلمة هي كل ما دّل على معنى وبيّن مراداً سواء كانت مكتوبة أو

موجوداً خارجياً أو حادثة واقعة أو حقيقة علمية فكلمات الله هي كل ما دل على الله تبارك وتعالى، ولذا فهي لا تنتهي، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تـــــدل على أنه واحد[1]

فكلمات الله تعالى هي كل احكامه وقضاياه وسننه وآياته وليس فقط الكلمات المكتوبة، قال تعالى ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾ (يونس:٦٤) وقال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٢٤) وقال تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعام:١١٥) وقال تعالى ﴿وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (التوبة:٤٠) وغيرها بالعشرات.

وإذا كان جانب من آياته لا تُعد ولا تحصى (وهي نعمه) قال تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤) مع انها في نفسها قابلة للعد والاحصاء لأنها محدودة فمن الأولى أن لا تعدّ آيات الله وكلماته، لان نفس اتخاذ الأشجار أقلاماً والبحر مداداً وكتابة الكلمات هي كلمات جديدة وآيات حادثة، فهي سلسلة فوق حد الاحصاء والعد فضلاً عن النفاد كما في الرواية عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث (قلت:قوله عز وجل ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قال (عليه السلام):قد أخبرك ان كلام الله عز وجل ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع أبداً)[2] وإن كان ظاهر قوله تعالى ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ انها قابلة للنفاد.

---

(١) بيت من الشعر منسوب الى أبي العتاهية، أنظر: البداية والنهاية- ابن كثير: ٧٧/١٤، ط. هجر

(٢) تفسير البرهان: ٦/ ١٨٣/ ح١.

وقد استعمل لفظ الكلمة بهذا المعنى في الموجودات العظيمة التي لها أوضح دلالة على الله تعالى كقوله عز وجل ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ (النساء:﴿١٧١﴾).

ووردت روايات عن الكافي ومعاني الاخبار وعلل الشرائع وغيرها في تفسير قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:﴿٣٧﴾) أنه (عليه السلام) (سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم))[1] فهم (عليهم السلام) من أتم كلمات الله تعالى الدالة عليه تبارك وتعالى.

الثاني: ان هذه الكلمات بوجودها اللفظي يمكن ان تنتهي، لكن معانيها والعلوم والمعارف المودعة فيها - حيث اللفظ كالوعاء للمعنى - لا تنتهي فتكون الآية تعبيراً عن سعة علم الله تعالى - بتقدير المضاف - وتدل على ان معاني كلمات الله تعالى لا تنتهي، ولعل الحادثة في سبب نزول الآية تدل على هذا المعنى، فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره (أن اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الروح، فقال (الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا نحن خاصة قال بل الناس عامة قالوا فكيف يجتمع هذان يا محمد تزعم إنك لم تؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتيت القرآن وأوتينا التوراة وقد قرأت (ومن يؤت الحكمة) وهي التوراة (فقد أوتي خيرا كثيرا) فأنزل الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ

(١) الكافي للكليني: ٣٠٤/٨/ ح ٤٧٢، ط، الاسلامية.

اللَّهِ﴾ يقول:علم الله أكثر من ذلك، وما أوتيتم كثير فيكم قليل عند الله)[١].

وتماشياً مع هذا الجواب نقول ان الكلمات المكتوبة في القرآن محدودة ومعدودة لكن المعاني المودعة فيها لا تنفد، فقد أودع الله تعالى هذه المعاني اللامتناهية في كتابه الكريم، ففي أصول الكافي عن الإمام الصادق عن ابائه (عليهم السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث قال عن القرآن (ظاهره انيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه)[٢].

تصوروا أن أمير المؤمنين (عليه السلام) في علمه الذي هو باب[٣] مدينة علم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وان رسول الله (صلى الله عليه وآله) علمه[٤] ألف باب من العلم ينفتح له من كل باب ألف باب من العلم، وانه لو كُشِفَ له الغطاء ما ازداد يقينا[٥] وغير ذلك قيل له:(هل عندكم شيء من الوحي؟ قال:لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن

---

(١) تفسير القمي: ٧/ ١٦٦/ ح٢.

(٢) أصول الكافي: ج٢/ كتاب فضل القرآن، باب١/ ح٢.

(٣) اللئالئ المصنوعة: ج١، ص ٣٢٩. ورواه الحاكم في المستدرك: ج٣، ص١٢٦.

(٤) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب من العلم وتشعب لي من كل باب ألف باب) تفسير الرازي: ٨ / ٢١، عند تفسير قوله ﴿إِنَّ اللَّه اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣) ورواه ابن عساكر في تاريخه كما في ترجمة الإمام علي منه: ٢/ ٤٨٥/ ١٠١٢، والجويني في فرائد السمطين: ١/١٠١/٧٠، والمتقي في كنز العمال: ١٣/ ١١٤/ ٣٦٣٧٢، والحافظ المغربي في فتح الملك العلي: ٤٨٨.

(٥) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) كشف الغمة: ج١ ص١٧٠ في وصف زهده (عليه السلام) في الدنيا.

يعطي الله عبداً فهماً في كتابه)[١].

وعن إبراهيم بن العباس قال:(ما رأيت الرضا (عليه السلام) سئل عن شيء قط إلا علمه ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول الى وقته وعصره وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن)[٢].

أقول: فالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لأهل البيت (عليهم السلام) غنية بالمعاني وعميقة الفهم، وهي متجدّدة ومفتوحة لا تنتهي، وكل جيل من العلماء يأتي يبين شيئاً يسيراً منها وما يخفى عليه أكثر بكثير، ويأتي الجيل الآخر ويغترف منها شيئاً وهكذا من دون أن تنتهي تلك المعاني.

وقد يستغرب البعض كيف يكون لكلام مؤلف من هذه الحروف الثمانية والعشرين في اللغة العربية التي نتداولها يمكن أن تكون لها هذه السعة من المعاني، وهذا الاستغراب منشأه القصور والتقصير في معرفة معاني القرآن الكريم وعدم الالتفات إلى من أودعها في هذه القوالب اللفظية وقدرته وعظمته وعلمه.

واضرب لكم مثالاً قد يعرفه طلبة الحوزة العلمية أكثر من غيرهم وهي ما يعرف بقاعدة الاستصحاب التي هي من أهم الأبحاث المعمّقة في علم الأصول وكتبت فيها مجلدات ولا زال البحث فيها مستمراً والتفريعات تتكثر، واصلها حديث من ثلاث كلمات للمعصوم (عليه السلام) (لا تنقض اليقين بالشك)[٣]، أي إذا

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٣٩.

(٢) عيون اخبار الرضا (عليه السلام): ١/١٩٣/ح٤، وأمالي الصدوق: ٧٥٨ مجلس٩٤/ ح١٠٢٣

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت): ١/ ٢٤٥/ ح١.

كنت على يقين من حالة معينة ككونك على طهارة أو أن زيداً حيّ، فتبني على هذا اليقين بالطهارة وحياة زيد وترتّب آثاره حتى لو حصل لك شك فيها ولا تنقض حالة اليقين إلا بيقين مثله، هذه الكلمات أصبحت محوراً لإبحاث معمّقة تملأ مجلدات ولازال البحث فيها مفتوحاً، فإذا كانت ثلاث كلمات في علم ظاهري تفتح هذه الآفاق الواسعة للبحث، فماذا سينفتح من علوم ومعارف إلهية من كلمات القرآن الكريم وانى للبشر استيعابها وبلوغ كنهها؟

لذلك تجد العلماء لا يتوقفون عن التدبر في آيات القرآن الكريم واكتشاف ما يهتدون إليه من معانيها وإيداعها في التفاسير، ومع ذلك لا زالت حقائقه كثيرة خافية على العلماء فضلاً عن غيرهم، وحكي عن السيد الطباطبائي (قُدِّسَ سِرُّهُ) صاحب تفسير الميزان قوله اننا نحتاج في كل سنتين إلى تفسير، وقد أنهى (قُدِّسَ سِرُّهُ) تفسيره في عشرين عاماً فهذا يعني أن محاولات التفسير لابد أن تكون متعدّدة ومتواصلة في الجيل الواحد فضلاً عن الأجيال المتتالية.

إننا نشهد في هذا العصر نهضة قرآنية محمودة ونسأل الله تعالى ان يوسّعها ويزيدها، لكنها غالباً تقتصر على التجويد وتحسين الصوت ومخارج الحروف والنغمات ونحوها، وهذا شيء جيدٌ في نفسه لأن حلية القرآن الصوت الحسن، ونشجّع عليه لانه يحّبب القرآن الى النفوس ويحصل انس به لكن الاقتصار عليه والوقوف عنده من دون الانطلاق إلى فهم معاني القرآن الكريم واكتشاف أسراره ومعرفة حدوده يكون خطوة ناقصة نحو الكمال المنشود، بل لابد أن يدفع الانس بالقرآن والتلذذ باستماعه الى حب التعرف على معارفه واسراره ومكنوناته ولتحقيق ذلك ينبغي نشر المؤسسات والمدارس والمراكز القرآنية لتقود هذه

النهضة المباركة بأذن الله تعالى.

روى السيد الحكيم (قدس سره) في كتابه حقائق الأصول حادثة تحكي جانباً مما يلطف به الله تعالى بعض عباده من سعة الفهم لمعاني القرآن الكريم، قال (قدس سره) تحت عنوان (فائدة) ألحقها ببحث استعمال اللفظ في أكثر من معنى (حدَّث بعض الاعاظم دام تأييده – أنه حضر يوماً منزل الآخوند (ملا فتح علي[1] (قدس سره) مع جماعة من الاعيان منهم السيد إسماعيل الصدر (قدس سره) والحاج الميرزا حسين نوري صاحب المستدرك (قدس سره) والسيد حسن الصدر (قدس سره) فتلا الآخوند (قدس سره) قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ (الحجرات:٧) ثم شرع في تفسير قوله تعالى فيها: حبب اليكم الايمان من الآية وبعد بيان طويل فسرها بمعنى لما سمعوه منه استوضحوه واستغربوا من عدم انتقالهم اليه قبل بيانه لهم، فحضروا عنده في اليوم الثاني ففسرها بمعنى آخر غير الأول فاستوضحوه أيضا وتعجبوا من عدم انتقالهم اليه قبل بيانه، ثم حضروا عنده في اليوم الثالث فكان مثل ما كان في اليومين الأولين ولم يزالوا على هذه الحال كلما حضروا عنده يوما ذكر لهم معنى

(١) الظاهر بملاحظة القرائن انه الشيخ المولى علي محمد النجف آبادي من اعاظم العلماء له ترجمة في كتاب (نقباء البشر: ١٦/ ١٦٢٢)، لازم المجدد السيد الشيرازي في النجف وسامراء واختص لاحقاً بالمعقول والحكمة الإلهية وصفه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء – وهو من تلاميذه – بانه (اعلى من حضرت عليه في الحكمة والعرفان العارف الإلهي الذي كان من اكابر أساتذة الحكمة والعرفان وكان درسه في الاسفار ولكنه يتفّجر بينابيع الحكمة) (عقود حياتي: ٥٩) توفي سنة ١٣٣٢هـ وصلى عليه السيد أحمد الكربلائي أستاذ السيد علي القاضي (رحمه الله)

الى ما يقرب من ثلاثين يوماً فذكر لهم ما يقرب من ثلاثين معنى وكلما سمعوا منه معنى استوضحوه، وقد نقل الثقات لهذا المفسر كرامات قدس الله روحه)[1].

أقول:هذا غير مستغرب من أمثاله (قُدِّسَ سِرُّهُ) فانه كان من العارفين وأهل الصفاء والطهارة وإن من ثمرات سلوك طريق تهذيب النفس وتطهير القلب فهم معاني متعددة لآيات القرآن الكريم والروايات الشريفة كما افاد استاذنا الشهيد السيد محمد الصدر (قُدِّسَ سِرُّهُ) في احدى رسائله التي نشرتها في كتاب (قناديل العارفين).

(١) حقائق الأصول: ١/ ٩٥-٩٦.

القبس/١٢١

سورة مريم:﴿١٦﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾

موضوع القبس: مريم الصدّيقة الطاهرة برؤية قرآنية

أمر متوجّه من الله تعالى إلى رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) ان يذكر مريم ونبأها في القرآن الذي هو كلامه تبارك وتعالى، وهي المرأة الوحيدة التي ذُكرت باسمها صريحاً في القرآن تكريماً لها وتشريفاً ولتبقى هذه الآيات الكريمات وثيقة تثبت طهارتها وعفّتها وسمّو مقامها وبرائتها مما اتهمها به قومها من بني إسرائيل.

إنها مريم ابنة عمران من فضليات النساء عبر التاريخ ففي الحديث الشريف الذي رواه الشيخ الصدوق بسنده عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:(أفضل نساء أهل الجنة أربع خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون)[١].

وهذا مع تفاضلهن فيما بيّنهن أيضاً، فقد روى في الدر المنثور عن فاطمة الزهراء (عليها السلام) أنها قالت (قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنت سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول)[٢].

وقد ضربها الله تعالى هي وامرأة فرعون مثلاً سامياً للذين آمنوا جميعاً من الرجال والنساء على طول الأجيال البشرية ليتأسوا بها ويعتبروا بسيرتها قال

(١) الخصال: ١٥١، أبواب الأربعة/ ح٢٢/ ٢٣.

(٢) الدر المنثور: ٢٣/٢.

تعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ (التحريم:١١) ثم قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم:١٢) فكان عندها الاستعداد لتلقي الفيض الإلهي وأن ينفخ الله تعالى فيها من روحه جزاء لعفّتها وإحصانها في أعلى مراتبه بقرينة فاء التفريع (فنفخنا)، وجعلها تعالى وعاءاً لحمل وانجاب واحد من أعظم الأنبياء والرسل ومن اولي العزم عيسى ابن مريم (صلوات الله وسلامه عليه).

طهرها الله تعالى ونقاها من كل سوء واصطفاها على نساء العالمين أي انتخبها من نساء العالمين لتكون الأصفى والأنقى من كل نقص وشين قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ۞ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران:٤٢-٤٣) ويذّكر النبي الكريم عيسى (عليه السلام) بهذه النعمة عليه وعلى والدته ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة:١١٠).

هكذا هي مريم عظيمة المنزلة جليلة القدر سامية المكانة عند الله تعالى في جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها وقد ذكرت باسمها الصريح في (٣٤) موضعاً منتشرة في ١٢ سورة من سور القرآن وبغير الصريح في غيرها، بينما ورد ذكرها في خمسة[1] مواضع من الانجيل بصور تحطّ من كرامتها وقدسيتها.

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ١٨/ ٢٠٥.

واذا أردنا ان نستقرئ الآيات الكريمة لنكتشف العوامل التي صنعت هذه الشخصية الفذة في ضوء الكلمة المختصرة التي قالها الإمام الجواد (عليه السلام) (المؤمن يحتاج الى توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه)[1] فسنجد ما يلي:

١- الأسرة الكريمة والمنبت الطاهر قال تعالى ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران:٣٧) كما في قوله تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (الأعراف:٥٨) فالأصل الطيب يساعد على صناعة الانسان الطيب بإذن الله تعالى، وهذا ما شهد به الجميع بقولهم ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم:٢٨) وكان ابوها عمران صالحاً معلماً لمعارف التوحيد في المعبد وفي رواية ابي بصير عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه (كان نبياً مرسلاً إلى قومه)[2] لذا لما نُذرِت ابنته مريم للمعبد وكان قد توفي وهي حمل تنافس بعض انبياء بني إسرائيل الموجودين يومئذٍ وأحبار المعبد على كفالتها ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران:٤٤).

وكانت أمها صالحة ومن اسرة كريمة واختها زوجة نبي الله زكريا (عليه السلام) وكانت عارفة مخلصة لله تعالى وهذا واضح من تسمية ابنتها مريم التي قيل أنها تعني العابدة وقيل انها ((لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة، ولعلَّها لأنها غلبت

(١) تحف العقول: ٣٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٠٢/ ح١٤.

شهوتها وأحصنت فرجها رغم جمالها وكثرة الراغبين إليها، وارتفعت عما افتروا عليها وعن اقرانها من نساء العالمين))[١] وارتفعت عن كل رجس ودنس ونقص.

وتظهر معرفتها بالله تعالى من خلال ادعيتها ونذرها ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران:٣٥) والتقبّل ليس كالقبول بل هو تمام القبول وأحسنه قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧).

وفي الرواية (إن الله تعالى أوحى إلى عمران:أني واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمة والأبرص ويحي الموتى بإذني وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل فحدّث امرأته حنّة بذلك وهي أم مريم فلما حملت به كان حملها عند نفسها غلاماً ذكراً)[٢] فنذرته لخدمة الدين والمسجد والتفرغ لعبادة الله تعالى ((ومالم يحرّر الانسان نفسه من القيود فإنه لن يكون قادراً على خدمة الدين، فالشيء الذي لم يتحرّر من قيود الملكية كلها لن يكون متصفاً بقيد (الوقف)))[٣].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ورأتها انثى خلاف ما كانت ترجو وكانت خدمة المعبد وظيفة مقتصرة على الذكور وممنوعة على الاناث ﴿قَالَتْ﴾ بحسرة وأسف ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ فالأنثى لا يتسنى لها التحرر لخدمة المعبد واثير هنا إشكال بأن مقتضى الاستعمال اللغوي أن

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ١٨/ ٢٠٥.

(٢) رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في الكافي للشيخ الكليني: ٥٣٥/١ح١. ط الاسلامية،

(٣) تفسير تسنيم للشيخ الجوادي الآملي: ١٤/ ١٢٥.

يقال (وليست الأنثى كالذكر) أي ان ما وضعت - وهي انثى- ليست كما كنت أرجو لخدمة المعبد بأن يكون المولود ذكراً فالتشبيه معكوس، ولهذا قال أكثر المفسرين ان هذا من كلام أم مريم ليمكن الاشكال عليه وساعدهم على ذلك ظهور السياق في كونه من مقولة قولها وأجابوا على الاشكال بعدة أجوبة ككون المراد أصل المقايسة وليس التفضيل وفي رواية حريز عن أحدهما (عليهما السلام) (وليس الذكر كالأنثى في الخدمة)[1].

لكن صاحب الميزان والكشاف قالا انه من مقول قول الله تبارك وتعالى ولا ضير في نسبته اليه تعالى وحاصل جواب الميزان بأن الحكمة الإلهية شاءت أن يجري الأمر على هذا بأن تكون المولودة انثى وهي مريم ثم تلد مريم الذكر الموعود وهو عيسى (عليه السلام) بتلك الآيات الباهرات التي رافقت الحمل والولادة ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:٩١) وسيتبيّن لكم أنّ الذكر الذي كنتم ترجونه ليس كالأنثى التي قدرها الله تعالى ولو كان المولود لأم مريم ذكراً بالمباشرة وإن كان بمواصفات عيسى (عليه السلام) فان ولادته سوف لا تقترن بتلك المعجزات والحجج البيّنة، وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ من مقول قول الله تعالى كالفقرة قبلها وليس حكاية لقول أم مريم[2] الذي هو أظهر من السياق وتؤيده الروايات[3]، لكن الوجه الأول أفضل لدفع الاشكال.

---

(١) تفسير العياشي:١/١٧٠ - بحار الأنوار: ٥/ ٣١٩.

(٢) استفدنا الوجه من كلام السيد الطباطبائي (قدس سره) في الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ١٩٩.

(٣) تفسير القمي: ١/ ١٠٩.

ويمكن أن نقدّم معنى آخر بناء على كون الفقرة من مقول قول الله تعالى حاصلهُ إن ما كنت ترجين من الذكر بأن يكون محرراً خادماً للمعبد لا يصل الى مقام هذه الأنثى والمعجزات والآيات التي ستجري لها فتكون اللام هنا عهدية.

وبذلك يرتفع الاشكال اللغوي ولا نحتاج الى ما قيل من أجوبة كقول بعض المفسّرين بأن ذهول أم مريم والمفاجأة الحزينة التي واجهتها جعلتها لا تعي ما تقول.

ونستمر مع أم مريم وقولها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران:٣٦) لتكون مخلصة لك ليس للشيطان مطمع في إضلالها أو اغوائها، لتكون اسماً مطابقاً للمسمى، وشملت بدعائها ذرية مريم لأنها علمت أن الولد المبارك الموعود منها بعد ان توفي زوجها ووفت بنذرها وغالبت كل عواطف الأمومة وبعثت ابنتها الوحيدة إلى المعبد خالصة لله تعالى متفرغة لعبادته وهي المفجوعة تواً بوفاة زوجها عمران[1].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران:٣٧) واستجاب الله تعالى دعاء الأم فتقبّل الله تعالى مريم محرّرة خالصة له تعالى وهو معنى اصطفائها واعطاها وذريتها الكمال والنقاء والحصانة من وساوس الشيطان فتحققت لمريم صفتا الاصطفاء والطهارة اللتان بشرتها الملائكة بهما ﴿وَإِذْ قَالَتِ

(١) الظاهر وفاة عمران خلال حمل زوجته لأنه من البعيد أن تستقل بالنذر مع وجود زوجها، ولعدم ورود أي ذكر له في احداث الولادة وما بعدها من الكفالة والنذر للمعبد.

الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ (آل عمران:﴿٤٢﴾) وهكذا الأعمال الصالحة المخلصة تحظى بالجزاء الحسن.

٢- المربّي الناصح المخلص العارف وقد حظيت مريم برعاية مباشرة وباهتمام خاص من نبي الله زكريا (عليه السلام) واحاطها الله تعالى بعناية عظيمة وربّاها تربية حسنة وأفاض عليها ألطافاً من عالم الغيب وأغدق أرزاقاً مادية ومعنوية وجعل قرعة كفالتها تحطّ عند زكريا (عليه السلام) ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:﴿٣٧﴾) فهذا الرزق المطلق مادياً ومعنوياً كان من ثمرات العمل المخلص ومن مظاهر الانبات الحسن.

٣- توفر البيئة المناسبة والمساعدة على الصلاح فقد قالت أم مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ (آل عمران:﴿٣٥﴾) و (المحرر للمسجد يدخله ثم لا يخرج منه أبدا)[١] فيتحرر من أي مسؤوليات عائلية أو اجتماعية تجاه والديه وغيره، ومما تتطلبه معاشرة الناس من مساوئ وأذى، وقد تفرغت مريم للعبادة في محرابها وهو المكان المخصوص للعبادة في المسجد أو البيت وسمي[٢] بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى ويكون الانسان فيه حريباً أي سليباً من اشغال الدنيا وتوزع الخاطر ويكون في صدر المسجد والبيت وانزوت في مكان لا يعبأ به ولا يلفت الأنظار بقرينة التعبير القرآني ﴿فَانتَبَذَتْ﴾ والنبذ هو القاء الشيء وطرحه

(١) في حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) رواه في الكافي: ٣/ ١٠٥/ ح٤.

(٢) مفردات غريب القرآن- الأصفهانى: ١١٢.

لقلة الاعتداد به، ولم تكتفِ بذلك بل ضربت دونهم حجاباً، واعتزلت الناس المنهمكين في الدنيا واتباع الشهوات والمخدوعين بوساوس الشيطان الماكرة وإن رفعوا شعارات الدين أحياناً وكانوا من سدنة المعبد ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ (مريم:١٦-١٧).

٤- الوازع الداخلي والإرادة الجدية لفعل الخير وسلوك طريق الصلاح والعزم الراسخ على الالتزام به مهما تعاظمت الضغوط النفسية والاجتماعية ومهما تزينت الاغراءات. وقد التزمت مريم الصدّيقة بدقة تعاليم الأنبياء في التوحيد والعمل الصالح والسلوك العفيف حتى أثنى عليها تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم:١٢) وأشاد بصفات خاصة منها وهي العفاف ونقاء النفس وطهارة القلب والتعلق الخالص بالله تعالى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (المائدة:٧٥).

فاستحقت التكريم الإلهي بالاصطفاء والتفضيل والتطهير من كل الارجاس الظاهرية والباطنية قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ۞ يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران:٤٢-٤٣).

وكرمّها أيضاً بحمل الرسول العظيم عيسى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران:٤٥) بمعجزة لم تتكرر عبر التاريخ البشري

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَـرْيَمَ رَسُـولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَـا إِلَى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء:﴿١٧١﴾) ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّـلَ لَهَـا بَشَرًا سَـوِيًّا﴾ (مريم:﴿١٧﴾) وكان رد فعلها المباشر وقد فاجأها بشر سوي جميل في عزلتها وهي العفيفة الطاهرة الالتجاء الى الله تعالى والاستعاذة به مع تمام حسن الظن به أنه لا يدعها لأنه (الرحمن) وتذكير المتمثل بتقوى الرحمن التي هي صفة لا يمكن لأحد أن يرفضها عن نفسه ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنـكَ إِن كُنـتَ تَقِيًّـا﴾ (مريم:﴿١٨﴾) ولولا كمال معرفتها ونفوذ بصيرتها ونقاء سريرتها وطهارة قلبها لما كانت أهلاً لتمثل روح الله تعالى لها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَـا فَنَفَخْنَـا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَـا﴾ (التحريم:﴿١٢﴾) فألقى الله تعالى في رحمها بواسطة الروح الأمين ما تخلّقت منه نطفة النبي الكريم عيسى (عليه السلام) ((وهذا يكشف عن كمال الاستعداد الذاتي ووجود السنخية التامة بينها وبين الروح اللاهوتي حتى تتمكن من مقابلته وقبوله وحمله والتسليم لديه والعمل بالوظائف الخاصة))[1] لتكون معجزة[2] إلهية للوالدة والمولود لم تتكرر نسختها في جميع الأجيال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِـن رُّوحِنَـا وَجَعَلْنَاهَـا وَابْنَهَـا آيَـةً لِّلْعَـالَمِينَ﴾ (الأنبياء:﴿٩١﴾) ﴿وَجَعَلْنَـا ابْـنَ مَـرْيَمَ وَأُمَّـهُ آيَـةً﴾ ﴿المؤمنون:﴿٥٠﴾).

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي: ١١/ ٩٦.

(٢) لا تخلو الآية من إشارة الى إمكان قيام غير الحيامن بدور التلقيح للبيضة والمهم في تكوّن الجنين وجود بيضة الأنثى، وبعض المصادر الطبية ما يشير الى وجود تجارب في هذا المجال.

فبشرها الله تعالى بالمولود المبارك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ (مريم:١٩) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران:٤٥) وكان وقع هذه البشارة عظيماً على نفسها لكن الأمر خطير إذ كيف تحمل المرأة من دون مقاربة الرجل ومريم لم يمسَّها رجل بالحلال ولا بالحرام ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (مريم:٢٠) فاستشعرت عظمة الابتلاء لأن قومها سوف يتهمونها في اعزّ شيء عندها: شرفها وعفافها وطهارتها مع صعوبة ظروف الحمل والولادة حيث كانت وحيدة في مكانٍ نائي كالصحراء ليس فيه ماء ولا طعام والمرأة تحتاج حين الولادة إلى رعاية خاصة وحضور القابلة وغير ذلك ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۞ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم:٢٢-٢٣) فهو جذع مقطوع يابس لا ثمرة فيه وتحت وطأة هذه الظروف القاهرة التي لا يطيقها إنسان ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1] (مريم:٢٣) قالت ذلك مع كمال التسليم لأمر الله تعالى وهذا أحد شواهد ما كانت عليه من مقام التصديق بكلمات ربها نظير ما ورد في ابراهيم ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة:١٢٤) وطمأنها الله تعالى وربط على قلبها ﴿قَالَ

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ١٨/ ٢٠٦.

كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:٢١).

وأراها معجزة لتطمئن نفسها فنبعت عين ماء عند قدميها ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم:٢٤) والسري هو جدول الماء لتشرب منه، وناداها أيضاً ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم:٢٥) الجَذع تعني القطع فالجِذع هو المقطوع وفيه إشارة الى كونه يابساً لا ثمرة فيه فلما هزّته تساقط منه رطب طري طيب[1]، ضرب لها بهذا الجذع الذي أثمر بعد أن كان ميتاً مثلاً لحالتها فهي امرأة لا زوج لها ولا تفعل الفاحشة فمثلها يستحيل عليها الحمل لكن الله تعالى هزّها بنفخة الروح فحملت بالثمرة المباركة روح الله وكلمته عيسى (عليه السلام) فتحققت لها البشرى واكتملت بما يسَّر لها من الطعام والشراب ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم:٢٦) وكان حملها (بعيسى بالليل ووضعته بالغداة وكان حملها تسع ساعات من النهار جعل الله لها الشهور ساعات) وفي روايات أخرى ذكرت غير هذه المدة.

(ففقدوها في المحراب فخرجوا في طلبها)[2]، ولما جاءتهم بالوليد المبارك حدث ما هو متوقع من لئام الناس ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١٥٦) ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم:٢٧) واتهموها

---

(١) تكررت مثل هذه المعجزة للأئمة الطاهرين كالإمام الحسن والإمام الباقر (عليهما السلام) (راجع روايات في تفسير نور الثقلين:٣/٣٣١/ ح٥٥).

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي: ٢/٤٩.

بممارسة الفاحشة وهنا تدخلت القدرة الربانية لتنطق الوليد المبارك بكلمات ادهشت الحسّاد والمعاندين وأخزتهم ونصرت العفيفة الطاهرة.

فنحن - المسلمين- نقدّس مريم ونعظمها لهذه المنزلة التي بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم، ونرتبط - نحن اتباع أهل البيت (عليهم السلام)- بولدها روح الله وكلمته عيسى (صلوات الله وسلامه عليه) بأن لنا أملاً كبيراً فيه لأنه سيظهر مع المخلِّص العظيم الإمام المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لينقذا البشرية من الضياع والضلال والشرور والآثام.

ملحق: مقارنة بين الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) والسيدة مريم إبنت عمران

لنا -اتباع أهل البيت (عليهم السلام)- علاقة وجدانية خاصة بالصدّيقة الطاهرة مريم بنت عمران لأنها شابهت السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في الكثير من الصفات مع حفظ التقدم للسيدة الزهراء (عليها السلام) في تلك الصفات.

فقد اقتبست من أنوار سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) فكانت تتلألأ نوراً في محرابها وفي الرواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) (وكانت أجمل النساء، فكانت تصلي ويضيء المحراب لنورها)[1].

وكانت مريم محدّثة - وهو من أسماء السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) - تحدّثها الملائكة كما أخبر به الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:﴿٤٢﴾) ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ (مريم:﴿١٧﴾) وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال (انما سميت فاطمة (عليها السلام) محدثة لان الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادى مريم بنت عمران، فتقول يا فاطمة ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا فاطمة اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين، فتحدثهم ويحدثونها، فقالت لهم ذات ليلة: أليست المفضلة على نساء العالمين مريم بنت

(١) تفسير العياشي: ١٧٠/١، علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ١٨٠/١ح٢.

عمران؟ فقالوا: ان مريم كانت سيدة نساء عالمها، وان الله عزوجل جعلك سيدة نساء عالمك وعالمها، وسيدة نساء الاولين والآخرين)[١].

وفي صفة التطهير فقد قال تعالى في مريم (وطهّرك) وأنزل في أهل البيت (عليهم السلام) آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وفي الاصطفاء والسيادة فقد جعل مريم سيدة نساء العالمين وكانت فاطمة (عليها السلام) كذلك والفرق ما ذكرته الرواية عن المفضل بن عمر قال (قلت لأبي عبدالله – الصادق – (عليه السلام) أخبرني عن قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) في فاطمة أنها سيدة نساء العالمين أهي سيدة نساء عالمها؟ قال: ذاك لمريم كانت سيدة نساء عالمها وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين)[٢]، واذا تمسكت باطلاق قوله تعالى: ﴿عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ فلا تختص بزمانها كما في الميزان قلنا نعم لكنه اصطفاء خاص بآيات محددة كالتي رافقت حملها وولادتها بينما اصطفاء فاطمة الزهراء (عليها السلام) مطلق وهو وجه الفرق بين الاصطفاء المتعدي بـ(على) كما في مريم والاصطفاء المطلق و((ان الاصطفاء المتعدي بـ(على) يفيد معنى التقدم، وانه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفاؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن))، فتقديم مريم كان من بعض الجهات ((حيث لم

(١) علل الشرائع: ١/ ٢١٦ – تفسير نور الثقلين: ٣٣٧/١.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ١٠٧/ ح١، الأمالي: ٥٧٤/ ح١٨.

تشمل مما تختص بها من بين النساء الا على شأنها العجيب في ولادة المسيح (عليه السلام) أن هذا هو وجه اصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين))[1].

وفي إنجاب المعصومين الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) فقد اعاذهم الله تعالى من الشيطان الرجيم، ففي حديث لأمير المؤمنين (عليه السلام) في حدث تزويجه بفاطمة (عليها السلام) ودعاء النبي (صلى الله عليه وآله) لهما وقال (قم بسم الله وقل: على بركة الله، وما شاء الله، لا قوة الا بالله، توكّلت على الله، ثم جاءني حين اقعدني عندها ثم قال: اللهم إنهما أحبّ خلقك إليَّ فأحبهما، وبارك في ذريتهما واجعل عليهما منك حافظاً، وإني اعيذهما وذريتهما بك من الشيطان الرجيم)[2].

وفي الرزق الذي يأتيها في المحراب من عند الله تعالى ففي رواية عن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان في طعام وجده النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه في دار فاطمة ولم يكونوا يعرفوه من قبل إلى ان قال (وقام النبي (صلى الله عليه وآله) حتى دخل على فاطمة (عليها السلام) وقال (وأنى لك هذا يا فاطمة؟) فردّت عليه ونحن نسمع قولهما فقالت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فخرج النبي (صلى الله عليه وآله) مستعبراً وهو يقول (الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت لأبنتي ما رأى زكريا لمريم كان اذا دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا فيقول: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧))[3].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ٢١٨.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٤٠، تفسير نور الثقلين: ١/ ٣٣٣.

(٣) آمالي الشيخ الطوسي: ٦١٤/ح ١٢٧١.

ويعجبني نقل هذه الأبيات في المقارنة بين بعض حالات الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام) والصدّيقة مريم:

إن قِيلَ حَوّا قُلتَ فاطمُ فَخرُها ... أوقيلَ مريمُ قلتُ فاطمُ أفضلُ
أفهلْ لمريم والدٌ كمحمدٍ ... أم هَلْ لمريمَ مثلُ فاطمَ أشبلُ
كلٌ لها عندَ الولادةِ حالةٌ ... فيها عقولُ بني البصائرِ تذهَلُ
هذي لنخلتِها التَجَتْ فَتَساقَطَتْ ... رُطَباً جَنياً فهي منه تأكُلُ
ولدت بعيسى وهي غيرُ مروعةٍ ... أنَّى وحارسُها السّري الأبسلُ
وإلى الجدارِ وصفحةِ البابِ التَجت ... بنتُ النَّبي فأسقَطَتْ ما تَحمِلُ
سَقَطت وأسقَطَتِ الجنينَ وحولَها ... من كلِّ ذي حسبٍ لئيمٍ جَحفلُ
هذا يعنفها وذاكَ يدُعُّها ... ويردها هذا وهذا يركُلُ
وأمامَها أسدُ الأسودِ يقودُهُ ... بالحبل قنفذ هل كهذا معضَلُ
ولسوفَ تأتي في القيامةِ فاطمٌ ... تشكوا إلى ربِّ السماء وتعولُ
ولَترفَعَنَّ جنينَها وحنينَها ... بشكايةٍ منها السماءُ تَتَزلزَلُ[1]

(١) ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير: ١٢٨.

القبس/١٢٢

سورة مريم: ﴿١٧﴾

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾

موضوع القبس: السيدة الزهراء (عليها السلام): المثل الأعلى للعفاف

صورة سامية يرسمها القرآن الكريم لعفاف الصديقة مريم بنت عمران (عليها السلام) فإنها لم تكتفِ بحجابها الشخصي وإنما اتخذت إجرائين آخرين لتحقيق المزيد من الصون والعفاف:

١- أنها اتخذت مكاناً منعزلاً بعيداً عن الاحتكاك مع الناس ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً[1]﴾ (مريم:١٦)، ولعل هذا المكان الشرقي -كما في الميزان- هو المحراب المخصوص للعبادة الذي ذكرته الآية الكريمة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ (آل عمران:٣٧).

٢- أسدلت دونها حجاباً ساتراً حتى لا ترى معالمها أو حركاتها وإن كانت محجّبة، ولتتفرغ لعبادة ربها وتنقطع عن كل ما يشغلها عنها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾، ولكي تسلم عبادتها من الرياء إذا اطمأنت لعدم الناظر إليها، ولكي لا تعطي فرصة النظر المجاني إليها من قبل الرجال الأجانب.

---

(١) اتخاذها مكاناً شرقياً لعله لارتباط أوقات الصلاة بالشمس من حين الفجر والشروق إلى غروب الشمس الذي يستدل عليه بذهاب الحمرة المشرقية بناءً على ما في شريعة الإسلام.

هذا العفاف وهذا الاحتجاب عما سوى الله تبارك وتعالى الذي تميزت به مريم (عليها السلام) جعلها محل ثناء الله تبارك وتعالى في أكثر من موضع وعبّر عنها بأنها ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (الأنبياء:٩١) واستحقت لقب صديّقة ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (المائدة:٧٥) وهي صيغة مبالغة من الصدق حيث يتطابق القول والفعل، وبذلك كانت أهلاً للفيض الإلهي، واستحقت أن يهبها الرسول العظيم عيسى (عليه السلام) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم:١٢).

هذه هي مريم الصديقة في عفافها فأين نساء النصارى منها؟ وبماذا يواجِهْنها يوم القيامة حينما يدّعين الانتساب إليها وقد أغراهن الشيطان بإظهار كل مفاتنهن أمام الملأ وارتكبن أفحش المحرمات، ففقدن قيمة الكرامة والسمو والرفعة والطهر والنقاء وأصبحن مبتذلات وسلعاً تجارية، روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قوله: (يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها فتقول: يا ربِّ حَسَّنتَ خلقي - أي جعلتني جميلة حسناء- حتى لقيت ما لقيت - من الافتتان والانحراف بسبب ذلك فأنا معذورة-، فيجاء بمريم (عليها السلام) فيقال: أنت أحسن أو هذه؟ قد حسّناها فلم تُفتَتن، ويُجاء بالرجل الحسَن الذي قد افتتن في حسنه فيقول: يا رَبّ حَسّنتَ خَلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت فيجاء بيوسف (عليه السلام) فيقال: أنت أحسن أو هذا؟ قد حسناه فلم يفتتن)[1].

وضربت لنا السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) المثل الأعلى للعفاف،

(١) مرآة العقول- للعلامة المجلسي: ٢ ١٦٢/٦، شرح أصول الكافي: ١٢/ ٣٠٦.

ومن صور سلوكها (عليها السلام) عندما حتّم عليها الواجب أن تخرج إلى مسجد أبيها (صلى الله عليه وآله) لتردع المنقلبين عن غيّهم، وتعيد الحق إلى أهله، وتثير في أصحاب أبيها (صلى الله عليه وآله) حميّة الدين، تقول الرواية (لاثت خمارها على رأسها - أي لفّته بالمقنعة وغطّته- واشتملت بجلبابها - أي أحاطت نفسها به- وأقبلت في لُمّةٍ من حفدتها - أي جماعة من مريداتها والمواليات لها- ونساء قومها تطأ ذيولها، ونيطت دونها مُلاءة)[1].

فلم يشغلها هول المصاب عن مراعاة العفاف الكامل، ولم تكتفي (سلام الله عليها) بالملابس الساترة لبدنها والطويلة التي تغطّي قدميها وتخطّ بالأرض حتى إنها (عليها السلام) تطأها عند السير، وإنما اتخذت أكثر من إجراء:

١- مضت في جمع من النساء حتى لا تتميز معالمها حين تكون بينهن.

٢- ضربت حجاباً دون الرجال حتى لا يرى شخصها.

وكما أن الله تعالى كافأ مريم (عليها السلام) على عفافها الكامل بأن وهبها روح الله وكلمته، فإنه تبارك وتعالى كافأ السيدة الزهراء (عليها السلام) بأن وهبها ذرية معصومة جعلهم أئمة للخلق أجمعين، قال النبي (صلى الله عليه وآله) مستعملاً نفس التعبير القرآني: (إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار)[2]؛ لأنهم معصومون سلام الله عليهم.

ومن صور عفافها ما رواه الإمام السجاد (عليه السلام) قال: (أن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، استأذن عليها أعمى فحجبته، فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله): لم حجبتِه

(١) الاحتجاج: ١/ ١٣٢.

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٠٧.

وهو لا يراك؟ فقالت: يا رسول الله، إن لم يكن يراني فأنا أراه، وهو يشم الريح، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أشهد أنكِ بضعة مني)[١].

وكان أهم طلب عندها أن تُكفى مؤونة الخروج من البيت بما يتطلبه من ظهور شخصها أمام الرجال الأجانب، هذا النهج الذي عبّرت عنه بقولها (عليها السلام): (خير للنساء أن لا يرين الرجال، ولا يراهن الرجال)[٢]، وهو منهج القرآن الكريم الذي اختصره بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب:٣٣).

روي عن أبي عبد الله، عن أبيه (عليهما السلام) قال: (تقاضى علي وفاطمة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الخدمة، فقضى على فاطمة بخدمة ما دون الباب، وقضى على علي بما خلفه، قال: فقالت فاطمة: فلا يعلم ما داخلني من السرور إلا الله؛ بإكفائي رسول الله (صلى الله عليه وآله) تحمّل رقاب الرجال)[٣].

ولكمال عفافها فقد كان بالها مشغولاً بما بعد الموت حيث تعارفوا يومئذٍ على تشييع الجنازة بوضعها ظاهرة حيث ترى معالم الميت الخارجية من وراء الكفن، (قالت لأسماء بنت عميس: اصنعي لي نعشاً يواري جسدي، فإني قد ذهب لحمي - وهكذا صنعت الأحزان والآلام بها-، فقالت لها: يا بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألا أريك شيئاً يُصنع في أرض الحبشة، قالت فاطمة: بلى، فصنعت لها مقدار ذراع من جرايد النخل، وطرحت فوق النعش ثوباً فغطّاه، فقالت فاطمة

(١) مستدرك الوسائل: ١٤/ ٢٨٩.

(٢) بحار الأنوار: ٤٣/ ٥٤.

(٣) بحار الأنوار: ٤٣/ ٨١.

(عليها السلام): سترتيني سترك الله من النار)[1].

فالمطلوب إذن ليس فقط ارتداء الحجاب الشخصي الكامل وإنما الالتزام بكل ما يتطلبه العفاف والحياء من إجراءات وتجنّب كل حركة أو حالة أو كلام أو مظهر ينافي السلوك العفيف، أي توفير بيئة وظروف العفاف أيضاً، وعلى الرجال مساعدة النساء في تحقيق هذه الحالة السامية صوناً لهم ولهن ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب:٥٣) ونحو ذلك من الإجراءات.

فعلى جميع النساء أن يتخذن من السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) مثلاً أعلى في العفّة والحياء ويقاومن إغراء شياطين الجن والإنس الذين يبذلون الأموال الطائلة ويسخّرون التقنيات المثيرة والجاذبة والإعلام المؤثر من أجل تجريد المرأة من عفافها وحيائها وإبراز مفاتنها للرجال من خلال دور الأزياء وهوس الموضة ومسابقات الجمال، ونشروا مراكز الترفيه والمساج والتجميل وإقامة الحفلات الماجنة، لأنهم يعتبرون النساء أفتك سلاح في حربهم المسعورة على الدين والأخلاق وقيم الكرامة والعزة والسمو والرفعة ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ (النساء:٢٧).

لقد كانت السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بما جسّدت من تعاليم الدين ملهمة للنساء عبر التأريخ بأن يتّخذن مسلك العفاف والطهر والنقاء، وبنات الإسلام والسيدة الزهراء (عليها السلام) هُنّ الوحيدات من نساء العالم اللواتي يجسّدن هذا

(١) بحار الأنوار: ٧٨/ ٢٥٥.

السلوك، ولعلكم شاهدتم مقطع الفيديو للمرأة الفلسطينية العفيفة التي استطاعت فرق الإنقاذ بمشقّة من سحبها من تحت الأنقاض الهائلة بسبب العدوان الصهيوني الغادر وكان همّها أثناء سحبها من تحت الأنقاض تعديل حجابها وغطاء رأسها الذي انكشف جزء منه بسبب القصف الوحشي.

إن مراعاة العفاف والحياء لم يمنع السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من ممارسة وظائفها في التبليغ الديني وتعليم النساء ونصرة الحق، والحضور في المواقف المفصلية التي تتطلب حضورها، كإلقائها الخطاب في مسجد أبيها (صلى الله عليه وآله) واحتجاجها المفحم للمتصدّين، مضافاً إلى أداء واجباتها العائلية والبيتية بأكمل وجه، فما هو مبرر النساء اليوم وفي كل يوم للخضوع لغرائزهن واتباع شهواتهن والافتتان بما عندهن من وسائل الإغراء، حتى إن بعض المتدينات يخرجن عن حدود العفة في المناسبات الاجتماعية أو في أماكن العمل أو الدراسة أو ضمن العلاقات الأسرية وغير ذلك.

القبس/١٢٣

سورة مريم: ﴿٤٨﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

موضوع القبس: المعنى الصحيح للاعتزال

دين الاجتماع:

الإسلام دين الاجتماع والتواصل ومظاهر ذلك كثيرة كالحج وصلاة الجماعة والجمعة ومنها تشريع العيد ففي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان عن يوم الفطر (الذي جعلته... لأهل ملتك مجمعاً ومحتشدا)[1] وفي الرواية عن الإمام الرضا (عليه السلام): (إنما جُعل يوم الفطر العيدَ ليكون للمسلمين مجتمعاً يجتمعون فيه ويبرزون لله عز وجل فيمجدونه على ما منَّ عليهم، فيكون يومَ عيدٍ ويوم اجتماع)[2]، وهو دين إعمار الحياة المثمرة وبناء الأمة الصالحة الوسط الشاهدة على الناس جميعاً.

مضافاً إلى أن وظائف كثيرة لا يمكن القيام بها إلا بالتواصل مع الناس كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكافل الاجتماعي وتعليم أحكام الدين.

وورد النهي عن الترهّب وترك إعمار الحياة كقوله (صلى الله عليه وآله): (ليس في أمتي رهبانية)[3]، ويشرح (صلى الله عليه وآله) معناها لعثمان بن مضعون عندما أراد الترهب:

---

(١) الصحيفة السجادية (ابطحي): ٢٩٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٥٢٢/١/ ح١٤٨٥.

(٣) الخصال للصدوق: ١٣٧/١/ح١٥٤.

(إن ترهّب أمتي الجلوس في المساجد انتظاراً للصلاة)[١] فيعطي (عليه السلام) للرهبانية معنى اجتماعياً واسعاً خلافاً للمعروف عنها.

ويخاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) العلاء بن زياد الحارثي لما اعتزل الحياة وترهب: (يا عُدَيَّ - تصغير عدو- نفسه: أترى أن الله أحلّ لك الدنيا وهو يكره أن تأخذ منها؟)[٢].

الحث على العزلة:

في مقابل ذلك توجد روايات كثيرة حثّت على الانفراد والعزلة عن الناس وذكرت فضل العزلة والآثار المباركة فيها كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العزلة عبادة) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (في الانفراد لعبادة الله كنوز الأرباح) وعنه (عليه السلام): (ملازمة الخلوة دأب الصلحاء) وعنه (عليه السلام): (الوصلة بالله في الانقطاع عن الناس)[٣] وعن الإمام الرضا (عليه السلام): (يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه عشرة أجزاء، تسعة منها في اعتزال الناس وواحدة في الصمت)[٤].

إشكال ورد:

وهنا قد يثار إشكال منشأه وجود التنافي بين التوجيه بالعزلة والمنحى الاجتماعي لدين الإسلام؟

ويجاب هذا الإشكال بأكثر من مستوى:

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٨١/٨٠

(٢) نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨.

(٣) غرر الحكم للآمدي: ٩٣/ ح١٧٧٧.

(٤) الخصال للصدوق: ٤٣٧/ ح٢٤.

الأول: أن نضع هذه الأحاديث في موضعها الصحيح ولا نأخذها على إطلاقها، ونتعرف على المخاطبين بها وحالاتهم، ومن تلك الحالات التي خاطبتها هذه الأحاديث المحبِّبة للعزلة:

١- وهي أوضحها: عندما يكون الاختلاط بالناس سبباً للوقوع في المعاصي فإن المجالس لا تخلو غالباً من المحرمات بل الكبائر، وعلى رأسها الغيبة التي جعلها الناس فاكهة المجالس، وهي من الموبقات التي توجب إحباط العمل وذهاب الدين، عن رسول الله (ﷺ) قال: (الغيبة أسرعُ في دين الرجل المسلم من الأَكْلَة في جوفه) وعنه (ﷺ): (إن الرجل ليؤتى كتابه منشوراً فيقول: يا ربِّ، فأين حسناتُ كذا وكذا عملتُها ليست في صحيفتي؟ فيقول:محيت باغتيابك الناس)[1] ووصفتها بعض الروايات بالنار التي يرسلها على مغروساته – وهي الأعمال الصالحة - فيحرقها.

وينبغي الالتفات إلى أن المجالس لا تختص باللقاءات المباشرة بل تشمل اليوم ما يحصل من حوارات ولقاءات عبر مواقع التواصل الاجتماعي وتؤدي أحياناً إلى أمور محرمة كأحاديث الحب والغرام مع الجنس الآخر من دون مسوِّغ شرعي، وبعضهم يستفتي عن جواز تبادل هذه الأحاديث بين امرأة متزوجة ورجال أجانب من دون علم الزوج ويسأل هل هذا جائز؟ فتصوروا الانحدار والتسافل!

فهذه الموبقات وأمثالها من نتائج الاختلاط غير المنضبط، لذا كان في

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ٣/٥٩٠/ح٨٠٤٧، ط. الرسالة.

العزلة الحفاظ على الدين وعلى ما حصل عليه من الطاعات. عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (العزلة سلامة)[١] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (لا سلامة لمن أكثر مخالطة الناس)[٢] (سلامة الدين في اعتزال الناس)[٣] (من اعتزل سَلِم ورعُه)[٤] (مداومة الوحدة أسلم من خلطة الناس)[٥]، ولذا قيل إن ((في العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش وكسر سلاح الشيطان والمجانبة من كل سوء وراحة الوقت، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه إما في ابتدائه وإما في انتهائه))[٦].

٢- عندما يكون الاختلاط مع الناس والحضور في مجالسهم مسبباً لتشوش الفكر بالأحاديث الفارغة المضيِّعة للوقت وتسمى مجالس البطّالين، وقلنا أنها تشمل ما يعرَف اليوم بالحوار عبر الإنترنت والرسائل القصيرة ومكالمات الهواتف المحمولة، وأغلب لقاءات الناس ومجالسهم ومحادثاتهم من هذا القبيل، فكل ما يدور فيها هذر من الكلام وعبث ولهو باطل كأحاديث الألعاب الرياضية أو الشؤون العائلية الخاصة بالناس الآخرين.

فإذا تشوش الفكر بهذه الأحاديث فإنه لا يكون مؤهلاً للإقبال على الله تبارك وتعالى والأنس بذكره، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من انفرد عن الناس

---

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ٣/٥٩٠/ح٦٩٩٧، ط. الرسالة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/ ١٠/ ح٦٧.

(٣) غرر الحكم للآمدي: ٣١٩/ ح٧٣٦٥.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ٥٨٩/ ح٣٢٨.

(٥) غرر الحكم للآمدي: ٧٠٦/ ح٨٤.

(٦) سفينة البحار: ٦/ ٢٣٣.

أنس بالله سبحانه)[١] (الانفراد راحة المتعبدين)[٢] وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (لو ذُقتَ حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك)[٣] ومن حِكم لقمان: (إن طول الوحدة أفهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة)[٤].لذا كان اعتياد هذه المجالس سبباً للحرمان من القرب الإلهي كما في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في ليالي شهر رمضان: (أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خلّيتني)[٥]، وفي وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم: (الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنيسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومُعِزَّه من غير عشيرة)[٦].

٣- عندما لا يكون الفرد قادراً على أداء حق الاختلاط مع الناس ومراقبة ما يجري فيها ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمثل هذا يكون الأفضل له تجنب الاختلاط إلا بما هو ضروري حتى لا يكون من الساكتين على الباطل والراضين بالظلم، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل،

---

(١) غرر الحكم للآمدي: ٦٢٨/ ح٩٨٩.

(٢) غرر الحكم للآمدي: ٤١/ ح٧١٢.

(٣) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٣٨١.

(٤) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ١/ ٢٥٩.

(٥) مفاتيح الجنان: ٢٤٥.

(٦) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٥/ ٣٠١.

فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسُد ولا ترائي ولا تتصنع ولا تداهن)[١] وعنه (عليه السلام) قال: (أقلُّ ما يجد العبد في الوحدة الراحة من مداراة الناس)[٢].

الثاني: أن نفهم من معنى العزلة غير المعنى المتعارف وهو الانكفاء على الذات وترك الاختلاط بالناس فلا يرد الإشكال أصلاً، وإنما يراد باعتزال الناس مباينتهم في السلوك والأفعال المخالفة للشريعة، فلا مانع من أن يعيش المؤمن وسط المجتمع بكل فئاته بشرط أن يكون متميزاً بعقيدته وأخلاقه وسلوكه وتقييمه للأمور عن أهل المعاصي ولا يتأثر بشيء من انحرافاتهم أو يداهن أو يجامل أو يتنازل عن شيء، وبثباته ومبدئيته سوف يكون موقفه قوياً مؤثراً في الآخرين وهادياً ومصلحاً لهم.

وهذه المباينة في العقيدة والسلوك مع أهل الباطل جعلها الله تعالى في القرآن الكريم علامة فارقة لسلوك الأنبياء (عليهم السلام) مع مخالفيهم والمتمردين عليهم، قال تعالى:﴿بِسمِ اللهِ الرَحمَنِ الرَحِيمِ ۞ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ۞ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (الكافرون: ١-٣) وقال تعالى:﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً ۞ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ (مريم: ٤٨-٤٩).

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٥/ ٢٢٥.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٥/ ٢٥٤.

لكي لا ينحرف الدين وتضيع معالمه:

إن الاختلاط وعدم التمايز في الرؤية والتوجهات والسلوك بين المؤمن وغيره خطير جداً لأنه يؤدي لتشويه صورة الدين وتمييعه وتضييع هويته وانحراف أحكامه حتى يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً والأخطر من ذلك أنه يعطي مشروعية للانحراف والفساد بعد أن اختلط الحق بالباطل ولم يبق مائزٌ بينهما.

خذ مثلاً سلوك السياسيين فهل تجد فرقاً بين من يرفع شعاراً إسلامياً ويعتبر حزبه إسلامياً وبين الآخرين؟ فإذا لم تجد فرقاً من حيث الفساد والاستئثار بأموال الشعب والأنانية وعدم الاكتراث بحال الشعب وعدم الاهتمام بإعمار البلد وازدهاره، فماذا سيبقى في يدك من أدوات لإقناع المجتمع بمشروع الإسلام ونظامه في سياسة الأمة وإدارة شؤون البلاد؟

وهكذا على صعيد السلوك الشخصي إذا كان (المتدين) يكذب ويخلف الوعد ويغشّ ويعتدي على حقوق الآخرين ويفتري عليهم ويكيد لهم فكيف سيحب الناس التدين والالتزام بالشريعة؟

وللعلم فإن أهل الباطل يحاولون جاهدين لاستدراج أهل الحق حتى يكونوا مثلهم، كما لو وُجد موظف نزيه مثابر في عمله يخدم الناس بإخلاص فإنهم يقومون بكل وسائل الضغط والترغيب والترهيب ليتخلى عن مبدأيته ويصبح مثلهم، ليعطوا المبررات لأنفسهم ويتخلصوا من محاسبة الضمير وليصبغوا أفعالهم بالشرعية، فالعزلة والاعتزال الذي حثت عليه الآيات الكريمة والروايات الشريفة يعني إبقاء الخط الفاصل بين المنهجين والسلوكين والرؤيتين.

الثالث: أن يكون الاعتزال بمعنى الانقطاع عما سوى الله تعالى وعدم

التمسك بأي سبب من المخلوقات، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال:(لا يكون العبد عابداً لله حق عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه فحينئذٍ يقول:هذا خالص لي، فيقبله بكرمه)[1].

فذِكرُ الله تعالى والتمسك بالنبي وآله الكرام (صلوات الله عليهم وسلامه) وولاية أهل البيت (عليهم السلام) هو الكهف الذي نكون فيه دائماً ونأوي إليه باستمرار وان كنّا في أوساطهم ، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ (الكهف:١٦).

مع السيد الشهيد الصدر الثاني:

روى لي السيد الشهيد الثاني (قدس سره) هذه القصة ويبدو أنها حصلت له بعد معاناة اعتقاله عام ١٩٧٤ قال: ((إنني يوماً فتحت القرآن الكريم لأجد فيه منزلتي أمام الله سبحانه أو قل – بالتعبير الدنيوي– (رأي) الله فيَّ، فخرجت هذه الآية من سورة الكهف:﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾، إن كل هذه الآية مفهومة لي بحسب حالي يومئذٍ إلا قصة (الكهف) الذي يكون من المطلوب أن آوي إليه، أي كهفٍ هذا؟ وذهبت إلى الحرم العلوي (على ساكنها السلام) عسى أن ينفتح لي هناك عن هذا المعنى، وبدأت بزيارة (أمين الله) حتى وصلت إلى قوله (عليه السلام): (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك.. إلى قوله:يا

(١) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ١/ ٤٢٧.

كريم) وقد حصل لي في تلك اللحظة (حدس) قوي بأن الكهف الذي يجب أن أدخله هو هذا، أي أن تصبح نفسي على هذه الأوصاف وتجانب ما سواها، وقد عرضت ذلك على (مولاي) فأقرّه وقال بصحته))[1].

وفي ضوء ما تقدم يندفع الإشكال وأن المعاشرة مع الآخرين أفضل من العزلة إذا كانت مثمرة ونافعة ويؤدي فيها الفرد وظائفه ولا تستدرجه المجاملات إلى الوقوع في المعاصي؛ لأن الاختلاط مع الآخرين يوفر فرصاً عظيمة للطاعة كقضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم وهدايتهم وإرشادهم و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

الحل الوسط:

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على اذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على اذاهم)[2] وقال (صلى الله عليه وآله) لرجل أراد الجبل ليتعبد فيه: (لصبرُ أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته أربعين سنة)[3]، وعليه أن يكون يقظاً ملتفتاً حتى لا يتسبب اختلاطه مع الناس بالوقوع في المعاصي أو تشويش فكره بفضول الكلام، وأن يلتزم بمبادئه والأفعال الموافقة للشريعة ويعتزل سلوكياً الآخرين ويحذر من مناهجهم ورؤيتهم.

أما من لا يملك الشجاعة والمعرفة والقدرة على أداء وظائفه مع الآخرين

---

(١) قناديل العارفين: ١٥٣.

(٢) سنن الترمذي: ٤/٧٣/ح٢٦٢٥.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي: ٧/١٢٦/ح٩٧٢٧.

فالحل المناسب له تقليل اختلاطه بالناس والاقتصار على مقدار الضرورة وأن يحرص على مجالسة ومحادثة من يقرّبه إلى الله تعالى، روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (قالت الحواريون لعيسى (عليه السلام): يا روح الله، مَن نجالس؟ قال:من يذكّركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغّبكم في الآخرة عمله)[١] وفيه إشارة إلى أن من لم تستفد منه هذه الأمور فلا تضيّع وقتك[٢] وعمرك الثمين بمجالسته أو محادثته عبر الإنترنت وأجهزة الاتصال ومصاحبته، فكيف بمن تكون مجالسته سبباً لعكس هذه الصفات كما هو حال أغلب الناس مع الأسف؟ لذا ورد في بعض الأحاديث:(فرَّ من الناس فرارك من الأسد)[٣].

إن المؤمن له أنس بربّه لا يستوحش معه ولا يحتاج إلى غيره إلا بمقدار الضرورة، وينفر من مخالطة الناس أزيد من ذلك ومجاملتهم ومداهنتهم، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما من مؤمن إلا وقد جعل الله له من إيمانه أنساً يسكن إليه حتى لو كان على قلّة جبل لم يستوحش)[٤]، وروي عنه (عليه السلام) قوله: (خالط الناس تخبرهم ومتى تخبرهم تَقْلِهم - من القلى أي البغض والاجتناب-)[٥].

---

(١) سفينة البحار: ٦/ ٢٣٥.

(٢) عن الإمام الباقر، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي من لم ينتفع بدينه ولا دنياه فلا خير لك في مجالسته..) مكارم الأخلاق، وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام).

(٣) في مصباح الشريعة: روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (قال عيسى بن مريم (عليهما السلام): اخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك وفرّ من الرياء وفضول معاشك، وابك على خطيئتك، وفرّ من الناس فرارك من الأسد والأفعى، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء، ثم الق الله متى شئت) نقلاً عن بحار الأنوار: ١١٠/٦٧.

(٤) المحاسن للبرقي: ١٥٩/١/ح٩٨.

(٥) الكافي للكليني: ٤٢١/١٥/ح١٥٠١١، ط. دار الحديث.

فترجيح الاختلاط او العزلة وتحديد مقدارهما يدور مدار ما يقربّك الى الله تبارك وتعالى ويجنّبك معصيته ولا يحرمك من طاعته .

وعلى أي حال فإن الاعتزال فترة محددة أمر مفيد، فقد كان رسول الله (ﷺ) يعتزل الناس في غار حراء في مكة، أما في المدينة فقد كان يطوي فراشه ويشد مئزره للعبادة في العشرة الأواخر من شهر رمضان[1].

ولأجل تحقيق هذا النقاء وتصفية الباطن لله تعالى شُرّع الاعتكاف في المساجد، وقد وردت الأحاديث في فضله وآثاره المباركة.

ونثني هنا على المبادرة التي يقوم بها جمع كبير من الشباب وطلبة الجامعات منذ عدة سنوات بإقامة العشر الأواخر من شهر رمضان إلى جوار أمير المؤمنين (عليه السلام) ويُنظَّم لهم برنامج عبادي وتثقيفي مفيد بفضل الله تبارك وتعالى.

(١) مستدرك الوسائل- المحدث النوري: ٧/ ٤٧٠.

القبس/١٢٤

سورة مريم:﴿٥٩﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾

موضوع القبس: إنحراف الامة بعد رحيل قائدها

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (مريم:﴿٥٩﴾) أي جاء من بعد ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (مريم:﴿٥٨﴾) أجيال غير صالحين لذا قرأت (خَلْفٌ) بالسكون اما الذريات الصالحة فتقرأ بالتحريك (خَلَفَ) كما عن المشهور.

وذكرت الآية صفتين لهم وعلامتين لانحرافهم عن خط اسلافهم الصالحين بينهما ارتباط وثيق وهما (إضاعة الصلاة) و(اتباع الشهوات) وقد ترجعان الى واحدة أي ان كلاً منهما تؤدي الى الأخرى، فقد يكون الأصل في الانحراف إضاعة الصلاة، اما الثانية وهي اتباع الشهوات فهي نتيجة للاولى لان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فاذا اضاعوها فقدوا المناعة التي تحصّنهم فوقعوا فريسة تزيين الشيطان واغرائه وسقطوا في اتباع الشهوات عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا يزال الشيطان هائباً لابن آدم ذعراً منه ما صلى الصلوات الخمس لوقتهن، فإذا ضيعهن اجترأ عليه، فأدخله في العظائم)[1] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:

(١) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٥٧٢/ ح٧٧٨.

(الصلاة حصن من سطوات الشيطان)[١] فذكر تضييع الصلاة دون غيرها من الواجبات لأنها عمود الدين وعنوان صحيفة المؤمن والعاصمة للإنسان من الانجرار نحو التسافل.

لذا ورد في الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما بين المسلم وبين الكافر الا ان يترك الصلاة الفريضة متعمداً أو يتهاون بها فلا يصليها)[٢] لانه بترك الصلاة يبقى مكشوفاً للاعداء - وهم شياطين الجن والانس والشهوات واهواء النفس - لا يملك ما يحميه منهم فيبدأ سلوكه بالانحدار ولا يقف السقوط الى حد معين حتى يستقر في قعر جهنم، وهذا مجّرب وله أمثلة كثيرة في الواقع لا تخفى عليكم لأشخاص تركوا الصلاة اولاً ثم انحدروا وأوغلوا في الموبقات.

وعلى العكس من الانحدار فان الترقي في درجات الكمال يبدأ من هذه الصلاة وعن طريق هذه الصلاة بحسب مراتب أدائها، ففي الحديث النبوي الشريف قال (صلى الله عليه وآله): (إن الصلاة قربان المؤمن)[٣] وفي تعبير اخر (الصلاة معراج المؤمن)[٤] وفي آخر (الصلاة قربان كل تقي)[٥] و(إضاعة الصلاة) لها مراتب عديدة، اوضحها تركها من اصلها وهي المرتبة التي جعلتها الاحاديث الشريفة المتقدمة قرينة لبعض مراتب الكفر.

---

(١) غرر الحكم للآمدي: ١٧٥ ح٣٣٤٣.

(٢) ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق: ٢٣٠.

(٣) كنز العمال- المتقي الهندي: ٢٨٧/٧/ ح١٨٩٠٧.

(٤) تذكرة الأولياء- النيسابوري: ٢٢٢

(٥) نهج البلاغة: ٣٤/٤/ح١٣٦.

وتليها حالة عدم الالتزام بتأديتها في اوقاتها المخصّصة لإدائها أي عدم الاكتراث بفواتها، وفي مجمع البيان عن أبي عبدالله (عليه السلام) في تفسير الآية قال: ((اضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير ان تركوها اصلاً))[١]. وروي عنه (عليه السلام) قوله في الصلاة: (إن العبد إذا صلى الصلاة في وقتها وحافظ عليها ارتفعت بيضاء نقية، تقول: حفظتني حفظك الله، وإذا لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها ارتفعت سوداء مظلمة، تقول: ضيعتني ضيعك الله)[٢].

وفي الكافي بسنده عن داود بن فرقد قال: (قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ (النساء:١٠٣) قال (عليه السلام): (كتاباً ثابتاً وليس أن عجلت قليلاً أو أُخّرت قليلاً بالذي يضُّرك ما لم تضّيع تلك الاضاعة فان الله عز وجّل يقول لقوم ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (مريم:٥٩))[٣].

وتليها حالة اتيانه بالصلاة لكن ليس على وجهها الصحيح من حيث اجزائها وشرائطها واقوالها وافعالها فلا يتم له ركوع أو سجود أو طهور أو قراءة واشباه ذلك من الصلاة التي وصفها النبي (صلى الله عليه وآله)بأنها (نقر كنقر الغراب)[٤]، وقال البعض

---

(١) مجمع البيان للطبرسي: ٦/ ٤٣١.

(٢) من لا يحضره الفقيه – الشيخ الصدوق: ١/ ٢٠٩/ ح٦٢٧.

(٣) الكافي – الشيخ الكليني: ٣/ ٢٧٠/ ح١٣.

(٤) عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام يصلي فلم يتم ركوعه ولا سجوده فقال (صلى الله عليه وآله): نقر كنقر الغراب لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتن على غير ديني) الكافي – الشيخ الكليني: ٣/ ٢٦٨/ ح٦.

بأن الآية تنطبق على أهل هذه المرتبة اكثر من المرتبتين السابقتين لان معنى ضياع الشيء تلفه وخرابه أو افتقاده بسبب سوء تدبير الذي بيده ذلك الشيء فوضعه في غير موضعه، فالإضاعة لا تصدُق الا مع التفريط بالشيء بعد وجوده اما من لا يوجد عنده الشيء اصلاً فقد لا تصدق عليه الاضاعة، فهذا الخلْف المُضِّيع للصلاة ورث الصلاة من اسلافه الصالحين الا انه فرّط فيها وضّيعها ولم يعتن بها وغيَّر فيها واستهان بها فلم يحسنوا الخلافة فيها كما سيأتي ان شاء الله في رواية البخاري، ولا أرى مانعاً من دخول جميع المراتب المتقدمة في عنوان إضاعة الصلاة فأن من تركها اصلاً يصدق عليه التضييع لأنه اعطي هذه الصلاة لكنه لم يؤّدِها.

وتوجد مرتبة أخرى لإضاعة الصلاة تخفى الا عن أهل المعرفة وهي إضاعة حقيقتها وجوهرها وثمرتها وهي المعراجية الى الله تبارك وتعالى والنهي عن الفحشاء والمنكر فهو يؤدي الصلاة في اوقاتها ويدقق في الاتيان بأجزائها وشرائطها الا انه لا يتكامل بها ولا ترتقي احواله وعلاقاته بربه بها. عن النبي (صلى الله عليه وآله): (لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة ان تنهى عن الفحشاء والمنكر)[1] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (اعلم ان الصلاة حجزة الله في الأرض، فمن أحَّب أن يعلم ما ادرك من نفع صلاته، فلينظر: فان كانت حجزته عن الفواحش والمنكر فانما ادرك من نفعها بقدر ما احتجز...)[2].

(١).تفسير ابن كثير: ٢٥٤/٦، ط. العلمية.

(٢).معاني الأخبار – الشيخ الصدوق: ٢٣٦/ ح١.

وقد يؤدي الإنسان خلال عمره آلاف الصلوات[١] من دون ان تحصل له حالة الارتقاء والسمو في درجات المعرفة والكمال، روى الشيخ الصدوق بسنده عن حّماد بن عيسى - ويعلم اهل الاختصاص أن حّماد من ثقات الرواة عن الصادق والكاظم والرضا (عليهم السلام)- قال: (قال لي أبوعبدالله (عليه السلام) يوماً تُحسن أن تصلّي يا حّماد؟ قال: قلت: يا سيدي أنا أحفظ كتاب حريز في الصلاة، قال: فقال (عليه السلام) لا عليك قم فصلِّ قال فقمت بين يديه متوجهاً الى القبلة فاستفتحت الصلاة وركعت وسجدت فقال: يا حّماد لا تحسن ان تصلّي؟! ما أقبح بالرجل أن تأتي عليه ستون سنة او سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة؟!)[٢]، ثم قام الإمام (عليه السلام) وصلى أمامه الصلاة القربانية الخاشعة فالتوبيخ لم يصدر لترك الصلاة أو عدم الالتزام بها وإنما لعدم الوصول الى حقيقتها، ولعدم تحقق الاستفادة التامة من ثمرتها.

والصفة الثانية للخلَّف غير الصالح (اتباع الشهوات) وهو له صور عديدة بحسب عمر الانسان وعمله وموقعه الاجتماعي والسياسي والديني وغير ذلك من المؤثرات، فالشباب يغريهم اللهو واللعب والمتعة الجنسية وهوس المودة في الملبس والمظهر الخارجي وتقليد الأجانب ولربما الانخراط في جماعات العنف والقتل والابتزاز والاختطاف.

والسياسيون تسكرهم السلطة والنفوذ والاستيلاء على المال العام وكثرة

---

(١) الصلوات المفروضة في اليوم والليلة خمسة غير المستحبات ففي السنة ١٨٠٠ وفي عشر سنوات ثمانية عشر الف صلاة.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١/ ح٩١٥/ باب وصف الصلاة.

المؤيدين وتسليط الاعلام. والنساء يستهويهنَّ التجمل وإظهار الزينة حتى لغير من أحلّ الله تعالى ونصب الفخوخ للرجال. والتجار في السوق يلهثون وراء الأموال باي طريقة حصلت ولو كانت عن طريق الغش والظلم والبخس والتطفيف وغير ذلك كثير من اشكال اتباع الشهوات.

وتذكر الآية الكريمة العاقبة الوخيمة لإضاعة الصلاة واتباع الشهوات ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ والغي مقابل الرشد الذي هو إصابة الحق قال الله تعالى﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦) كالضلال في مقابل الهدى الذي يعني الوصول الى الغاية المقصودة ، فهؤلاء سوف يلاقون الغي، وقد اطلق لفظ الغي أي سواء في الحياة الدنيا وحين الموت وما بعده وفي الآخرة، ففي الدنيا يقعون في الجهل والضلال ويفقدون البصيرة والرشد والحكمة وفي الآخرة يلقون جزاء ذلك ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ ﴿الفرقان:٦٨) لأنهم اوقعوا انفسهم في الغي والضلال فيلاقون جزاءه ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٩٠).

لكن لا ينبغي لمن اغراه الشيطان وغلبته اهواؤه وشهواته أن ييأس من روح الله تعالى ورحمته والرجوع اليه لذا جاءت الآية التالية مباشرة لتزرع هذا الأمل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (مريم:٦٠).

والآية تبين بوضوح ظاهرة اجتماعية وسلوكاً عاماً يحصل عند غياب كل القادة العظام من الأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم أجمعين) أو قادة الثورات الإصلاحية وهو الانقلاب على التعاليم الإلهية ووصايا الأنبياء والرسل والرجوع

الى حالة الانحطاط من خلال إضاعة حقيقة الصلاة واتباع الشهوات والانخداع بالدنيا.

فلم يكن ما حصل بعد رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من انقلاب بدعاً من السلوك وانما هي نسخة متكررة من الأمم السابقة، تلك الحالة التي يبدي الله تعالى آسفه عليها ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (يس:٣٠) وكأن هذه الآية المكية وامثالها تنبه الامة الى هذا الخطر المترقب لئلا يقعوا فيه، وليس لهم عذر في ذلك لان النبي(صلى الله عليه وآله) حذرهم منه في مناسبات عديدة كقوله (صلى الله عليه وآله): فيما رواه عنه الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق:١٩) قال (صلى الله عليه وآله): (لتركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقُذَّة بالقُذَّة ولا تخطئون طريقهم قال (عليه السلام) قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه وآله): فمن أعني؟ لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة واخره الصلاة)[1].

روى البخاري في صحيحه عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (أنا فرطكم على الحوض ليُرفعنَّ إليَّ رجالٌ منكم حتى إذا أهويتُ لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي ربِّ أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)[2].

وفي نفس المصدر بسنده عن الزهري قال: (دخلتُ على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركتُ إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضُيِّعت).

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٤١٢.

(٢) صحيح البخاري: ٤٦/٩/ ح ٧٠٤٩،وج ١/ ص ١١٢/ ح ٥٣٠، ط. دار طوق النجاة.

ويبدو ان هذه الظاهرة متكررة في جميع الأجيال وعند كل انعطافة تاريخية ومفترق طريق يحصل عند غياب أصحاب الرسالات والمشاريع الإلهية، او عند اقبال الدنيا وتوسع خيراتها كما حصل للمسلمين الأوائل عند نجاح الفتوحات الإسلامية وهزيمة الامبراطوريتين الفارسية والرومية، أو ما حصل لساسة العراق الجدد بعد عام ٢٠٠٣م، فكم من القادة العظام يتعبون ويضحون وقد يستشهدون ثم ترثهم وتخلفهم جماعات تدعي الانتساب اليهم وترث الامتيازات عنهم لكنها تضيّع مشروعهم العظيم، قال تعالى في موضع آخر ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف:١٦٩).

امام هذه الحقيقة التي يكشف عنها القرآن الكريم ويؤكد تكرارها عبر الأجيال لا يحقّ للمؤمنين الرساليين ان يكتفوا بتحريك السنتهم بقول انا لله وانا اليه راجعون أو لا حول و لا قوة الا بالله العلي العظيم ونحو ذلك بل لابد من العمل بما تقتضيه هذه الكلمات المباركة والتحرك لحث الناس على إقامة الصلاة ووعي حقيقتها والاستفادة من آثارها المباركة في الدنيا والآخرة وتعليمهم احكامها التفصيلية ومقدماتها وسننها وآدابها وغير ذلك وتحذّر الناس في جميع مستوياتهم وعلى اختلاف مواقعهم من الانخداع بالدنيا والاغترار بمظاهرها البرّاقة الخادعة واتباع الشهوات والتأثر باهل المعاصي.

ولكي تحقق الحركة أفضل النتائج ينبغي ان تقوم بهذه المسؤولية مؤسسة وجماعة تأخذ على عاتقها احداث هذه النهضة المباركة بأذن الله تعالى قال تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران:١٠٤) وهذه دعوة صريحة لإقامة مثل هذه المؤسسات و الجماعات لكل باب من أبواب الخير ولكل مورد من موارد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلاقامة الصلاة مؤسسة ولايتاء الزكاة مؤسسة ولتشجيع الزواج وتكثير النسل مؤسسة ولاصلاح ذات البين ورفض الطلاق مؤسسة وللعفاف مؤسسة وللتشجيع على القراءة ونشر الكتاب مؤسسة وللشعائر الدينية مؤسسة وغير ذلك كثير ﴿إِنَّ اللَّه مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨).

القبس/١٢٥

سورة مريم:﴿٨٤﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾

موضوع القبس: لا تهولنكم قوة الباطل فإنها إلى فناء

يشعر المؤمنون والعاملون الرساليّون بالإحباط واليأس أحياناً عندما يرون الباطل يتسلط ويتفرعن، والفساد ينتشر، وتصبح للظالمين دولة تملك المال والاعلام والسلطة وكل أدوات الحرب الناعمة والخشنة، ولا تتورع عن استخدام أي وسيلة حتى القذرة منها لتحقيق أهدافها، وحينئذٍ ينكمش المؤمنون وينزوون ويتخلون عن واجبهم في الدعوة الى الله (تبارك وتعالى) وهداية الناس وإرشادهم وإصلاحهم.

فتأتي هذه الآية الكريمة وآيات كثيرة غيرها لتحليل هذه الظاهرة وعلاجها لتقول : إنّ هذا الشعور ناشئ من العجلة، فكأن المؤمنين يستعجلون النصر وتحقق النتائج التي يسعون من أجلها، ويريدون أن ينزل الله تعالى العقوبة على كل ظالم بمجرد صدور الظلم منه فلما تتأخر عليهم يشعرون بالإحباط والضيق، وهذا خلاف سنة الله تعالى الجارية في خلقه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (فاطر:﴿٤٥﴾) فتنهى الآية الكريمة عن الانبهار بدولة الباطل والشعور بالإحباط لعدم نزول العذاب ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لعدم وجود المسوغ للعجلة ، ففي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) (وإنما يعجل من يخاف الفوت وإنما

يحتاج إلى الظلم الضعيف)[1] والمفروض أننا مؤمنون نعتقد جازمين بأنّ الله تعالى لا يفوته شيء وهو قوي ومقتدر قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم:٤٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم:٩٤-٩٥) فإمهالهم وبال عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨) وستقودهم شياطينهم إلى الهلاك فلماذا العجلة.

ويتضمن الجزء الثاني من الآية تعليل عدم صحة الاستعجال بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ فإن الله تعالى بهذا الإمهال يريد أن يقيم الحجة البالغة عليهم ويدعهم يستوفون مدّتهم كاملة، وهم في كل لحظة تمرّ عليهم في الدنيا ومع كل نفس يلتقطونه يزدادون إثماً واستحقاقاً للعقاب، والله تعالى يعدُّ عليهم هذه الأنفاس حتى تنتهي، إذ المعدود ينقصه العدّ وتتأكل به، ففي التعبير كناية عن انتهاء أعمارهم ورجوعهم الى الله تبارك وتعالى، وكأن الله تعالى يملك في خزائنه لكل منهم عدد أنفاسه المكونة لعمره ويطلقها لهم واحداً بعد واحد حتى تنتهي، روى الشيخ الكليني بسنده عن عبد الأعلى قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: فما هو عندك؟ قلت: عدد الأيام، قال: إن الآباء والأمهات يحصون ذلك، قال: لا ولكنه عدد الأنفاس)[2]

(١) الدعاء الثامن والاربعون من الصحيفة السجادية في يوم الجمعة والأضحى.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٥٩/ ح٣٣.

فتصوروا أنّ آثامهم بقدر أنفاسهم فضلاً عما لو لوثوها بجرائمهم ومعاصيهم، فإن عدَّ الأنفاس في الحقيقة هو عدٌّ للأعمال المثبتة في صحيفة الحياة حتى تتم الصورة التي يؤول اليها في آخرته ((فكما أن مكث الجنين في الرحم مدة يتم بها خلقة جسمه كذلك مكث الانسان في الدنيا لأن يتم بها خلقة نفسه وأن يعدَّ الله ما قدّر له من العطية ويستقصيه))[1] لذا لا يصح استعجال الجزاء ثواباً وعقاباً لأن في استيفاء المدة اكتمالاً لحسنات المحسن فيثاب عليها، ولسيئات المسيء فيعاقب عليها.

ولذا جاءت هذه الآية الكريمة متفرعة بقرينة الفاء على الآية التي قبلها ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم:٨٣) أي تهزهم وتدفعهم بقوة وازعاج نحو الشر والفساد وتحرضهم على اتباع الباطل فتزيدهم ضلالاً إلى ضلالهم، وليس ذلك من باب الإكراه حتى تسقط المسؤولية عنهم، وإنما لأنهم هم من مكّنوا هذه الشياطين من أنفسهم وأطاعوهم وانقادوا لهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١٠٠)، روى علي بن ابراهيم في تفسير هاتين الآيتين قال: (لما طغوا فيها وفي فتنتها ، وفي طاعتهم ، مدّ لهم في طغيانهم وضلالهم ، وأرسل عليهم شياطين الإنس والجن ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾أي تنخسهم نخسا وتحضّهم على طاعتهم وعبادتهم فقال الله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي في طغيانهم وفتنهم وكفرهم)[2].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٠٨/١٤.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ٥٥، البرهان: ٦/ ٢١٦/ ح٨.

والخطاب في الآية وإن كان موجهاً إلى رسول الله (ﷺ) الا انه في الحقيقة لنا من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» والا فان هذه الحقيقة ماثلة امام القادة المعصومين (عليهم السلام) على نحو اليقين، وكشاهد على ذلك نذكر ما كتبه الإمام الكاظم (عليه السلام) من سجنه إلى هارون العباسي وقال فيه: (إنه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلّا انقضى عنك معه يوم من الرخاء حتّى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون)[1].

هذا ما نفهمه من الآية الكريمة على المستوى الحركي ونتيجته النهي عن التبرّم وضيق الصدر والتقاعس والانزواء عندما يطول الزمن بالظلم وتتمكن دولة الباطل، وان على العاملين الرساليين الاستمرار في أداء واجباتهم ولا تكن نظرتهم ضيقة محدودة تقتصر على مساحة صغيرة من الزمن بل لينظروا الى الأفق البعيد.

ويمكن أن نفهم منها على الصعيد المعنوي والأخلاقي بأن الإنسان يجب أن يكون متيقظاً ملتفتاً عارفاً بقيمة وقته لأنه ليس مغفولاً عنه، فإن الله سبحانه يحصي عليه أعماله ويعدّ عليه أنفاسه التي وصفها أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: (نفسُ المرء خطاه إلى أجله)[2] فكلّما أمدّه الله سبحانه وتعالى بنفس فكأنما قربّه إلى أجله حتى إذا استنفدها وانتهت مدته جاءه الأجل وعُرض للحساب أمام الله تعالى، وكما يعدّ الله تعالى للإنسان أنفاسه فإنه يحُصي عليه أعماله فلا يغتر الإنسان العاصي الغافل عن الله تعالى بإمهال الله تعالى له.

روى علي بن إبراهيم في تفسير الآية قال: (نزلت في مانعي الخمس والزكاة

---

(١) كشف الغمة: ٣/ ٣.

(٢) نهج البلاغة / قصار الكلمات / رقم ٧٤.

والمعروف، يبعث الله عليهم سلطاناً أو شيطاناً، فينفق مايجب عليه من الزكاة والخمس في غير طاعة الله[١] ويعذبه الله على ذلك)[٢].

فاذا علم الانسان أن كل شيء محسوب حتى أنفاسه فانه سيكون متيقظاً حاضر الذهن مراقباً لنفسه فيما يقول ويفعل.

ولا تخلو الآية من إشارة الى قُصر عمر الانسان مهما طال لأنه عبارة عن عدد من الأنفاس مهما كثُرت فأنها تنقص بالعدّ، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (كُلٌّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ وكُلُّ مُتَوَقّعٍ آتٍ)[٣] لذا ورد في الحديث عن الإمام زين العابدين (عليه السلام): (أكبر ما يكون الإنسان يوم يولد، وأصغر ما يكون يوم يموت)[٤].

فلابدّ أن يتدارك الانسان عمره ويراجع نفسه ويعيد ترتيب ملفاته كما يقال، وسيجد الله تعالى قريباً اليه رحيماً به ويساعده على تغيير كل حياته نحو الأفضل، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من أحسن فيما بقي من عمره، لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أخذ بالأول والآخر)[٥]، وهي فرصة عظيمة يوفرّها الله تعالى لعباده رحمةً بهم.

---

(١) شرحنا هذه الفكرة في قبس قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (الأنفال: ٣٦) في تفسير من ونور القرآن، فراجع.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ٥٣، البرهان: ٦/ ٢١٦/ ح٩.

(٣) نهج البلاغة – خطب الإمام علي (عليه السلام): ١/ ١٩٧.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٩٤.

(٥) أمالي الصدوق: ١١١.

ويشير أمير المؤمنين (عليه السلام) الى القيمة العظيمة لهذا الانقلاب والانعطاف في حياة الانسان في أي لحظة تحصل من حياته ويصفها بأنها (لا قيمة لها) أي لا يمكن تقييمها لعظمتها، قال (عليه السلام): (بقيةُ عمر المرء لا قيمة لها: يُدرِكُ بها ما قد فات ويُحيي بها ما مات)[1].

والغريب أن نجد بعض الناس يقضون هذه البقية الثمينة من أعمارهم بعد تقاعدهم عن العمل في المقاهي وعلى أرصفة الطرق باللهو والعبث والأحاديث الفارغة بل المحرمة فيخسرون هذه الفرصة الثمينة وفي الوقت الضائع بل القاتل.

ونحن اليوم في آخر جمعة من شعبان وهو من أعظم المناسبات لإجراء هذه المراجعة لاستقبال شهر رمضان بقلوب نقية ونفوس مقبلة على الطاعة، روى أبو الصلت الهروي قال: (دخلت على الإمام الرضا (عليه السلام) في آخر جمعة من شعبان، فقال لي: يا أبا الصلت، إن شعبان قد مضى أكثره، وهذه آخر جمعة فيه، فتدارك فيما بقي تقصيرك فيما مضى منه، وعليك بالإقبال على ما يعنيك، وأكثر من الدعاء والاستغفار، وتلاوة القرآن، وتب إلى الله من ذنوبك، ليقبل شهر الله إليك وأنت مخلص لله عز وجل، ولا تدعنَّ أمانة في عنقك إلا أديتها، ولا في قلبك حقداً على مؤمن إلا نزعته، ولا ذنباً أنت مرتكبه إلا أقلعت عنه واتق الله وتوكّل عليه في سرّ أمرك وعلانيتك ﴿...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:٣)، وأكثر من أن تقول فيما بقي من هذا الشهر «اللهم ان لم تكن قد غفرت لنا في ما مضى من شعبان فاغفر لنا فيما بقي

(١) بحار الانوار: ٦/ ١٣٨/ ح٤٦.

منه»)[1]، ونحن ندعو بما علمنا الإمام الرضا (عليه السلام).

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)- الشيخ الصدوق: ٥٦/١/ح١٩٨، مفاتيح الجنان: ١٧١ أعمال ما بقي من شعبان.

القبس/١٢٦

سورة طه: ﴿٤١﴾

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾

موضوع القبس: الصناعة الإلهية للإنسان

أهمية الطفولة:

من المعلوم أن فترة الطفولة لدى الإنسان هي أطول من كل الكائنات الحية، وما ذلك إلا لينال التربية الكاملة والكافية التي تؤهله لممارسة دوره كخليفة لله تعالى في أرضه وليستطيع بناء كل قواه البدنية والعقلية والفكرية والنفسية حتى يتمكن من تلقي التشريف الإلهي ويبلغ سن التكليف الذي يتأخر عن السنة التاسعة عند الإناث وأكثر من ذلك عند الذكور.

ولاشك أنه كلما تتوفر للإنسان عوامل أقوى لتربيته وبنائه فإن فرصته لبلوغ الكمال والرقي أفضل وأوسع، وكلّما كان الدور المناط بالشخص والمسؤولية التي سيضطلع بها أهم وأوسع، كان نوع المربي المطلوب متصفاً بكمالات أرقى.

التربية الإلهية:

ولما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أكمل البشر وأفضلهم ومعداً لأداء أعظم الرسالات الإلهية، فلم يكن هناك من هو جدير بتربيته وتأديبه، لذا تكفل الله تبارك وتعالى بذلك، قال (صلى الله عليه وآله): (أدبني ربي فاحسن تأديبي)[1] وعنه (صلى الله عليه وآله)

(١) البحار: ج٦٨/ ص٣٨٢.

(أنـا أديب الله وعلي أديبي)[١].

وفي نهج البلاغة يصف أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الصناعة بقوله (ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كـان فطيمـاً أعظـم ملـك مـن ملائكتـه يسـلك بـه طريـق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره)[٢].

وأرّقَ تعبير وألطفه وأعظمه لهذه الفكرة هو ما ورد في القـرآن الكـريم فـي حق نبي الله تعالى وكليمـه موسـى (عليه السلام) ، قـال تعـالى: ﴿وَلِتُصْـنَعَ عَلَى عَيْـنِي﴾ (طه:٣٩) وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِـي ﴾ (طـه:٤١)،حينمـا يحظـى الإنسـان بلحظة من العناية الإلهية والألطاف الإلهية فإنها تغنيه وتكفيـه، فكيـف بمـن يُصـنع كله بعين الله تعالى ورعايته ولطفـه، ولـيس هـذا فقـط بـل يصـطعنه لنفسـه خالصـاً مخلصاً ليحمل رسالته الكريمة إلى البشرية فليس له نظرٌ إلـى مـا سـوى الله تبـارك وتعالى، ولا يطمع فيه أحد من شياطين الجن والإنس، والصنع كما فـي المفـردات (إجادة الفعل) أما الاصطناع فإنه (المبالغة في إصلاح الشيء)[٣].

نتيجة الاصطفاء الإلهي:

وكانت النتيجة أن يكون موسى (عليه السلام) مخلصاً لله تبارك وتعالى نبيـاً رسـولاً من أولي العزم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّـهُ كَانَ مُخْلَصـاً وَكَانَ رَسُـولاً نَّبِيّـاً﴾ (مريم:٥١)، هكذا تتدخل الألطاف الإلهية فـي صـناعة الأفـذاذ المـؤهلين لـلأدوار

(١) مكارم الأخلاق لطبرسي: ١٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة، ١٩٢ المسماة بالقاصعة.

(٣) المفردات: ص٢٨٦.

العظيمة، والمستحقين للمقامات السامية، ومنهم أهل البيت (عليهم السلام)، فقد أراد الله تعالى أن يكونوا معصومين مطهرين مخلصين له تبارك وتعالى، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣) وإذا أراد الله شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولا رادّ لقضائه.

هل تساءل أحد كيف يمكن أن توجد مثل خديجة بنت خويلد التي لُقّبت بالسيدة الطاهرة في ذلك المجتمع الجاهلي المملوء بالجرائم والموبقات والمفاسد التي لم يسلَم منها إلا الأندرون كجد النبي (صلى الله عليه وآله) وأبويه وعمه وابن عمه؟ وهل يوجد تفسير لذلك إلا الصناعة الإلهية لتلك القدّيسة الطاهرة؟

وهكذا يجد من يراجع سير العظماء ان يداً من وراء الغيب تتولى أمرهم وتصنعهم بحب وشفقة واتقان لتعدّهم للدور الكبير الذي يراد لهم.

كيف ننال الاصطفاء الإلهي؟

والذي يهمّنا من ناحية عملية هو هل يمكن أن نحظى بهذه الألطاف الإلهية ونكون ممن يصنعهم الله تعالى على عينه ويصطنعهم لنفسه بدرجة من الدرجات؟ ومن الواضح اننا نتحدث هنا عن التربية الإلهية الخاصة، لأن العامة شاملة للجميع، فهو تبارك وتعالى (ربّ العالمين) و﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود:٥٦).

والجواب واضح بإمكان ذلك إذ أن الله تبارك وتعالى لا بخل في ساحته - كما قيل - ولا يحتجب عن خلقه، إلا أن تحجبهم الذنوب دونه -كما في

الدعاء-[1].

والسؤال الأهم في كيفية تحصيل ذلك، ويمكن ان نستفيد معنيين من نفس الآيات الشريفة.

الأول: من نفس الآية الأولى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه:٣٩) فالطريق أن تحبّ الله تعالى ويحببك الله تعالى، وقد شرحنا علامات هذا الحب المتبادل وطريقة تحصيله في قبس مفصّل[2]، وورد في كلمات الحكماء (إن الله إذا أحبّ عبداً تفقّده كما يتفقّد الصديق صديقه)[3].

الثاني: من الآية الثانية ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ۞ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه:٤٠-٤١) فعندما يكون الإنسان ذا همّة عالية وطموح كبير للعمل في إعلاء كلمة الله تعالى ونشر علوم أهل البيت (عليهم السلام) واصلاح النفس والمجتمع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الله يستخلصه لنفسه وسيصلح شأنه ويتولاه بنفسه ويعينه على هذه الرسالة ويؤهله لأدائها.

ما يوجب الصناعة الإلهية:

ويستفاد من الروايات الشريفة ما يوجب تلك الألطاف الإلهية.

(منها) صحيحة أبان بن تغلب عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) - في حديث- (إن الله جلّ جلاله قال: ما يتقرب إلي عبدٌ من عبادي بشيء أحبُّ إليّ مما

---

(١) أنظر: مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي: ١٦٢_٨١٥.

(٢) أنظر: قبس قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤)، في تفسير من نور القرآن.

(٣) مفردات الراغب ص٣٢١.

افترضت عليه، وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته)[1].

(منها) ما في الحديث القدسي (أيما عبد اطلعتُ على قلبه فرايت الغالب عليه التمسك بذكري تولّيتُ سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه)[2].

وفي البحار عن إرشاد الديلمي وغيره (فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين.

فإذا أحبّني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصّة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرّفه السر الذي سترته عن خلقي، والبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرّفه ما يمرُّ على الناس في القيامة من الهول والشدّة، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعلماء، وأنوّمه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غم الموت وظلمه القبر واللحد وهول المطّلع، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب اعداد الفرائض ونوافلها، باب١٧، ح٦.

(٢) البحار: ج ٩٠ ص١٦٢، الكافي: ج٢ ص٣٥٢ ح٨.

المحبين)[١].

الدعاء يوصل الى الصناعة الإلهية:

ولا شك أن الدعاء وطلب معالي الأمور يوشك أن يوصل إلى ذلك فليجتهد العبد في الطلب والدعاء، من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في طلب مكارم الأخلاق[٢] (واصلحني بكرمك وداوني بصنعك) وورد في دعائه (عليه السلام) الذي أوله (يا من تحلّ به عقد المكاره)[٣] (وأذقني حلاوة الصنع فيما سألتُ) ومن دعائه (عليه السلام) في طلب العفو (اجعلني... وخلّصته بتوفيقك من ورطات المجرمين، فأصبح طليق عفوك من أسار سخطك، وعتيق صنعك من وثاق عدلك)[٤].

خصوصاً أنتم معاشر الشباب ما دمتم في مقتبل العمر وبداية الطريق لصناعة مستقبلكم المعنوي والمادي، فاسألوا الله تعالى أن يختاركم لأعظم الأدوار وأرقى المسؤوليات وأن يصنعكم بيده سبحانه لأدائها، وواظبوا على طلب ذلك بإخلاص ولسوف يعطيكم ربكم ذلك كما حكى سبحانه عن عباد الرحمن أن من دعائهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان:٧٤).

---

(١) البحار: ج٧٤ ص٢٩.

(٢) مفاتيح الجنان: ص١٠٥.

(٣) السابق: ص١٤٨.

(٤) الصحيفة السجادية، من دعائه (عليه السلام) في طلب العفو والرحمة: ص١٧٠.

القبس/١٢٧

سورة طه:﴿٧٢﴾

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

موضوع القبس: مبدأ استراتيجي في الحياة

إنها ليست مجرد كلمات قالها السحرة في وجه فرعون الطاغية بل هو موقف لهم في قمة الشموخ والاباء والثبات وصلابة الإيمان غير مبالين بتهديداته المرعبة ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه:٧١) ولا بوعوده المغرية التي منّاهم بها إن هم انتصروا على موسى وأبطلوا حجته (عليه السلام) ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف:١١٣-١١٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء:٤١-٤٢) فأجابوا وعده ووعيده بموقف ملؤه الإيمان ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ (طه:٧٢) وأنَّ من المحال أن نقدّم طاعتك وعبوديتك على طاعة الله تعالى وعبوديته، فقد رسخت المعرفة في قلوبهم عندما رأوا عصا موسى (عليه السلام) تتحول إلى ثعبان يلقف سحرهم ويبطل إفكهم وخداعهم الذي جعله فرعون وسيلة لتطويع الشعب واستعباده، فقالوا لفرعون بكل ثبات: لا يمكن ان نتخلى عن هذه الآيات الافاقية من خلال الحجج البيّنة القوية التي أقامها موسى (عليه السلام)، والأنفسية

بانبلاج نور الفطرة الذي اضاء قلوبنا ونفوسنا وأوقده موسى (عليه السلام) بكلماته النورانية ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (طه:٦١) وايقظنا من غفلتنا بهيبته وعزة الله التي بها أولياؤه يعتزون والتأييد الذي تعهد به الله تعالى لموسى وأخيه (عليهما السلام) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه:٤٦) فأي تأييد ونصرة أعظم من ان يكون خالق السموات والأرض القوي العزيز حاضراً معهما يسمع كل ما يقال لهما ويرى كل ما يجري عليهما؟ فما قيمة مخلوق بائس ضعيف كفرعون بإزاء هذا؟ مما جعل فرعون الطاغية وشياطينه يتنازلون عن جبروتهم ويقبلون تحدي موسى (عليه السلام) ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه:٥٨) ويجمعون كل امكانياتهم لمواجهته ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه:٦٤) وهو الذي وصف موسى (عليه السلام) في لقائه السابق ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢).

واستمر السحرة في خطابهم لفرعون بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ولذة الانتصار على النفس والشيطان واتصلت أرواحهم بالملأ الأعلى فطهرت من أغلال الجُبُن والطمع والعبودية والذل وتزينت بالتوحيد وبمكارم الشجاعة والمعرفة والتضحية وحب الله تعالى، وحينئذٍ قالوا: فكيف تريد منّا أن نترك كل ذلك ونستمر على طاعتك وعبادتك ومن أجل ماذا؟ متع زائفة زائلة.

وأقسموا على ذلك بالذي فطرهم ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ ويمكن أن تكون الواو عاطفة وليست للقسم، والعطف يمكن أن يكون على مدخول على فيصير المعنى

(لن نؤثرك على الذي فطرنا) وهو الله تعالى، أو يكون العطف على البيّنات، أي بعد ان جاءتنا البينات من موسى (عليه السلام) مضافاً إلى نداء الفطرة الذي استيقظ فينا وهو يدعونا إلى التوحيد والإيمان بالخالق القادر العظيم، ولعلهم أرادوا بضمير الجمع في ﴿فَطَرَنَا﴾ ما يشمل فرعون نفسه بأنك أنت أيضاً لو رجعت إلى فطرتك لوجدتها تدعو بوضوح إلى التوحيد، وعليك الاستجابة لهذا النداء، واستخفوا بتهديداته ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٥٠).

ثم اطلقوا هذه الكلمة البليغة الحكيمة العميقة والحجة البالغة المملوءة بالمعرفة الشامخة ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي فاحكم بما شئت من وعيد وتهديد فان غاية جبروتك وطغيانك هي هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ثم ننتقل جميعاً إلى الله تبارك وتعالى وهو الذي يفصل بين الخصوم ويكافئ المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إسائته وهي حياة خالدة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤) وستكتشف حينئذٍ يا فرعون بؤس الصفقة حيث ضيّعتَ الآخرة الباقية من أجل لذة فانية ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨) وأردفوا كلمتهم بقولهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:٧٣) مما تدعونا إليه من زخارف الدنيا التي كان فرعون قد أستعبدهم بها.

هذه هي الحقيقة التي ثبّتت قلوبهم في ذلك الموقف العصيب المزلزل حيث يقف فرعون بجبروته وقدراته الهائلة وجيوشه الضخمة وهو يزمجر ويلقي التهديدات تأراً لكرامته الجريحة، وامام الحشد العظيم من الناس المغلوبين على

أمرهم حيث سبق الحدث تحشيد اعلامي ضخم وجمعوا السحرة والناس من كل أنحاء البلاد، وحُدِّد للتحدي يوم اجتماع عام للناس وفي ساعة الذروة عند الضحى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (طه:٥٩).

وفي ذلك الموقف العصيب المهول يخرون لله تعالى ساجدين تلقائياً ﴿فَأُلْقِيَ﴾ وقد ملأهم الإيمان والتسليم للنداء الإلهي وأصبح هو الذي يحرّكهم وكأنه من دون إرادتهم ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه:٧٠) وكأنهم أرادوا بالسجود أن يظهروا انقيادهم التام لله تعالى وسط ذلك الجمع الهائل ويتوجهون إلى الله تعالى بكل خشوع ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:٧٣) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٥١) ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٢٦).

الانسان يمكن أن يرتقي الى الكمال بلحظة:

إن هذه الانعطافة الكبيرة في حال السحرة تشبه المعجزة بل هي معجزة حقاً، فكيف ارتقوا في لحظة من سحرة مشعوذين ماكرين يخدعون الناس عبيد لفرعون الطاغية ويتخذونه إلهاً ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء:٤٤) طمعاً في فتات موائده، إلى هذه القمة السامقة في الإيمان الراسخ المتجذر في قلوبهم بحيث يستقبلون بهدوء وسرور الحكم القاسي بالقتل والصلب والتقطيع ويتخلون عن الامتيازات العظيمة التي وعدهم بها.

وهذه الحادثة العجيبة التي كرّر القرآن الكريم ذكرها في عدة مواضع تزرع أملاً واسعاً في قلوب طالبي الكمال والعاصين على حدِ سواء بإمكان الارتقاء وتحصيل المقامات الرفيعة في لحظة، وعدم اليأس من فضل الله تبارك وتعالى، كما أرتقى الحر الرياحي في لحظة من انحطاط التبعية المهينة لابن زياد إلى الخلود في الشهادة مع الإمام الحسين (عليه السلام).

ونستلهم من هذه الآية الكريمة أيضاً مبدءاً أساسياً أو استراتيجياً كما يقال بأن نجعل كلمتهم النورانية هذه التي حكاها القرآن بنظمه البديع نبراساً في حياتنا لتثبيت قلوبنا على الحق وتهذيب نفوسنا امام وسائل الاغراء والتهديد التي يتعرض له المؤمنون للتنازل عن مبادئهم وثوابتهم الدينية والأخلاقية، بأن غاية تأثير هذه الأمور في نفعها وضرها هي هذه الدنيا الفانية فالصبر عليها هين بتأييد الله تعالى، من وصية الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) لهشام بن الحكم (يا هشام اصبر على طاعة الله، واصبر عن معاصي الله، فإنما الدنيا ساعة)[1]، ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) (الشجاعة صبر ساعة)[2] وشجاعة الموقف قد تكون تجاه النفس الأمّارة بالسوء أو الشيطان أو سائر الأعداء من شياطين الانس والجن.

وهذا المبدأ القرآني كان واضحاً في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه حلال الدنيا الزائد عن الحاجة فضلاً عن حرامها ونحو ذلك، روى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أخبرني حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن جبرئيل (عليه السلام) نزل إليه ومعه مفاتيح كنوز الأرض وقال: يا جبرئيل وما يكون بعد ذلك؟ قال: الموت، فقال: اذاً لا

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥ /ص ٣١١.

(٢) ميزان الحكمة: ح ٩١٥٧.

حاجة لي في الدنيا، دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرع الى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي وأحمده، فقال له جبرئيل: وفقت لكل خير يا محمد)[1].

هذا الموقف منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لمعرفته بحقارة الدنيا وهوانها وعدم استحقاقها للالتفات اليها مهما عظم المعروض منها ولو كان من حلال ولو كان من دون ان ينقص من قدره عند الله تعالى شيء.

وكذلك كان هذا المبدأ القرآني حاضراً في حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وحفلت به كلماته (عليه السلام) فمن خطبة له (عليه السلام) قال بعد أن ذكر حادثة أخيه عقيل عندما طلب منه زيادة على عطائه (وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ[2] طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ[3] فِي وِعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا[4] كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا[5] فَقُلْتُ أَصِلَةٌ[6] أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ هَبِلَتْكَ[7] الْهَبُولُ أَعَنْ دِينِ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي أَمُخْتَبِطٌ[8] أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ[9] أَمْ

(١) بحار الانوار: ٤٢/ ٢٧٦.

(٢) قيل الطارق من يأتي ليلاً.

(٣) نوع من الحلواء.

(٤) أي أبغضتها.

(٥) الريق: اللعاب، والقيء: الرجيع.

(٦) الصلة: العطية كالرشوة.

(٧) أي ثكلتك.

(٨) وهو المصروع وفاقد التوازن.

(٩) أي المجنون.

تَهْجُرُ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ)[1].

ومن كتاب لهُ (عليه السلام) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف يشير فيه إلى فدك وهي الأرض الزراعية الشاسعة التي وهبها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بأمر الله تعالى ثم غصبها أصحاب السقيفة قال فيه (بَلَى! كَانَتْ في أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَد جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا)[2].

فليكن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ مبدأً ثابتاً واستراتيجياً في حياتنا عندما نتعرض لمغريات الدنيا أو تمارس علينا أنواع من الضغوط، فإن هذا المبدأ من القواعد الاساسية التي تستندون اليها في بناء مستقبلكم المعنوي وحياة الاستقامة التي يريدها الله تبارك وتعالى.

ولنتأسَّ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليكن شعارنا «ثم ماذا؟ اليس هو الموت وفناء الدنيا وثرواتها» اذن لا قيمة لها، وكذا لنتخذ من قول أمير المؤمنين (عليه السلام) (ما لعلي ولنعيم يفنى) وقوله (عليه السلام) (وما أصنع بفدك وغير فدك) بوصلة لحياتنا ومنظاراً نرى من خلاله الدنيا ولا أقل من العمل بهذا الشعار عندما تعرض لنا

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، باب المختار من كتبه (عليه السلام)، رقم ٤٥.

معصية والعياذ بالله لان نتيجتها النار.

فلا تغرّنا نحن الحوزة العلمية عناوين برّاقة أو ألقاب علمية أو مواقع مرموقة أو جاه وامتيازات فنخالف أوامر الله تعالى ونرتكب نواهيه في تنافس غير شريف، وهكذا كل إنسان في موقعه، فعندما تميل النفس الى شهوة ونزوة بغير ما أحلَّ الله تعالى كالذي يحصل في أروقة الجامعات او الدوائر الرسمية فليخاطب الشخص نفسه وليقل لها: ثم ماذا؟ وكيف ستكون النتيجة لو انساق وراء الشهوة والنزوة وإذا دعاه غضبه أو أنانيته أو حسده أو حقده لظلم أحد فليكبح جماحه بسؤال ثم ماذا؟ وإذا خدعه موقعه ومنصبه ووظيفته ليمّد يده على المال الحرام أو التجاوز على الحق العام أو الخاص فليتذكر ماذا بعد ذلك: انه الموت.

وبتعبير آخر: أنه عليك ان تحسب النتائج قبل الاقدام على الفعل، فان كانت العاقبة سيئة أو أن الحاصل لا يستحق تبعة هذا الفعل فلا تقدم عليه، لان النتيجة المؤلمة إذا حصلت فان الندامة والتأسف لا ينفعان في إزالتها فتذهب لذة الفعل وما كان يرجو منه وتبقى تبعته وشقاؤه والله المستعان ونسأله تعالى العفة والسداد والورع والاجتهاد في طاعته إنه نعم المولى ونعم النصير.

القبس /١٢٨

سورة طه: ﴿١١٤﴾

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

أدب طلب العلم:

قال النبي (صلى الله عليه وآله): (أدبني ربي فاحسن تأديبي)[١] ومما أدّب الله تعالى به نبيه (صلى الله عليه وآله) قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) وقد اخذ النبي (صلى الله عليه وآله) بهذا الادب وسائر الآداب الربانية فكان يطلب الزيادة في العلم باستمرار ويدعو (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال)[٢] حتى روي عنه قوله (صلى الله عليه وآله): (اذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم)[٣].

التأسي بطلب العلم:

وإذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) في مقامه السامي يطلب الزيادة باستمرار فنحن اولى، مضافاً الى أننا مأمورون بالتأسي بالنبي (صلى الله عليه وآله) وهذا الادب الشريف منه، فالازدياد مطلوب في كل زمان وفي كل مكان حيث يوجد علم نافع، ويبقى الانسان طالب علم وإن حاز على أعلى الالقاب العلمية ولا معنى للتخرج وإنهاء الدراسة أو التعطيل إلا بالتحول من مجال الى مجال انفع منه، وإلاّ حُرمنا من

(١) الكافي: ١/ ٢٦٦/ ح ٤.

(٢) الدر المنثور: ٤/ ٣٠٩.

(٣) كنز العمال: ١٣٦/١٠/ ح ٢٨٦٨٧.

البركة التي أشار إليها النبي (صلى الله عليه وآله) في حديثه المتقدّم؟

في قوله تعالى: وقل ربّ

وأوّل ما يستوقفنا في هذا الأدب الإلهي استعمال لفظ الرب في الدعاء من دون الأسماء الحسنى الأخرى، لإلفات نظر الداعي إلى هذه العلاقة الوجدانية الحميمة والعناية التربوية الخاصة التي يوليها الله تعالى لعبده، ولاستدرار الرحمة والشفقة الإلهية الخاصة، لان لفظ الربوبية دال على التربية والاعتناء بإنشاء الشيء وصناعته ورعاية صلاحه حالاً بعد حال إلى أن يبلغ تمامه، هذه العلاقة التي يفتخر بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في مناجاته (إلهي كفى بي عزّاً أنْ أكُونَ لَكَ عَبْداً، وَكَفى بِي فَخْراً أنْ تَكُونَ لِي رَبّاً)[1] بينما الذل والصغار في اتخاذ الهة وارباب مزيفين تصنعها أوهام البشر.

وفي ذلك درس حاصله ان من اهم وظائف العلماء والحكام والمسؤولين والمربّين واولياء الأمور في الاسرة والمجتمع هي تعليم الناس وتثقيفهم وتبصرتهم بالامور حتى يكون سلوكم رشيداً، وذكر ذلك امير المؤمنين وهو يعدّد واجبات الإمام تجاه الأمة (وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيلا تعلموا)[2].

في معنى أن الآية لسانها الدعاء:

والدعاء الذي ورد في الآية الكريمة، وكلّ دعاء ليس مجرد كلمات تُحرَّك بها اللسان وانما يعبِّر عن أهداف وطموحات وغايات يريد الانسان ان يصل اليها

(١) مفاتيح الجنان: ١٧٩.

(٢) نهج البلاغة: ٨٤/١ خطبة ٣٤.

ويحققها بلطف الله تعالى وتوفيقه فعليه ان يهيئ المقدمات ويتخّذ الاسباب الموصلة الى الغاية، فعندما يطلب الانسان الزيادة المستمرة في العلم عليه ان يسعى لتحصيل هذا العلم من مصادره الطبيعية من خلال المطالعة والاستماع الى كل معلومة نافعة ومن خلال التلقي ممن عنده هذا العلم والاستفادة منه كما هو شأن الجامعات والمعاهد والمدارس والحوزات العلمية وامثالها، والدعاء يكون حينئذٍ طلباً من الله تعالى لتيسير هذه الأسباب الطبيعية لتحصيل العلم.

لا تغفلوا عن العلم الغيبي:

وهذه هي المصادر البشرية للزيادة من العلم أي العلم المكتسب من الآخرين، ونغفل عن المصادر الغيبية أو الالهية للازدياد من العلم وهي مصادر أوسع وأنقى وأثبت وأعمق وأكثر تأثيراً والذي سنسمع وصف النبي (صلى الله عليه وآله) له بأنه لا جهل معه، كمن يريد ان يسقي أرضه الزراعية فتارةً يفتح لها قناة تأتيه بالماء من النهر مع ما يَحمل في طريقها من الأوساخ والأوبئة، وأخرى يفجر من الارض ينبوعاً صافياً نقياً، فكذلك القنوات التي تغذّي العقل والقلب بماء العلم والمعرفة فإنها تارة تؤخذ من الآخرين، وتارة تتفجّر من باطن الانسان، وقد فُسِّر قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) بالعلم ممن يأخذه لأن العلم غذاء الروح، ففي الكافي عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) قلت:ما طعامه، قال (عليه السلام):علمه الذي يأخذه عمّن يأخذه)[1].

(١) الكافي: ١/٣٩/ح٨.

مصادر العلم الغيبي:

ومن هذه المصادر:

١- **التقوى:** قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢) فالتعليم الالهي يتعقب التقوى وهو العلم اللدني الذي ورد في قوله تعالى ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:٦٥) وعن النبي (صلى الله عليه وآله) (لو خفتم الله حق خيفته لعُلّمتم العلم الذي لا جهل معه)[١] وهو العلم اللّدني.

قال الشاعر:

شكوتُ الى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني الى ترك المعاصي

وعلّلــه بــأن العلــم نــورٌ ... ونــور الله لا يــؤتى لعاصــي[٢]

وكلما أزداد الانسان تقوى وابتعاداً عما يُسخط الله تعالى وعملاً بما يرضيه كان أكثر انفتاحاً على الاسباب الالهية وكانت مرآته أصفى وأنقى فتنعكس فيها حقائق العلوم حتى تبلغ الذروة عند المعصومين (عليهم السلام)، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (قال:ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور قلت:كيف ذلك؟ جعلت فداك قال:إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله (صلى الله عليه وآله) العرش ووافى الائمة (عليهم السلام) ووافيت معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لنفد ما عندي)[٣] وسُئل الإمام

---

(١) كنز العمال: ١٤٢/٣/ ح٥٨٨١.

(٢) يُنسب هذا الشعر الى الشافعي. أنظر: تفسير الآلوسي: ٩٠/٦.- موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني:٤٨٠/١

(٣) اصول الكافي : ج١ كتاب الحجة، باب في أن الائمة (عليهم السلام) يزدادون في ليلة الجمعة، ح٣.

الصادق (عليه السلام) (إنا نسئلك احياناً فتسرع في الجواب وأحياناً تطرق ثم تجيبنا ؟ قال:نعم انه ينكت في أذاننا وقلوبنا فاذا نكت نطقنا وإذا امسك عنا أمسكنا)[١] وهذا المصدر هو الذي يفسر الظاهرة الغريبة التي بدأت مع الإمام الجواد (عليه السلام) وولده الإمام الهادي (عليه السلام) بقيامهما بأعباء الإمامة وقيادة الأمة ومناظرة العلماء في مختلف الفنون وهما صبيان في الثامنة من العمر وعجز الاخرون عن تفسيرها لعدم إيمانهم بالعقائد الحقة.

٢- **من خلال العمل به**، فان العمل بما تعلم وتطبيقه ينتج علما جديدا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (من تعلّم فعمل علّمه الله ما لم يعلم)[٢] فهذه إذن زيادة في العلم حصل عليها من خلال العمل بما علم، وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال (ما زكا العلم بمثل العمل به)[٣] وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (من عمل بما يعلم علّمهُ الله ما لا يعلم)[٤] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (العمل مقرون الى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم)[٥].

وهكذا تستمر جدلية التأثير والترابط بين العلم والعمل، زيادة ونقصاً، فمن عمل بالعلم ازداد،ومن لم يعمل بعلمه يفقده، عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال:(مَنْ عَلِمَ عَمِلَ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَل فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاّ ارْتَحَلَ)[٦].

---

(١) بصائر الدرجات:.٣٣٦.

(٢) كنز العمال: ١٣٢/١٠/ ح ٢٨٦٦١.

(٣) غرر الحكم: ٩٥٦٩.

(٤) اعلام الدين: ٣٠١.

(٥) منية المريد : ١٨١.

(٦) نهج البلاغة: ٣٦٦.

وهذه الحقيقة جارية في كل المجالات فمن اكتسب معلومة اخلاقية وعمل بها سيوفق الى درجة أعلى، ومن استفاد نظرية علمية اكاديمية ثم اجرى تجارب ومحاولات عليها فانه سيتوصل الى نتائج ومعلومات جديدة، حتى على مستوى الطالب الذي يطالع دروسه فانه عندما يلخصّ ويستذكر ويخطّط ويرسم او يحلّ المسائل الرياضية بيده يحصل على معلومات لا يحصل عليها من يكتفي بمطالعة الكتاب.

٣- **ومن خلال إنفاقه اي نشره وتعليمه** من لا يعلمه بأيّ وسيلة للنشر التي اتّسعت اليوم وأصبح بإمكان الشخص أن يخاطب الآخرين في العالم كله، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد وهو يقارن بين المال والعلم قال (عليه السلام) (وَالْمَالُ تُنقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ)[1] والتجارب اثبتت ايضا صحة هذا المسلك فأن من يتصدى للتدريس وتعليم الاخرين وينشر ما عنده من العلم فانه يشعر بزيادة في العلم لم يحصّلها من احد، عن الإمام الحسن (عليه السلام) قال (علّم الناس، وتعلّم علم غيرك، فتكون قد اتقنت علمك، وعَلِمْتَ ما لم تعلمْ)[2] هذا غير الثواب الكثير لمن علّم الناس شيئا ينتفعون به ولو كان حديثاً شريفاً أو مسألة شرعية أو عملاً صالحاً أو... وقد وردت في ذلك روايات كثيرة نكتفي بواحدة منها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (يجيء الرجل يوم القيامة وله من الحسنات كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربِّ أنّى لي هذا ولم أعملها ؟

(١) نهج البلاغة: ١٤٧.

(٢) كشف الغمة: ح١٩٧/٢.

فيقول: هذا علمك الذي علّمته الناس، يُعمل به من بعدك)[١].

وقد جُمع هذان المصدران للمعرفة في الحديث الشريف عن الإمام (عليه السلام).الصادق عن ابيه (عليه السلام) قال: (جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع له، قال:ثم مه؟ قال: الحفظ له، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه؟ قال: ثم نشره)[٢].

فهذه هي مراحل تحصيل العلم وازدياده: الإنصات للمعلومة والإصغاء اليها ووعيها ثم حفظها واستيعابها ثم العمل على طبقها وتحويلها الى الواقع ثم نشرها وتعليمها للآخرين.

في معنى قوله تعالى: (زِدْنِي):

ويظهر من كلمة ﴿زِدْنِي﴾ وتعقب هذه الفقرة لقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه:١١٤) إن الحصول على هذا العلم تدريجي فكلما وصل الى مرتبة وحفظها وعمل بها أُعطيت له مرتبة جديدة فاذا حفظها وعمل بها أستحق الاعلى وهكذا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)، وهذه نتيجة صحيحة إذ ان العلم لا يهجم دفعة واحدة من غير توفر القدرة على تحمله، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (من زاد علمه على عقله كان وبالاً عليه)، وقال (عليه السلام) (كل علم لا يؤيده عقل مظلّةٌ)[٣].

---

(١) بحار الانوار: ١٨/٢/ح ٤٤.

(٢) الكافي – الشيخ الكليني: ٤٨/١./ح ٤.

(٣) غرر الحكم: ٨٦٠١/ ٦٨٦٩.

في معنى قوله تعالى: (علما):

هذا بالنسبة لزيادة العلم، اما كلمة (علم) فنلاحظ فيها انها مطلقة فالزيادة مطلوبة في كل علم ولا تختص بالعلوم الشرعية، نعم لابد من تقييدها بالعلم النافع في الدنيا او الاخرة اي فيه صلاح الناس كما ورد في الدعاء النبوي المتقدم في بداية البحث، وعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال (خير العلوم ما اصلحك)[1] وعنه (عليه السلام) قال: (خَيرُ الْعِلْمِ ما أَصْلَحْتَ بِه رَشادَكَ وَ شَرُّهُ ما أَفْسَدْتَ بِه مَعادَكَ) وعنه (عليه السلام) قال: (رب علم أدّى الى مضلّتك)[2].

لذلك نجد في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) انه كما كان يدرّس العلوم والمعارف الدينية فانه كان يدرّس العلوم الطبيعية فتخرج على يديه جابر بن حيان في الكيمياء وله كتاب في الفسلجة يشرح فيه تشريح جسم الانسان ووظائف الاعضاء باسم توحيد المفضّل وتوجد روايات في الحساب والفلك وغيرهما.

ولأن العمر قصير لا يتيسر معه الاحاطة بكل العلوم فضلاً عن العمل بها لذا لابد من الاقتصار على الافضل والاحسن والاكثر صلاحاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (العلم أكثر من ان يُحصى، فخذ من كل شيء أحسنه)[3] وفي حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (خذوا من كل علم أحسنه، فان النحل يأكل من كل زهرة أزينه، فيتولد منه جوهران نفيسان:احدهما فيه شفاء للناس، والاخر يستضاء

(١) غرر الحكم: ٤٩٦٣/ ٥٠٢٣.

(٢) غرر الحكم: ٥٣٥٢.

(٣) كنز الفوائد- أبو الفتح الكراجكي: ١٩٤.

به)[١].

وأنفس العلوم وأشرفها وأهمّها المعارف الدينية من العقائد والأخلاق والأحكام لأنها اكثر التصاقا بعلاقة الانسان بربّه ودينه وما يضمن له السعادة في دنياه واخرته، من وصية الإمام علي لولده الحسن (عليه السلام) (ورأيت ... ان ابتدأك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الاسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا اجاوز ذلك بك الى غيره)[٢].

الدعوة الى أن تكونوا من حملة العلم:

في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) (عليكم بالتفقّه في الدين، ولا تكونوا اعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزكِّ له عملاً) وعنه (عليه السلام) قال (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقّهوا)[٣].

فإذا نال قسطاً وافراً من العلم بالمقدار الذي يستطيع به إرشاد الناس وهدايتهم كان من أهل الحديث الشريف عن الإمام الجواد (عليه السلام) (من تكفّل بأيتام آل محمد (صلى الله عليه وآله) المنقطعين عن امامهم المتحيرين في جهلهم الأُسراء في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فأستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين برد وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليُفضَّلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على

---

(١) غرر الحكم: ٥٠٨٢ - نهج البلاغة.

(٢) جواهر البحار: ج٧٤/ كتاب الروضة / باب وصية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي (عليه السلام) وإلى محمد بن الحنفية عن نهج البلاغة.

(٣) أصول الكافي/ ج١، كتاب فضل العلم، باب١/ ح٧، ٨.

الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء،وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء)[1].

هذا الخير الذي لا يضاهيه خير في هذه الدنيا طالما دعانا الله تعالى اليه في كتابه، وحثّنا عليه الأئمة المعصومون (عليهم السلام)، وتبعاً لذلك فقد طالبنا كل ذوي العقول النيرة والهمة العالية والشعور بالمسؤولية أن يرتبوا أوضاعهم ويهيئوا المقدمات للالتحاق بالحوزات العلمية الدينية ويحظون بهذه المقامات العالية.

وينبغي هنا الالتفات إلى حقيقة وهي أنه كلما أزداد اهتمام الله تعالى في كتابه والمعصومين (عليهم السلام) بشيء فهذا يعني أن مدخليتهُ في التكامل والقرب من الله تعالى أقوى، والاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف الدينية بلغت الذروة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) وأحاديث الائمة (عليهم السلام) بحيث تجاوزت المئات في كل منهما، فلابد أن نفهم ونستوعب هذه الرسالة من الله تعالى ورسوله وأهل بيته الكرام (عليهم السلام).

(١) بحار الانوار: ٦/٢ عن الاحتجاج وتفسير العسكري (عليه السلام).

القبس/١٢٩

سورة طه: ﴿١٢٤﴾

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾

موضوع القبس: الاعمى من لم يبصر طريق الهداية

عميت عين لا تراك:

من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة وهو يناجي ربه بكل تذلّل وخضوع (عميت[1] عينٌ لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيبا) وهاتان الفقرتان فضلاً عن بقية فقرات الدعاء تزوّدنا بقواعد في السلوك المعنوي إلى الله تبارك وتعالى، وتدلّنا على الجناحين اللذين نطير بهما في سماء الكمال ومعرفة الله تعالى وبلوغ رضوانه وهما المراقبة والحب، مراقبة الله تعالى في كل الأفعال والأقوال والمواقف، واحتواء القلب على محبة الله تعالى حتى يكون هذا الحب هو البوصلة الموجّهة لكل الحركات والسكنات، وبالحب والمراقبة تتحقق التقوى التي هي خير الزاد ليوم المعاد ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ﴿١٩٧﴾).

فالشخص الذي يفعل ما يحلو له من دون إحساس وجداني بأن الله تعالى مطّلع عليه وأنه بمحضر رب العزة والجلال دائماً ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ﴿١٩﴾) ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾

---

(١) العبارة تحتمل أن تكون إخباراً عن العين والصفقة بأنّهما تعمى وتخسر وقد تكون إنشاءاً بمعنى الطلب من الله تعالى أن يعمي العين ويخسر الصفقة وكلاهما وارد.

(آل عمران:٥) ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فَى الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم:٣٨) مثل هذا الشخص لا يبصر الحقيقة وهو أعمى البصيرة وإن كانت له عينان تبصران:﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩) ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ (الإسراء:٩٧).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه:١٢٤-١٢٦).

عقوبة الإعراض عن ذكر الله تعالى:

فمن يعرض عن ذكر الله تعالى ويهمل وظائف العبودية لربه تحصل له عقوبتان:

الأولى: المعيشة الضيقة النكدة المليئة بالقلق والخوف وعذاب الضمير ويزداد هذا الضيق قسوة عليه عند الموت وما بعده في القبر والبرزخ.

الثانية: يُحشر يوم القيامة أعمى لا يرى طريق السعادة والنجاة ورضوان الله تعالى وإن كان يرى العذاب والألم والأهوال أي أنّ عماهُ ليس مطلقاً وإنّما عن خصوص ما ينجيه ويوصله إلى السعادة والفلاح أمّا العذاب والألم والمصير

المشؤوم فإنّه يراه ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان:٢٢) ﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾ (يونس:٥٤) (سبأ:٣٣) ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى:٤٤) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾ (البقرة:١٦٦) لأنه كان هكذا في دار الدنيا، كان معرضاً عن الهداية والرشد ولا يرى طريق السعادة لكنّه كان يبصر الشهوات والهوى والدنيا فتجلّت حقيقته في الآخرة كما اختار هو في الدنيا ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٧٢) وبهذا نردّ على إشكال بعض متحذلقة الكلام بوجود تناقض في القرآن الكريم بين آيات الإبصار والرؤية وآيات العمى.

ولأنّ هذا الشخص نسي ذكر ربه وأعرض عن آياته وأهملها فكان جزاؤه يوم القيامة أن يُنسى بمعنى يهمل ولا يلتفت إلى استغاثته وندائه واستصراخه كما يقول أحدنا لمن أهمله ولم يلتفت إليه إنك نسيتني، فقد جوزي إذن بنفس فعله ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى:٤٠) روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (ليس الأعمى من يعمى بصره، إنما الأعمى من تعمى بصيرته)[١] والثاني أشد من الأول روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (فقد البصر أهون من فقدان البصيرة)[٢].

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم: ٦٥٣٦.

هل أنت من أهل البصيرة؟

وتدلّنا الروايات على بعض علامات أهل البصيرة، كالمروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)[١] وعنه (عليه السلام) (ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفُه)[٢].

ومن موجبات النور في الدنيا والآخرة بحسب ما أفادت الروايات الشريفة:

١- **تقوى الله تعالى** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨).

٢- **الصلاة**، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (الصلاة نور)[٣].

٣- **تلاوة القرآن**، عنه (صلى الله عليه وآله) (عليك بتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض، وذخرٌ لك في السماء)[٤] وعن الإمام الحسن (عليه السلام) (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور)[٥].

٤- **صلاة الليل**، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ما تركتُ صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (صلى الله عليه وآله):صلاة الليل نور)[٦].

---

(١) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.

(٣) مسند أبي يعلى: ٦/ ٣٣٠/ح ٣٦٥٥.

(٤) حلية الأولياء- الأصبهاني: ١٦٨/١.

(٥).بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٣٢/٨٩/ ح ٣٥.

(٦) المناقب- ابن شهر آشوب: ١٢٣/٢.

٥- **ترك فضول الكلام** وهو مادة أكثر أحاديث الناس في مجالسهم، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أكثر صمتك يتوفر فكرك، ويستنر قلبك ويسلم من يديك)[١].

٦- **تجنب ظلم الآخرين**، والآخرون المقصودون بالظلم يمكن أن يكونوا الوالدين أو الزوجة أو الأولاد أو الجيران لتضييع حقوقهم أو عموم الناس عند عدم مراعاة الحق والعدل والإنصاف معهم، روي أن رجلاً قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله): أحبُّ أن أحشرَ يوم القيامة في النور، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا تظلم أحداً تُحشر يوم القيامة في النور)[٢].

٧- **أن تشهد بالحق للآخرين وتنصفهم**، على أي مستوى من المستويات كما لو أريد منك الشهادة لأحد بالصلاح وحسن السيرة لتزويجه أو بحق مالي له أو أي حق اعتباري آخر عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (من شهد شهادة حق ليحيي بها حق امرئٍ مسلم أتى يوم القيامة ولوجهه نورٌ مدَّ البصر يعرفه الخلائق باسمه ونسبه)[٣].

٨- **الدعاء**، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفه:لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي قلبي نوراً، اللهم اشرح لي صدري ويسّر لي أمري وأعوذ بك من وسواس الصدور

---

(١).غرر الحكم - الآمدي: ٢١٦/ح٤٢٥٢.

(٢).كنز العمال- المتقي الهندي: ١٢٨/١٦.

(٣).الكافي للشيخ الكليني: ٣٨٠/٧/ح١.

وتشتت الأمور)[1].

موجبات العمى:

أما ما يوجب العمى يوم القيامة هو كل إعراض وصدود عن شرع الله وحكمه وعدم العمل بكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) في كل شؤون الحياة مما أصبح مألوفاً اليوم في الأسواق ومعاملاتنا التجارية وفي السنائن العشائرية وفي العلاقات الاجتماعية وفي السياسة والحكم وإدارة مؤسسات الدولة وغيرها كثير.

ولكل شريحة في المجتمع امتحانها وابتلاؤها بآيات الله التي يلزم العمل بها فلرجل الدين والطبيب والمدرّس والمهندس والكاسب والزوجة والابن والوالدين وغيرها من العناوين له الآيات والأحاديث التي تخاطبه وتنطبق عليه قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ (طه:١٢٦) حيث بلغه تكليفه والمطلوب منه، عن النبي (ﷺ):(ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول:﴿...رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ (طه:١٢٥))[2].

وقد علّمنا هذا الحديث وكلمة الإمام الحسين (عليه السلام) السابقة المدى الواسع لمن يمكن أن تشملهم الآية وأنّه لا أحد –حتى الملتزمين بأداء العبادات الدينية– بمنأى عن حشرهم عمياً إذا لم يكونوا مراقبين لله تعالى متّقين عاملين بشكل تفصيلي بآيات الله تعالى.

وهذا يفسّر لنا لماذا يطلب الأئمة (عليهم السلام) منّا أن نشعر بأنّنا مشمولون بكل

---

(١).السيرة النبوية – ابن كثير: ٣٥٠/٤.

(٢) ثواب الأعمال: ٣٣٧/ ح١.

آية فيها تخويف وإنذار وتهديد وأنّها ليست مقتصرة على الكافرين والمشركين والمنافقين، ففي وصف سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) أنّه كان ((يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مرّ بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوّذَ من النار))[1] وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله في صفة الذين يتلون حقّ تلاوته (ويرجون وعده ويخشون عذابه)[2] ونعود الآن إلى ذكر بعض الروايات التي شخّصت بعض موارد هذا الإهمال للأوامر الإلهية الموجب للعمى ومنها:

١- **عدم التمسّك بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)** ، عن الصادق (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ (طه:١٢٤) قال (عليه السلام):يعني ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) وعن قوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه:١٢٤) قال (عليه السلام): (يعني أعمى البصر في القيامة أعمى القلب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو متحيّر يوم القيامة يقول ﴿...رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ (طه:١٢٥-١٢٦) قال: الآيات الأئمة (عليهم السلام) ﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه:١٢٦) يعني تركتها، وكذلك اليوم تترك في النار كما تركت الأئمة فلم تطع أمرهم ولم تسمع قولهم)[3].

٢- **ترك الحج وهو مستطيع** عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (من مات وهو صحيح موسر ولم يحج فهو ممن قال الله عز وجل ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤)، قال أبو بصير: قلت:سبحان الله:أعمى قال: نعم إن الله عز وجل

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١٨٢/٢/ ح٥.

(٢) تنبيه الخواطر: ٢/ ٢٣٦.

(٣) الكافي: ١/ ٣٦١/ ح٩٢.

أعماه عن طريق الحق)[1].

(١) الكافي: ٤/ ٢٦٩/ ح٦.

القبس/١٣٠

سورة طه:﴿١٣١﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

موضوع القبس: الطمَع يورث الشقاء

مدّ العين تعبير مجازي عن إطالة نظرها إلى الشيء وامتلائها منه وتركيزه إليه، وزهرة الحياة الدنيا أي متاعها وزينتها، كالأموال والبنين والأزواج والعقارات والسلطة والجاه والصحة والرفاهية وغيرها، وذكروا في نصبها عدة وجوه ككونها مفعولاً به لـ﴿مَتَّعْنَا﴾ بمعنى جعلنا، أو أنها بدل الهاء في ﴿بِهِ﴾ على الموضع كما تقول: مررت به أخاك، أو أنها ((حال من الضمير في ﴿بِهِ﴾ أي متعنا به حال كونه زهرة الحياة الدنيا، أو إنه منصوب على أنه تمييز من الضمير، وتكون إشارة إلى أن التمتع إنما يتحقق من زهرة الحياة الدنيا فقط وليس له حقيقة))[1].

فالآية الكريمة فيها كناية عن النهي عن إطالة النظر إلى ما عند الآخرين من متاع الدنيا نظرة تعلق وحب وانبهار وإعجاب وتعظيم، وكأنَّ الحصول على هذه الأمور الدنيوية هي غاية المنى كالتي حكاها الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص:﴿٧٩﴾)، لأن الدنيا مهما تكن كبيرة وواسعة وتملأ العين

(١) التحقيق: ٤/ ٣٧٧.

إعجاباً فإنها إلى زوال فلا قيمة لها إلا بمقدار ما يقدّم الإنسان منها لآخرته، لذا شبّهها بالزهور الجميلة المتفتحة المملوءة حسناً إلا أنها سريعة الذبول والتلف، فهم وإن تمتعوا وشعروا بلذّة آنية إلا أنها ستؤدي بهم إلى عاقبة سيئة.

مضافاً إلى أن الله تبارك وتعالى ما ترك أولئك العصاة يتمتعون بهذه النعم إلا لتكون فتنة لهم حتى يختبر تصرفهم فيها ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢) ولتتم الحجة عليهم وتقطع أعذارهم ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٥) وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه، والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم)[١].

ولولا هذه السُنة الإلهية لما استحق غير المؤمن شيئاً من هذه الدنيا، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (... لو أن الدنيا كانت تعدل عند الله (عز وجل) جناح بعوضة ما سقى الكافر والفاجر منها شربة من ماء)[٢].

فالدنيا لا تستحق كل هذا الاهتمام وشغل الفكر بما عند هذا وذاك؛ فإنه يوجب زيادة الهم ويشغل عما يجب أن يكرِّس الإنسان حياته لتحصيله وهو رضا

---

(١) نهج البلاغة: قصار الكلمات، رقم ٩٣.

(٢) الأمالي – الشيخ الطوسي: ٥٣١.

الله تبارك وتعالى: (وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ...)[١].

وفي مدّ البصر هذا باب للشيطان يدخل منه إلى أعماق النفس ليثير فيها عدم الرضا بما قسم الله تعالى والسخط على قضائه وقدره عندما يقيس نفسه بالمترفين ويزهده فيما عنده من النعم، ويصبح ناقماً على ربّه وعلى الناس وينكّد حياته ويعلّقه بالأماني الباطلة، قال الإمام الصادق (عليه السلام) (تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خُوِّلْتم وتستصغرون بها مواهب الله عندكم وتُعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم)[٢] فيُسلَب نعمة الشكر وحينئذ يمنع من الزيادة وتزول النعمة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (النعم تدوم بالشكر)[٣]، وروي عن الرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال: بركات الأرض)[٤].

فالأحجى بالعاقل أن يرضى بما عنده ويسأل الله تعالى من فضله، ويشكر الله تبارك وتعالى ويصبر على ما حُرم منه، ولينظر إلى ما عند الله تعالى لا إلى ما عند الناس، فإن كل هذه النعم من رزق الله تعالى، وحينئذ يفوز برضوان الله تعالى وكرامته وسعادة الدنيا والآخرة وهذا ما تلفت الآية الكريمة إليه في نهايتها ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣١)، وبقرينة مقابَلتها مع متاع الدنيا قد يكون

(١) دعاء مكارم الأخلاق: من أدعية الصّحيفة السّجادية.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢/ ٣٩.

(٣) غرر الحكم: ١/ ٣٦/ ح ١١٣٠.

(٤) الدر المنثور: ٣١٣/٤.

المراد به رزق الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص:٦٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى:٤).

وبهذا فإن في الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه عن فقرهم وحرمانهم وهم يرون ما يتمتع به طواغيت قريش من الترف والحياة المرفهة والنعيم الذي لا يحصى، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جالساً ثم قال: من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن أتبعَ بصرَه ما في أيدي الناس طال همه، ولم يشفِ غيظَه، ومن لم يعرف أن عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب قصُر أجله ودنا عذابه)[1]، فمن سفه التفكير ونقصان العقل أن يظّن أن النعم مقصرة على المأكل والمشرب والمسكن ونحو ذلك والغفلة عن النعم الآخرى خصوصاً المعنوية كالأيمان والعمل الصالح وولاية أهل البيت (عليهم السلام) فأنها لا تعدلها نعمة[2].

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٦٦.

(٢) عن الإمام الهادي (عليه السلام) عن ابائه عن موسى بن جعفر (صلوات الله عليهم أجمعين) قال (إن رجلا جاء إلى سيدنا الصادق (عليه السلام) فشكا إليه الفقر، فقال (عليه السلام): ليس الامر كما ذكرت وما أعرفك فقيراً. قال – الفقير ظناً منه ان الإمام (عليه السلام) يكذبّه فيما ادعى من الفقر –: والله يا سيدي ما استبنت – أي ما حققتَ في حالي وما استوضحتها لتتأكد من صدق كوني فقيراً – وذكر من الفقر قطعة والصادق (عليه السلام) يكذبه، إلى أن قال (عليه السلام) له: خبّرني لو أعطيت بالبراءة منّا مائة دينار – والدينار يساوي مثقالاً من الذهب – كنت تأخذ؟ – أي تتبرأ من ولايتنا بهذا الثمن – قال: لا – وبدأ الإمام يزيد المبلغ – إلى أن ذكر الإمام (عليه السلام) ألوف الدنانير والرجل يحلف أنه لا يفعل، فقال (عليه السلام) له: من معه سلعة يعطى بها هذا المال وهو لا يبيعها هل هو فقيرا!) (الأمالي – الشيخ الطوسي: ٢٩٧/ ح ٥٨٤).

وروى في الدر المنثور عن أبي رافع قال: (أضاف النبي (صلى الله عليه وآله) ضيفاً ولم يكن عند النبي (صلى الله عليه وآله) ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من اليهود أنْ بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برَهنٍ، فأتيت النبي (صلى الله عليه وآله) فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه، اذهبْ بدرعي الحديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ...﴾ كأنه يعزيه عن الدنيا)[1].

والآية الكريمة تقدّر نزوع الغريزة الإنسانية إلى نعم الدنيا وميلها إليها ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤) لذلك فهي لا تنهى عن هذا الميل الغريزي بل تحث الآيات الكريمة على السعي للحصول عليه من مصادره المشروعة ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (الملك:١٥)، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء:٣٢) واستثماره في موارده المحلّلة، وإنما تنهى عن التعلق بالدنيا والتأسف لفوت شيء منها والتقاتل عليها وتضييع العمر في طلب فضولها.

وقد خوطِب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا التأديب وهو محرز فيه، لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) شرطوا لله تعالى على أنفسهم الزهد في الدنيا (إذ اخترتَ لهم جزيل ما عندك، من النعيم المقيم، الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك، وعلمت

(١) الدر المنثور: ٤/ ٣١٣.

منهم الوفاء به)[1]، ولكن من باب إياك أعنى واسمعي يا جارة لكي يعرف أهل الرئاسة الدينية والدنيوية، وأولياء الأمور أنهم أولى بهذا التوجيه وعدم الانبهار بما مُتِع به الآخرون لأنه سيؤثر سلباً على بصيرتهم ورؤيتهم للأمور وعلى قراراتهم وقد يجامل أحدهم ويصانع ويتنازل عن بعض مبادئه طمعاً بما عند الآخرين، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (الطمع يُذهب الحكمة من قلوب العلماء)[2]، وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إن الصفاة الزَلال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء: الطمع)[3].

ويجب التفريق بين ما نهت عنه الآية الكريمة، والسعي إلى تحصيل نعم الله تعالى المتنوعة والتي سمّاها تعالى خيراً ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ (البقرة:١٨٠) وفضلاً ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة:١٠)، والاستفادة منها في قنواتها المشروعة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

وليس كل طمع مذموم فإنّ الطمع في كرامة الله تعالى ونيل المقامات الرفيعة عنده سبحانه من المكارم قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (المائدة:٨٤).

---

(١) مصابيح الجنان: ١٦٠، من دعاء الندبة.

(٢) كنز العمال: ٧٥٧٦.

(٣) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ١/ ٥٧.

والآية الكريمة تعالج في الإنسان مرضاً نفسياً وهو عدم القناعة بما عنده، واجتماعياً وهو الطمع بما عند الناس والرغبة في الحصول على مثل ما عندهم بأن تكون له أموال ضخمة وعقارات وسيارات فارهة كهذا، وأزواج وبنين كذاك وغير ذلك، ويقضي حياته بالتأسف والحسرات، وقد يتحول إلى الحسد والبغي على الآخرين ومحاولة تحصيل تلك الأمور الدنيوية بطرق غير مشروعة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ثمرة الطمع الشقاء)[1]، وقال (عليه السلام): (ثمرة الطمع ذل الدنيا والآخرة)[2]، وقال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): (ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذله)[3].

وقد لا يكون هو مبتلى بهذا المرض الخطير لكن أهله كوالديه وزوجته وأولاده يضغطون عليه ويحرضونه وينتقصون منه لأنه ليس كالآخرين، وهو وجه لما في الآية الكريمة التالية من الأمر بالصبر والصلاة وعلى نحو قوله الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة:٤٥) وأن لا يتأثر بضغوط الأهل بل يكون هو المؤثر فيها ويقودهم نحو الخير قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه:١٣٢).

وهذا كله نتيجة ضعف النفس والجهل بأن ما عند هؤلاء المترفين وبال عليهم في الدنيا لأنه موجب للهمّ والعداوات والصراعات ومَشغَلة للفكر في الدنيا،

---

(١) غرر الحكم: ٤٦٠٩.

(٢) غرر الحكم: ٤٦٣٩.

(٣) بحار الانوار: ٧٨/ ٣٧٤/ ح٣٥.

وسوء العاقبة في الآخرة؛ لأن هذه الأمور الدنيوية تكون غالباً من مصادر غير مشروعة، أو أن المتمتع بها لم يؤدِّ ما فيها من حقوق شرعية، أو أنه يصرفها في موارد لا ترضي الله تبارك وتعالى ونحو ذلك، فليعلم من حُرِم من بعض النعم في الدنيا أن ذلك رحمةً به وشفقةً عليه، وإذا رأى ثواب الله تعالى في الآخرة على ذلك الحرمان فسيدرك عظمة نعمة الله عليه.

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مُحذِّراً من الطمع: (إياك واستشعار الطمع، فإنه يشوب القلب شدة الحرص، ويختم على القلوب بطبائع حب الدنيا، وهو مفتاح كل سيئة ورأس كل خطيئة، وسبب إحباط كل حسنة)[1]، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (غشَّ نفسه من شرّبها الطمع)[2]، وقال (عليه السلام): (الطمع رِقٌّ مؤبَّد)[3]، وقال (عليه السلام): (أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع)[4]، وقال (عليه السلام): (مَن لم ينزه نفسه عن دناءة المطامع فقد أذل نفسه وهو في الآخرة أذل وأخزى)[5].

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ٢٧/١٠٠/ ح ٤٠.

(٢) غرر الحكم: ٦٤٠١.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ١٨٠.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٢١٩.

(٥) غرر الحكم: ٨٨٧١.

وقد دعا المعصومون (عليهم السلام) إلى تحرير النفس من هذه الرذيلة قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن أردتَ أن تقرّ عينك وتنال خير الدنيا والآخرة فاقطع الطمع عمّا في أيدي الناس)[1].

والخطوة الأولى في معالجة الطمع هي بالالتفات إلى هذه الحقائق ووعيها ومعرفتها والتبصر فيها، وبإدراك ما في التخلص من الطمع من بركات، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (مَن أراد أن يعيش حرّاً أيام حياته فلا يُسكن الطمع قلبه)[2].

وللوصول إلى هذه النتائج عملياً لا بد من شحذ الهمة والتحلي بالورع قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في علاج الطمع: (ضادّوا الطمع بالورع)[3].

ومن العلاجات العملية معايشة المحرومين والنظر في أحوالهم ومخالطة الصالحين بحيث نهى الله تبارك وتعالى عن صرف النظر عنهم في مقابل النهي عن مد البصر إلى المترفين في ثنائية رائعة قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:٢٨).

---

(١) بحار الأنوار: ٧٣/ ١٦٨/ ح٣.

(٢) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام): ١/ ٥٧.

(٣) غرر الحكم: ٥٩١٦.

القبس/١٣١

سورة الأنبياء:﴿٩٠﴾

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾

موضوع القبس: المسارعة الى الخير

واجعل الحياة زيادة لي في كل خير:

الأدعية الشريفة مدرسة ننهل منها المعارف الحقيقية والدروس التي تنظم حياتنا وتصلح نفوسنا، وليست هي فقط نصوصاً مباركة نقرأها لطلب الثواب الجزيل المرصود لها وإن كان هذا بحد ذاته غرضاً نبيلاً يستحق التعب.

وقد استمعنا الآن بعد صلاة الظهرين دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) الخاص بهذا اليوم الثلاثاء، وكل فقرة منه هي مدرسة كقوله (عليه السلام) (واجعل الحياة زيادة لي في كل خير)[1] ولكي يستجاب هذا الدعاء لابد من عمل الفرد وقبول واستجابة من الله تعالى، ولا يكفي مجرد تحريك اللسان بالكلمات، كمن يدعو بالرزق مثلاً من دون سعي لطلبه، أو يطلب الولد الصالح وهو لا يسعى لاختيار الزوجة الصالحة وهكذا، وإن كان الله تعالى يُنعم على العباد تفضّلاً وابتداءاً من غير استحقاق.

من استوى يوماه:

فيعلمنا الإمام (عليه السلام) في الدعاء أن نجعل بتوفيق الله تعالى وكرمه ورحمته حياتنا كلها خيراً وعطاءاً ونفعاً للنفس وللأهل وللآخرين، وفي زيادة مستمرة من

(١) مفاتيح الجنان: ٥٢.

التزود والخير من دون توقف الذي يعني هدر رأس المال الذي منحنا إياه وهو العمر وسائر النعم الإلهية من دون استثمار، فضلاً عن الرجوع إلى الوراء والخسارة باجتراح السيئات والعياذ بالله، ويبيّن الحديث الشريف هذه الحالات الثلاث (عن الصادق (عليه السلام) من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان. ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة)[1].

وهذا الطلب أدب قرآني أدّب الله تعالى به نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) قال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه:١١٤) والعلم المراد هو العلم النافع الذي يقترن مع العمل الصالح وفعل الخير وإلاّ فإنه لا قيمة له.

معنى الخير:

والخير الذي يدعو بالزيادة منه هو كل عمل صالح فلا يقتصر على العبادات المعروفة كالصلاة والصوم وقراءة القرآن وزيارة المعصومين (عليهم السلام) وإن كانت هذه من أصول الخير، بل له معنى واسع فالبرّ بالوالدين والإحسان إليهم من أعظم الخير، ومساعدة الآخرين كذلك، والجلوس مع العائلة والتلطّف معهم والتودّد إليهم ومتابعة شؤونهم من الخير، وكسب الرزق الحلال من الخير ففيه التوسعة على الأهل والتصدق في سبيل الله وإغناء النفس عما في أيدي الناس وإخراج الخمس من الفائض عن المؤونة في نهاية السنة وهذا كله من الخير، والزواج خير والإنجاب خير بل من أعظم الخير، ذهابك إلى المسجد والمشاركة في صلاة

(١) معاني الاخبار: ص٣٤٢ باب معنى المغبون.

الجماعة والجمعة وحضورك في الشعائر والفعاليات خير، تفقّهك في الدين وتعلّمك مسائل الحلال والحرام لتصحيح سلوكك خير، اجتماعك هذا مع إخوانك وتبادلكم الأحاديث النافعة في دنياكم وآخرتكم خير يحبّه الإمام (عليه السلام) ويترحم على فاعله، روي أن الإمام الصادق (عليه السلام) قال للفضيل بن يسار (يا فضيل؛ أتجلسون وتتحدثون؟ قال:نعم جُعلت فداك، فقال (عليه السلام):إني أحبّ تلك المجالس، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا)[1].

كيف نحوّل الحياة كلها الى خير؟

وهكذا تستطيع أن تحوّل حياتك كلها إلى مصنع لإنتاج عمل الخير قال تعالى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (المؤمنون:٦١) وقال تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (المائدة:٤٨) حتى الأفعال الاعتيادية كتناول الطعام يكون خيراً لأن فيه حفظ الصحة والتقوّي على طاعة الله والقيام بأعمال الخير، والنوم المقتصد يكون خيراً لأن فيه راحة واستجماماً وتجديد النشاط للاستمرار في الاستزادة من الخير بل يكون النوم شكلاً من أشكال العبادة بحسب ما أفاد الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من تطهّر ثم أوى إلى فراشه بات وفراشه كمسجده)[2]، قد يقول البعض إننا لا نستطيع أن نكون بهذه الفاعلية دائماً لأن غير المعصوم تعتريه الغفلة والنسيان والضعف فيحصل تراجع ولا يمكن أن يكون دائماً في حالة زيادة من الخير، وهذا التساؤل موجود، لكن الله تعالى عالج هذا

(١) بحار الأنوار: ٢٧٨/٤٤، ٢٨٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٦٥/١ باب٩/ ح١.

القصور الذاتي بأكثر من علاج:

١- أن ينوي الإنسان فعل الخير ويعزم عليه كلما تيسّر له، فهذه النية بحد ذاتها خير، وان الله تعالى بكرمه يعطي لصاحب النية الصادقة والعزم الأكيد ما يعطي للعامل كما في الحديث النبوي الشريف (نية المؤمن خير من عمله)[1] وإيجاد هذه النية وهذه الإرادة ليس صعباً على الإنسان فيحصّل بها ما يفوته من الأعمال.

٢- إن الله تعالى تكفّل للإنسان الذي يستيقظ من غفلته ويعود إلى العمل الصالح وفعل الخير عند تذكره والالتفات إليه، أن يمحو كل ذلك التقصير والقصور ويثبّت بدلاً عنه حصيلة هذا الالتفات، قال تعالى:﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) وقال تعالى ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان:٧٠) أي ليس فقط يمحو السيئات بل يبدلها إلى حسنات في صحيفة الأعمال، ومن معاني هذا التبديل أن يجعل حياته ما قبل التغيير بمثل حياته بعد التغيير، فلو كان تاركاً لصلاة الليل أو لا يلتزم بأداء الصلاة في أوقاتها ثم قام بذلك فإنه يجعل حياته السابقة على هذه الصورة الجديدة، كالمدرّس الشفيق الرحيم الذي يقول لطلابه سأعيد لكم الامتحان فإذا جئتم بدرجات أفضل فإنني سأعتبر درجاتكم السيئة في الامتحان السابق على طبق هذه الدرجات الجيدة الجديدة، ولا شك أن الله أشفق على عباده وارحم به وهو أرحم الراحمين، وهو تعالى الذي جعل هذه الرحمة في قلوب عباده فكيف لا يكتبها على نفسه؟ فما على الإنسان إلا أن ينتبه من غفلته ويعود إلى منهج الزيادة من الخير.

---

(١) الكافي: ٨٤/٢.

القبس/ ١٣٢

سورة الأنبياء:﴿٩٤﴾

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾

موضوع القبس: النبي (ﷺ) مكفور النعمة

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء:﴿٩٤﴾) وتفسير الآية باختصار ان كل عمل يقوم به الانسان فيه رضا لله تعالى ونفع للخلق فإن الله تعالى يكتب ذلك العمل ويثبته لصاحبه بما لا نُحيط من أشكال الكتابة وأنواع الشهود لشكره عليه لأن الكفران هنا بمعنى الجحود والانكار وعدم الشكر، وأصل الكفر في اللغة سُتر الشيء، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك شكرها، فكفران السعي تغطيته وإهماله وعدم المجازاة عليه، ويقابله شكر العمل لذا عبّر تعالى عن نفس هذه الحقيقة في آية اخرى بقوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (الإنسان:﴿٢٢﴾)، وقد ورد الشكر – كفعل وسلوك – مقابل الكفر في آيات عديدة كقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:﴿٧﴾) وقال تعالى ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:﴿٤٠﴾).

ومعنى شكر العمل إثابة صاحبه عليه بالجزاء المناسب ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف:﴿٣٠﴾)، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾

(الزلزلة:٧) لكن هذه الآية وغيرها كالآية ١١٢ من سورة طه الآتية تفيد أن قبول الاعمال مشروط بالإيمان بالله تعالى وسائر العقائد الحقة.

وقد أطلقت الآية ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ لكي لا يقلّ الانسان من شأن أي طاعة فكل عمل صالح مهما ظن الانسان أنه لا قيمة له فأن الله تعالى سوف لا يكفره أي لا يهمله قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:١٢٠) فليس من الضروري القيام بأعمال كبيرة حتى يكون مرضياً عند الله تعالى.

وما دام العمل مسجلاً عند الله تعالى ويُشكر عليه فلا يهمه (أولاً) إن كان له تأثير في المجتمع أو لا يكون لأن هذا شيء بيد الله وقد يأتي تأثيره بعد زمن أو ينضّم الى عمل غيره فيصنع التأثير، ولا يهمه (ثانياً) إن أطلع عليه أحد وعرف انه الفاعل أو لم يطلع لأن المهم انه بعين الله تعالى ومكتوب عنده تبارك وتعالى.

فاستحضار هذه المعاني يدفع الانسان الى العمل ويرفع الهمّة ويزيد من النشاط ويطرد الكسل والشعور بالإحباط.

فهذا تفسير مختصر للآية ككل أما غرضي هنا فهو الوقوف عند هذه الفقرة ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ إذ المفروض ان إثابة المحسن على إحسانه وعدم اهمال العمل الصالح بلا مكافأة قضية فطرية ومن الضروريات ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) فلا تحتاج القضية الى بيان فلماذا يذكره الله تعالى؟

والذي يزيد السؤال إلحاحاً ذكر هذه الحقيقة مراراً في القرآن الكريم بنفس التعبير – أي عدم الكفران – كقوله تعالى ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ﴾ (آل عمران:١١٥) أو بتعبير أخر كقوله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ (طه:١١٢) أو التعبير بما يقابله وهو الشكر كقوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (الإنسان:٢٢) وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (الإسراء:١٩) ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢).

يمكن القول أن الغرض هو لبيان وتقرير بعض تفاصيل عقيدة الايمان بالمعاد واليوم الآخر والحساب ومجازاة الاحسان والإساءة وهذا ظاهر من كثير من الآيات، والذي أُريد أن أضيفه أن الغرض هو لتطمين المحسنين وعاملي الصالحات مما يرونه من الحالة المؤسفة الغالبة لدى البشر وهي التنكر للمنعم وكفران النعمة على عكس ما هو المطلوب منهم الى حد احتاج عدم كفران الاحسان والعمل الصالح الى بيان وتبديد مخاوف حيث أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفاً.

وأول مكفور النعمة هو الله تبارك وتعالى قال سبحانه ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٧) وقال تعالى ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ (الإسراء:٨٩) وقال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣) حتى اصبح كفران النعمة صفة ملازمة لسلوك البشر إلا من عصم الله قال تعالى ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ

كَفُورٌ﴾ (الشورى:٤٨) والكفور هو المبالغ في كفران النعمة، وقد أكدّ الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى باستعمال ﴿إِنَّ﴾ وإدخال اللام قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (الزخرف:١٥) مما أوجب حالة التأسف والاستغراب قال تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس:١٧) على خلاف الادب النبوي المبارك، روى السيد ابن طاووس في الاقبال كان النبي (صلى الله عليه وآله) يقول - إذا أكل بعض اللقمة قبل تمامها - (اللهمَّ لك الحمد أطعمت وأسقيت وروَّيت، فلك الحمد غير مكفور ولا مودّع ولا مستغنىً عنك)[1].

ولرسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة بربه في كونه مكفور النعمة ومجحودها وهو أعظم النعم الإلهية على المخلوقات وقد قرن الله تعالى إنعامه بإنعام نبّيه تعظيماً له وتكريماً قال تعالى ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّه وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة:٧٤) وقال تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٣٧) ولأهل البيت (عليهم السلام) أسوة برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكذلك اتباعهم من المؤمنين، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله:(كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكفرا لا يشكر معروفه، ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي، ومن كان أعظم معروفا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) على هذا الخلق وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفنا وكذلك خيار المؤمنين لا يشكر معروفهم)[2] وهي حقيقة مرة تكشف عن بعض صور الانحطاط في الاخلاق والسلوك البشري.

---

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس الحسني: ١١٦ س ٢٤، وروي في كتب العامة مثله.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت): ٣٠٨/١٦/ح١١.

ومظاهر كفر البشر نعمة النبي (صلى الله عليه وآله) عديدة:-

(فمنهم) من لم يؤمن برسالته أصلاً وهم أكثرُ الناس قال تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

(ومنهم) من آمن ظاهراً بالرسالة إلا انه بعيد كل البعد عن مضمونها كالفاسقين والمنافقين ووصلت الجرأة بهم الى أن يقولوا له في وجهه الكريم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته (ان الرجل ليهجر)[1].

(ومنهم) من تنكر له في عترته ونصب لهم العداء حسداً وظلماً فأرتكبوا أعظم الكبائر حتى قتلوا أهل بيته وذريته وهم يشهدون ظاهراً لله تعالى بالتوحيد والى النبي (صلى الله عليه وآله) بالرسالة.

(ومنهم) ظاهره التدين والالتزام بالعبادات الفردية إلا انه يُقصي شريعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الحياة ويمنع من تطبيقها ويدعو الى تحكيم القوانين الوضعية بعنوان (الحكومة المدنية) وهل توجد مدنية وحضارة حقيقية بغير الإسلام والقرآن والسيرة النبوية المباركة.

(ومنهم) من يريد التخلي عن سنته الشريفة التي هي بيان كتاب الله تعالى تحت عنوان الحداثة والتجديد وإعادة قراءة النصوص الشرعية بما يناسب الثقافة المعاصرة وتمادى بعضهم فأسقط قدسية كلام المعصوم (عليه السلام) ونحو ذلك.

وبالأمس القريب حينما نجح بعض الإخوة في إقرار قانون بمنع تجارة الخمور وبيعها لم نجد مدافعاً عنه من الإسلاميين ومرجعياتهم إلا النادر فيبخلون

---

(١) الطبقات الكبرى- ابن سعد: ٢٤٢/٢، ط، دار صادر.

على رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى بهذه النصرة الضئيلة، أليس هذا من كفر النعمة؟!

وهكذا تجد صدق ما وصف به أمير المؤمنين (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أنه مكفر لا يُشكر معروفه حتى من المنتسبين اليه، فعلينا ان ننتبه لأنفسنا ونكون من الشاكرين لنعمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الطاهرين (صلى الله عليهم اجمعين) بشكرهم والثناء عليهم والصلاة عليهم ونشر ذكرهم المبارك والدعوة اليهم وإتباع أقوالهم وأفعالهم.

ان خطورة هذا السلوك – كفران النعمة – لا يقتصر على العقوبة الوخيمة لصاحبه وقد أشرنا الى جانب من هذا الحديث في تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1] (إبراهيم:٢٨-٢٩) حتى ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أربعة أسرع شيء عقوبة رجل أحسنت اليه ويكافيك بالإحسان اليه إساءة)[2].

بل يكون له أثر اجتماعي وهو ما يعبر عنه بقطع سبيل المعروف، روي عن الإمام الصادق قال: (لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل:وما قاطعو سبيل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره)[3].

---

(١) راجع: قبس قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً﴾ (إبراهيم:٢٨)، في تفسير من نور القرآن.

(٢) بحار الانوار: ٤٢/٧٥ عن الخصال ٢٣٠/١/ باب الأربعة/ ح ٧١.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٦، باب٨ من أبواب فعل المعروف/ ح ١.

وإن كان المفروض بالإنسان أن لا يمنعه عدم شكر إحسانه على تقديم المزيد من عمل الخير طلباً لرضا الله تعالى وقد طمأنته الأحاديث الشريفة على حسن جزائه عند الله تعالى، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:(أفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة المحسن يكفّر احسانه)[١] وعنه (صلى الله عليه وآله) قال:(يد الله فوق رؤوس المكفّرين ترفرف بالرحمة)[٢] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:(لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾)[٣].

وقد فسّرت بعض الأحاديث معنى ان المؤمن مكفَّر النعمة، فقد روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الْمُؤْمِنُ مُكَفَّرٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْرُوفَهُ يَصْعَدُ إِلَى الله عز وجل فَلا يُنْشَرُ فِي النَّاس، وَالْكَافِرُ مَشْهور وذلك ان معروفه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد الى السماء)[٤].

أقول: مُكَفَّر على وزن مُعظَّم وهو مجحود النعمة مع إحسانه، وذلك إما لأنه يصنعه لدى الفقراء والضعفاء المحتاجين وهؤلاء ليس لهم جاه اجتماعي وكلام مسموع حتى ينتشر ذكره بينما الكافر والمنافق يجعل معروفه في المشاهير والمتصدرين ووسائل الاعلام (والملأ) بحسب التعبير القرآني فيروجون لمن أحسن إليهم.

---

(١) بحار الانوار: ٧٥/ ٤٤، عن نوادر الراوندي: ٩.

(٢) علل الشرائع: ٥٦/٢/ الباب٣٥٣/ ح٢.

(٣) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٤.

(٤) بحار الانوار: ٢٦٠/٧٦، عن علل الشرائع: ٢/ ٥٦٠/ باب٣٥٣/ ح١.

(أو) لأن المؤمن يصنع معروفه خفية من دون رياء أو شهرة فلا يُعرف، والكافر يصنعه علانية لان غاية ما يطلب هو الرياء والسمعة بين الناس فتتحقق له.

(أو) ان الله تعالى يريد حماية المؤمن من الرياء وحبط العمل فلا ينشره وتكفر نعمته ليزيد من ثوابه في الآخرة بينما المنافق والكافر لا خلاق لهما في الآخرة فيأخذون جزاءهم في الدنيا.

وذكر ابن الأثير معنى آخر لقوله (عليه السلام) (المؤمن مكفَّر) قال:(أي مرزأ في نفسه وماله لتكفر خطاياه)[1] وهو معنى صحيح في نفسه ودلت عليه روايات اخرى إلا انه لا يناسب أحاديث المقام وربما أورده ابن الأثير لأنه لم ينظر في بقية الحديث.

(١) النهاية: ٤/ ١٨٩.

القبس/١٣٣

سورة الحج:﴿٥﴾

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

موضوع القبس: إنبعاث الحياة المعنوية

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥).

صورة طبيعية محسوسة للإنسان تكرّر ذكرها في القرآن الكريم، وهي واحدة من الآيات الإلهية الدالة على قدرة الله تعالى ككثير من الآيات الأخرى التي لا تعدّ ولا تحصى، ولكن عامة الناس يغفلون عنها ولا تمثّل لهم شيئاً ملفتاً للنظر او ابداعاً يحفزهم على التأمل والتفكير بسبب طول الفتهم معها وتكرّرها عليهم في حياتهم، والشيء اذا أصبح مألوفاً فقد بريق اعجازه وابهاره لدى عامة الناس الا من اعطاه الله البصيرة والفهم.

وهذه واحدة من تلك الآيات حيث ترى الأرض قاحلة جرداء لا حياة على ظاهرها فينزل الله تعالى عليها الماء فتتحرك فيها الحياة وتنبت انواعاً من الأشجار والنباتات المختلفة في الاشكال والاثمار والفوائد، فمن الذي وهبها الحياة وهيأها لهذا العطاء غير الله تعالى.

ومثلها قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة:٢٧)

والجرز:الأرض التي لا نبات فيها من الأصل[1]، وغيرها من الآيات التي سنذكر بعضها وهي تركز على هذا المشهد لانه محسوس ومدرك بالوجدان ولا يصعب على المتلقي فهمه، وينتقل ذهنه بسهولة الى الغرض من التذكير بهذه الآية الإلهية لأخذ الدروس والعبر، كما تضرب الأمثال لتوضيح مقصود المتكلم، قال تعالى ﴿وَيَضْرِبُ اللَّه الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم:٢٥) وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣) وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١).

وسيق هذا المشهد الطبيعي مثالاً لإيصال اكثر من معنى ظاهري وباطني.

الأول: معنى ظاهري مصرّح به في الآيات القرآنية وهو جواب الكفار والملحدين والمنكرين للمعاد الذين يرفضون الايمان ببعث الانسان من قبره وتعرضه للحساب على اعماله ويعتبرون ذلك مستحيلاً، وقد حكى القران الكريم جملة من تشكيكاتهم، قال تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس:٧٨-٧٩) وقال تعالى ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ۞ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ (مريم:٦٦-٦٧).

ويصورون للعامة ان ما يذكره الأنبياء أوهام وخرافات فيحرضون الغوغاء ضدّهم قال تعالى حاكياً مقالتهم ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

(١) أنظر: تاج العروس- الزبيدي: ٨/ ٢٣.

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (المؤمنون:٣٥-٣٨).

بمثل هذا الصخب والتضليل واجهوا دعوات الأنبياء (عليهم السلام) فيأتي الله تعالى بهذا المثال لتقريب الجواب والقاء الحجة عليهم ضمن عدة حجج لاثبات المعاد ولم تقتصر على هذه في حوار عقائدي طويل استغرق آيات كثيرة خصوصاً في القرآن المكي، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩).

وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩).

وقال تعالى ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:٥٠).

وقال تعالى ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:٥٧).

وفحوى هذه الحجة:انه اذا جاز احياء الأرض الميته بإخراج النبات منها بعد سقيها الماء، جاز احياء الأجساد الميتة بقدرة الله تعالى، لان حكم الامثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد فكما الأرض الميتة توضع فيها النواة او البذرة التي فيها حقيقة النبات وشفرته الحياتية، وتسقى بماء انزله الله تعالى من السماء، كذلك الابدان الميتة المتأكلة يرسل اليها حقيقة الحياة المتمثلة بالروح ويسقيها بماء

الرحمة واللطف والعدالة ليعيد اليها الحياة.

وفي كلتا الحالتين فان البدن مادة مضافة لأصل الحقيقة ومهما بليت وتلاشت فأنه يمكن تجميعها وإعادة تشكيلها، كما لو بردت قطعة من الحديد وتحولّت الى ذرات متناثرة فانه من السهل تجميعها من جديد بواسطة قطعة مغناطيس فلماذا يستكثرون ذلك على الخالق العظيم، لهذا كان الرد في بعض الآيات بسيطاً وواضحاً ومخجلاً للمنكر كقوله تعالى فيما نقلناه من سورة يس آنفا (وَنَسِيَ خَلْقَهُ) فهو لم يكن الا كروموسومات في حيمن وبيضة الوالدين واكتسب مادة من غيره ليصبح هذا المخلوق العظيم.

ويلاحظ أن نسبة الحياة الى الأرض مجازاً والا فانها تنسب الى النبات حقيقة كقولنا جرى الميزاب ونعني الماء النازل منه بعلاقة الحالّ والمحل.

على ان احياء الأموات وبعثهم من القبور اقوى ملاكاً واشد حاجة لإقامة العدل ومكافأة المحسن ومعاقبة المسيء وإنصاف المظلوم من الظالم وإعادة الحقوق الى أهلها، اما تزيين الأرض بأنواع النباتات فانه فضل وكرم وإحسان من الله تعالى.

الثاني:معنى خفي يلتفت اليه أهل المعرفة وهو ضرب المثال للنفس الامارة بالسوء التي غلبت عليها الذنوب، وللقلب الذي أماتته الشهوات وران عليه صدأ الغفلة والمعاصي ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤) فانها كالإرض الميتة القاحلة الجرداء ومن كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام) (ومن قلّ ورعه مات قلبه)[1] وفي دعاء للإمام السجاد (عليه السلام) (وأمات قلبي عظيم جنايتي)[1]

(١) نهج البلاغة: من قصار الكلمات، رقم ٣٤٩.

، فاذا سقاها الله تعالى بنور المعرفة والبصيرة وامطر عليها ماء الرحمة واللطف انبعثت فيها حياة الايمان وانجذبت الى عالم المعنى واستيقظت من غفلتها ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ فتدفقت منها الآثار الصالحة على الجوارح وشملت بركاتها الآخرين.

ورمزية الأرض للنفس والماء للمعرفة تشبيه معروف لدى أهل المعنى، ولذا حملنا في بعض خطاباتنا[٢] مضمون الخبر الشريف عن عصر الظهور بأن (الأرض تخرج كنوزها وانها ليست من الذهب أو الفضة)[٣] على هذا المعنى أي ان النفوس تطهر وتزكو حتى تبرز معادنها العلوية الأصيلة.

وهذه الرمزية لها شواهدها في القران الكريم كقوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) حيث فسّرتها الروايات بالعلم والمعرفة ممن يأخذها[٤] وهكذا بقية الآيات.

وهذا المعنى واضح الانطباق على المثل المذكور فعندما تقرأ قصة توبة بشر

---

(١) مناجاة التائبين، مفاتيح الجنان: ١٦٦.

(٢) خطاب المرحلة: ٢٩٠/٧ بعنوان (كونوا من الكنوز التي يكشف عنها الإمام (عليه السلام).

(٣) بحار الانوار ج٥٢/ح ٨٣/ ص ٣٤٤ (قال الإمام الصادق (عليه السلام): إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيامه الجور ، وأمنت به السبل ، وأخرجت الارض بركاتها ، ورد كل حق إلى أهله ، ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الاسلام ، ويعترفوا بالايمان ، أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران:٨٣) وحكم بين الناس بحكم داود ، وحكم محمد (صلى الله عليه وآله) فحينئذ تظهر الارض كنوزها وتبدي بركاتها ، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعا لصدقته ولا لبره ، لشمول الغنى جميع المؤمنين).

(٤) راجع الروايات في تفسير البرهان: ١٠٧/١٠.

الحافي على يد الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) تستحضر هذه الصورة القرآنية بوضوح حيث تجد قلب بشر ونفسه كأرض قاحلة خالية من الحياة المعنوية لانها مهملة متروكة فعبثت بها العاديات فانغمس صاحبها في المعاصي والملاهي والفجور، ولكن الغارس الماهر عرف انها أرض صالحة للزراعة وانبعاث الحياة فيها، فلما وضع البذرة الطيبة فيها بقوله(لو كان سيدكِ عبداً لاستحيا من مولاه) وسقاها بألطافه المعنوية دبّت الحياة في تلك الأرض الهامدة وانقلب بشر اللاهي العابث العاكف على المعاصي المغتّر بالدنيا الميّت معنوياً الى بشر ((العارف الزاهد))[1] في هذه الدنيا الزائفة.

وعلى العكس من هذا فان قلب البعض يكون ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة:٧٤) فلا ينبت فيها زرع، بحيث ان نفس الآيات المباركات تنزل على الأول فيّزداد ايماناً وتسليماً وتنزل على الثاني فيزداد عتّواً واستكباراً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَيَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ (الإسراء:٨٢).

وضرب الله تعالى لهذين بنفس مثال الارض فوصف الاول ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٦٥) اما الثاني ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤) والصفوان:الحجر الاملس، والوابل:المطر عظيم

(١) الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي:١٦٦/٢ ونقل عن روضات الجنان سبب توفيقه للتوبة وعن العلامة (قدس سره) في منهاج الكرامة قصة توبته على يد الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

القطر، والطل:المطر صغير القطر، والجنة:البستان، والربوة:المكان المرتفع يكون شجره انضر وثمره اكثر.

هذه الانبعاثة للحياة المعنوية هي وظيفتنا في عصر الانتظار والترقب بأن نجعل أنفسنا ارضاً صالحة للحياة عندما تتلقى النبتة الطيبة وينزل الله تعالى عليها ماء الرحمة، فاذا تحققت فانها الفرج الحقيقي وانفتاح القلب والنفس على الإمام المهدي الموعود صلوات الله وسلامه عليه، فكما ان الأرض لها ربيع تهتز فيه وتربو كذلك القلوب، من كلام لأمير المؤمنين(عليه السلام) (وتعلموا القرآن فأنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فأنه ربيع القلوب)[1] ومن كلام له (عليه السلام) (وانما ذلك - أي الموت والحياة - بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت وبصر للعين العمياء)[2].

وبين أيدينا شهر رمضان وهو من أعظم المناسبات لإحياء القلوب وإزالة ما ران عليها بسبب الغفلة والمعاصي وهو الربيع الذي تزدهر فيه الحياة لكل الاعمال الصالحة، وقد منَّ الله تعالى به على عباده ليتعرضوا فيه الى موجبات رحمته ونفحاته القدسية.

وللكلام تفصيل في أسباب موت القلوب وحياتها نسأل الله تعالى التوفيق لبيانها.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١١٠.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٣٣.

القبس/١٣٤

سورة الحج:﴿١١﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾

موضوع القبس: عدم الثبات على الحق

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:﴿١١﴾).

تصف الآية صنفاً من الناس موجودا في كل زمان ، ظاهره متديّن يتكلّم بالدين ويمارس المظاهر الدينية لقوله تعالى في وصف هذا الصنف انه ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ لكن تدينه قلق غير مستند إلى قاعدة متينة وانما هو كالواقف على حافة الهاوية ويمكن ان يسقط فيها في أي لحظة لأنه ينظر الى الدين من زاوية واحدة ويتعامل معه بمقياس واحد هو مقياس مصالحه والفوائد التي يجنيها من هذا الدين، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه﴾ (الجاثية:﴿٢٣﴾) وإن لم ينتفع منه تركه وتخلى عنه الى غيره حيث يظن وجود المصلحة والمنفعة.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ فإن حصل على نفع دنيوي من مال أو جاه أو منصب أو أي امتيازات يسعى اليها الناس في الدنيا رضي بهذا الدين واستمر عليه وهو في الحقيقة اطمئنان ورضا بمصالحه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي تعرض لصعوبات الابتلاء والامتحان ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ بأن يرجع الى حرفه الذي يعبد الله تعالى عليه والوجه الذي كان ينظر من خلاله الى طاعة الله تعالى ويترك هذا الدين

وينبذه ويرفضه، ولم يقل تعالى (وإن أصابه شر) لأن ما أصابه قد يكون خيراً إما في العاجل أو الآجل من الدنيا أو الآخرة، ولكنه لنظرته الضيقة الى الامور ولأنانيته وعدم امتلاكه البصيرة والرؤية الصحيحة للامور اعتبر ما حصل شراً فانقلب على وجهه، وكأنه هو الذي يعرِّض الدين للاختبار، فإن جلب له المنفعة كان صدقاً وحقاً والا فلا.

مثلاً انضم الى جماعة المتدينين للحصول على منصب أو مال أو وجاهة اجتماعية فلمّا لم يحصل عليها رفض الدين ، ولعل حرمانه من هذه الامور خير له، لانه لا ينجح في امتحانها، لكن مدى تفكيره محدود فكانت نتيجته ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، لأنه حُرِمَ من الدنيا التي كان يسعى للحصول عليها فتنة من الله تعالى له وبقلقه واضطرابه وانفعاله وعدم استقرار حاله، وخسر الآخرة بتركه لسبب السعادة والفلاح وهو الدين.

وهذا الوصف لحاله في الدنيا سيتجسد على أرض الواقع والحقيقة في الاخرة حيث تبلى السرائر وتنكشف البواطن على حقيقتها وأشارت الروايات الى ذلك حين وصفت الصراط[1] بأنه أدق من الشعرة وأحدّ من السيف وإن من الناس من يعبره الى الجنة كالبرق الخاطف وآخر ركضاً وآخر زحفاً بحسب استحقاقاتهم وآخر يتمايل عليه ولا يستقر ثم يهوي منه في نار جهنم لان الصراط ممدود عليها، فهذا الصنف الاخير هو من كان في الدنيا قلقاً في تدينه غير مستقر.

(١) أنظر: ميزان الحكمة- الريشهري: ١٦١٠/٢.

وينقلب عن الدين إذا اصيب بابتلاء وهذا معنى سقوطه في جهنم.

روى في الدر المنثور عن أبي سعيد قال (أسلم رجل من اليهود فذهب ببصره وماله وولده فتشاءم بالاسلام فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال:أقلني. فقال:إن الإسلام لا يقال، فقال:لم اصب في ديني هذا خيرا، ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال (صلى الله عليه وآله) يا يهودي الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة، ونزلت الآية)[1].

وقد وردت عدة روايات معتبرة في تفسير الآية في الكافي وغيره منها ما رواه زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال:(سألته عن قول الله عز وجل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال:هم قوم وحدّوا الله وخلعوا عبادة من يُعْبَدْ من دون الله فخرجوا من الشرك، ولم يعرفوا أن محمداً (صلى الله عليه وآله) رسول الله فهم يعبدون الله على شكٍّ في محمدٍ (صلى الله عليه وآله) وما جاء به[2]، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقالوا:ننظر فإن كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا أنه صادق وأنه رسول الله، وإن

---

(١) الدر المنثور: ٣٤٦/٤.

(٢) وكان بعض هؤلاء من الصحابة المعدودين قريبين للنبي (صلى الله عليه وآله) لكنهم كانوا يشككون في تصرفاته ويعترضون ويتمردون كما تنقل كتب الفريقين وفي آخر حياته قالوا (إن الرجل ليهجر) وهؤلاء كانوا مستعدين للانقلاب عن الدين والرجوع الى جاهليتهم كما أخبر عنهم الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٤) فرأى امير المؤمنين (عليه السلام) ان الصبر على المظالم التي لحقت به أحجى وقد سجل ذلك كله في خطبه المأثورة. أنظر: صحيح البخاري: ٩/٦/ح٤٤٣٢، ط. دار طوق النجاة،- مسند أحمد: ٥/ ٢٢٢/ ح٣١١١، ط. الرسالة،- صحيح ابن حبان: ١٤/ ٥٦٢/ ح٦٥٩٧،- فتح الباري- ابن حجر: ٨/ ١٠١،- بحار الأنوار- المجلسي: ٣/ ٥٣٤

كان غير ذلك نظرنا، قال الله عز وجل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني عافية في الدنيا ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يعني بلاءً في نفسه وماله ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ انقلب على شكّهِ الى الشرك ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۞ يدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ قال:ينقلب مشركاً، يدعو غير الله ويعبد غيره، فمنهم من يعرف ويدخل الإيمان قلبه فيؤمن ويصدّق، ويزول عن منزلته من الشك الى الإيمان، ومنهم من يثبت على شكّه ومنهم من ينقلب الى الشرك)[1].

فهؤلاء يقفون على الحافة - والحرف هو حد الشيء وحافته ومنتهاه دون أصله وحقيقته كما يقال حرف الجبل أي منتهاه وليس كل حد وجانب حرفاً حتى تكون له قابلية ربط الشيء بغيره كالحرف الهجائي فانه الحد الذي تنتهي اليه الكلمة ولا معنى له في نفسه لكنه يربط بين ما له معنى، ومنه التحريف أي الخروج عن المعنى الوسط المعتدل المعروف الى حافته المشتبهة – متزلزلين غير ثابتين لم يتمكن الدين من قلوبهم ونفوسهم، يسقطون في أول اختبار وامتحان فينقلبون على وجوههم.

وقد شخص الإمام الحسين (عليه السلام) هذه الظاهرة في حياة المجتمع فقال (عليه السلام): (النّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيا وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلى ألسِنَتهم، يَحُوطُونَهُ ما دَرَّت مَعائِشُهُم، فَإذا مُحِّصُوا بِالبَلاءِ قَلَّ الدَّيّانُونَ)[2].

---

(١) الكافي للكليني: ٢/ ٤١٣/ ح٢.

(٢).تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٢٤٥.

وهذه الظاهرة الاجتماعية في حياة الناس لا تختص بالكافرين أو المنافقين كما ربما يتصور، بل تشمل الذين يتظاهرون بالشكليات الدينية لكنهم في أخلاقهم وتعاملاتهم وسلوكهم وصفاتهم النفسية أبعد ما يكونون عن الدين، لقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ فهم يمارسون الطقوس الدينية لكنهم لا يعملون بحقيقتها، ولا أُريد أن استغرق ببيان النماذج لوضوحها لدى الناس خصوصاً من السياسيين الذين يتسترون بالعناوين الدينية، لكن همهم الاول والاخير دنياهم واهوائهم ومصالحهم وتراهم يُداهنون ويتنازلون عن المبادئ الدينية الثابتة إذا أضرت بمصالحهم، ومن أمثلة هؤلاء من يقلد مرجعاً دينياً والمفروض أنه قلده بحجة شرعية، فاذا اصطدم هذا التقليد مع مصلحة له أو وجد منفعة دنيوية أفضل عند غيره عدل اليه ولا يسال عن الحجة الشرعية في ذلك.

هذا سلوك غريب لأن المفروض أن تكون العقيدة هي الأصل وهي المسطرة الثابتة التي تقاس صحة الامور وبطلانها على أساسها فما وافقها - وإن اقترن بالمصاعب والبلاءات- فهو حق والا فهو باطل وإن جلب بعض المنافع الدنيوية، وليس العكس كما عليه هؤلاء من الاضطراب والتشتت، فهذا خلل كبير في الايمان الذي يدعيه هؤلاء وانحطاط في فهم الدين ولوازمه، لأن المؤمن الحقيقي لا يأخذ على إيمانه جزاءً دنيويا لأن دينه ليس سلعة قابلة للبيع والشراء وجلب المنافع، وإنما يبتغي بإيمانه والتزامه رضى الله تبارك وتعالى، ويعتبر التزامه بالدين توفيقاً من الله تعالى ولطفاً منه تبارك وتعالى ونعمة لا تجازى ويعجز عن شكرها وبالدقة يرى الملتزم بالدين حقاً ان نفس استمراره وثباته على الدين وما يترشح عنه من اطمئنان وسعادة وسمو هو أفضل جزاء يعطيه الله تعالى له على

التزامه بالدين.

والأغرب من ذلك في سلوك هذا الصنف من الناس أنه حينما يتخلى عن المبادئ الدينية والمنهج الالهي الذي لا يوجد أفضل منه فما هو البديل الذي يلتزم به ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (الحج:١٢-١٣) هذا هو الضلال المبين أن يتخذ من المخلوقات التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً سواء كانت أصناماً حجريةً أو بشريةً أو أهواء نفسية أو مصالح أو أعراف وتقاليد يتخذ منها المولى والعشير والقائد الذي يتبعه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ الغارق في الضلال والبعيد عن العودة الى الطريق الصحيح.

ويروي التاريخ شواهد كثيرة لمثل هؤلاء كعبيد الله بن الحر الجعفي[1] الذي كان مواليا لأمير المؤمنين (عليه السلام) ولما طلب الإمام الحسين (عليه السلام) منه النصرة وهو في طريقه الى الكوفة امتنع وأهدى له سيفه وفرسه فرفضهما الإمام الحسين (عليه السلام) ثم ندم على خذلانه وصار قائداً في جيش المختار الثقفي ثم انشق عنه والتحق بمصعب بن الزبير وقاتل معه المختارَ حتى انتصروا ثم تمرد عليه بجمع من الجيش وغادر الكوفة.

ومثل شبث بن ربعي الذي كان في جيش أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين ثم سقط في فتنة الخوارج، وبعدها كان ممن كاتب الإمام الحسين (عليه السلام) طالباً منه المجيء الى الكوفة لكنه انخدع بمناصب الولاة والتحق بجيش بن زياد لقتال

(١) الإرشاد- الشيخ المفيد: ٨١/٢

الإمام الحسين (عليه السلام) وكان قائداً للمقاتلين المشاة (الرجّالة) يوم عاشوراء وقد ذكره الإمام الحسين (عليه السلام) باسمه في احتجاجه على الجيش المعادي حين نادى:(يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا لي أن أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجندة)[1].

ومما جرى من الحوارات يوم عاشوراء لما خطب الحسين (عليه السلام) واحتج عليهم بالكثير مما قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورواه أصحابه قاطعه الشمر قائلا عن نفسه:هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر:والله اني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك[2].

ولما كانت الامور تعرف بأضدادها، فمن ضد هذا الوصف وهذه الصورة نتعرف على ما يجب أن تكون عليه قيمة الدين في حياة الانسان فهو مستقر في قلبه ووجدانه، سعيد به ثابت عليه، يلجأ اليه في كل اموره، ويجعله قائداً له في حياته يستهدي به ويزن به الامور، فيفرّق به بين حقها وباطلها، وهذا الثبات والاستقرار في العقيدة تجسّد في أصحاب الحسين (عليه السلام) وأهل بيته بحيث يفرحون ويستبشرون حينما يُعْلِمَهُمْ الإمام الحسين (عليه السلام) بالقتل.

---

(١) الارشاد- المفيد: فصل: خروج مسلم ابن عقيل (رحمه الله) بالكوفة يوم الثلاثاء.

(٢) مقتل الحسين- السيد المقرم: ٢٧٩.

القبس/١٣٥

سورة الحج:﴿٢٨﴾

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ﴾ (الحج:﴿٢٨﴾).

تبيّن الآية الكريمة الغرض من الدعوة إلى الحج والأذان به الذي ورد في الآية السابقة ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:﴿٢٧﴾) فاللام هنا للتعليل أو لبيان الغاية من تلبية نداء الحج وهو شهود تلك المنافع.

والشهود الذي يدل على الحضور الوجداني والتلبس بالحالة والاندكاك فيها أبلغ تعبير عن كمال الانتفاع من مثل ليحصلوا ونحوه، مع ما فيه من الدلالة على أن الحضور الميداني في الفعاليات الدينية موجب للانتفاع بآثارها المباركة.

وهي بذلك تكون أحد الشواهد على أن الأحكام الشرعية تنطلق من ملاكات واقعية على نحو جلب المصلحة كما في المقام أو دفع المفسدة كما في آية تحريم الخمر.

وقد جاءت ﴿مَنَافِعَ﴾ نكرة للتعظيم فلا يدركون سعة وعظمة هذه المنافع، ولا يمكنهم الإحاطة بها كلها، ولتفيد الإطلاق وتشمل كل منفعة دنيوية كانت أو أخروية، ولا تختص بالدنيوية كما ربما يستظهر من المقابلة مع ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ

اللَّهِ﴾ أو لأنّ المنافع وردت في مواضع أخرى بهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون:٢١)، وتؤكد الأحاديث الشريفة ذلك كقول النبي (صلى الله عليه وآله) (من أراد الدنيا والآخرة فليؤم هذا البيت)[١] وعدة احاديث آتية.

وهي منافع لهم وتعود بالمصلحة عليهم أفراداً وأمةً، و﴿هُمْ﴾ هنا قد لا تختص بمن حضر الموسم وإنما تعمّ من لم يحضر من عموم المسلمين، ورد في علل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (مع ما في ذلك -أي الحج- لجميع الخلق ممن يحج وممن لا يحج)[٢]، وورد في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قَالَ: (... وإن الله يدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج منهم، ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١))[٣].

وقد ذكرت الآيات الكريمة بعض المنافع كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ (المائدة:٩٧)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ (البقرة:١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦).

---

(١) الفقيه: ١٤١/٢/ ح٦٤١.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١/ ٩٧، علل الشرائع: ٢٧٣.

(٣) الكافي: ٢/ ٤٥١/ باب: أن الله يدفع بالعامل عن غير العامل/ ح١.

روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الربيع بن خثيم قال: (شَهِدْتُ أَبَا عَبْدِالله (عليه السلام) وَهُوَ يُطَافُ بِهِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ فِي مَحْمِلٍ، وَهُوَ شَدِيدُ المَرَض، فَكَانَ كُلَّمَا بَلَغَ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ أَمَرَهُمْ فَوَضَعُوهُ بِالْأَرْض فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ كُوَّةِ المَحْمِل حَتَّى يَجُرَّهَا عَلَى الْأَرْض، ثُمَّ يَقُولُ (عليه السلام): ارْفَعُوني. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ مِرَاراً فِي كُلِّ شَوْطٍ، قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا ابْنَ رَسُولِ الله؛ إِنَّ هَذَا يَشُقُّ عَلَيْكَ. فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾، فَقُلْتُ: مَنَافِعَ الدُّنْيَا أَوْ مَنَافِعَ الْآخِرَةِ؟ فَقَالَ (عليه السلام): الْكُلَ)[1].

وروى سلمة بن محرز قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له أبو الورد: رحمك الله، إنك لو كنت أرحت بدنك من المحمل، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): يا أبا الورد، اني أحب أن أشهد المنافع التي قال الله عز وجل: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾ إنه لا يشهدها أحد إلا نفعه الله، أما أنتم فترجعون مغفوراً لكم، وأما غيركم فيحفظون في أهاليهم وأموالهم)[2].

وروى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) بسنده عن هشام بن الحكم قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) فقلت له: ما العلّة التي من أجلها كلف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟ فقال: إن الله عز وجل خلق الخلق لا لِعلّة إلا أنه شاء ففعل فخلقهم إلى وقت مؤجل، وأمرهم ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم فجعل فيه الاجتماع من المشرق والمغرب ليتعارفوا،

---

(١) الكافي: ٤/ ٤٢٢.

(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ١٠١.

ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال، ولتُعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله، وتُعرف أخبارُه، ويُذكر ولا ينسى، ولو كان كل قوم إنما يتّكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقط الجلب والأرباح، وعميت الأخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج)[1].

وشرح الإمام الرضا (عليه السلام) بعض تلك المنافع في ما كتبه إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل فقال (عليه السلام): (وعلّة الحج الوفادة إلى الله تعالى وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف وليكون تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال وتعب الأبدان وحظرها الشهوات واللذات والتقرب بالعبادة إلى الله عز وجل والخضوع والاستكانة والذل شاخصاً إليه في الحر والبرد والأمن والخوف دائباً في ذلك دائماً، وما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله عز وجل، ومنه ترك قساوة القلب وجسارة الأنفس ونسيان الذكر وانقطاع الرجاء والعمل وتجديد الحقوق وحظر النفس عن الفساد ومنفعة من في شرق الأرض وغربها ومن في البر والبحر ممن يحج وممن لا يحج مِن تاجرٍ وجالبٍ وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين وقضاء حوائج أهل الأطراف والمواضع الممكن لهم الاجتماع فيها كذلك ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾)[2].

ففي الحج منافع دنيوية وأخروية وهذا مجرد تقسيم فني، وإلا فإن (الدنيا مزرعة الآخرة) وهي ممر لها والمقرّ هناك فكل ما في الدنيا هو للآخرة ولاكتساب رضا الله تبارك وتعالى.

---

(١) علل الشرائع: ٤٠٥/ ح٦.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ٩٧.

أما المنافع الدينية فقد سجلت الأحاديث الشريفة جملة منها:

١- إن الحج مظهر التوحيد الخالص ونفي الشركاء الظاهرين والمخفيين حيث يخرج من كل التعلّقات بالأهل والمال والوطن والاحباب وغيرها، ويشخص مخلصاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يوجد كالحج ما يثير هذه الكوامن الفطرية ويدعو إلى التمسك بها، فالحج فرار إلى الله تبارك وتعالى من كل ما سواه، وتحرّر من كل الأغلال التي تكبّل الإنسان وتشدّه إلى الأرض وتعيق نهوضه نحو التكامل، روى الشيخ الكليني بسنده عن أبي جعفر (عليه السلام)، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ قال: (حجُّوا إلى اللَّهِ عزَّ و جلَّ)[1].

وفي رواية الفقيه بسنده عن زيد بن علي عن أبيه الإمام السجاد (عليه السلام) قال: (يعني حجّوا إلى بيت الله، يا بني إن الكعبة بيت الله فمن حج بيت الله فقد قصد إلى الله، والمساجد بيوت الله فمن سعى إليها فقد سعى إلى الله وقصد إليه)[2].

٢- والحج فرار إلى الله تبارك وتعالى من الذنوب والمعاصي طمعاً بما وعد الله عز وجل من غفران الذنوب ليبتدئ حياةً جديدة بصفحة بيضاء قال الإمام السجاد (عليه السلام): (لما وقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعرفة وهمت الشمس أن تغيب قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا بلال، قل للناس فلينصتوا، فلما انصتوا قال: إن ربكم تطول عليكم في هذا اليوم وغفر لمحسنكم، وشفَّع محسنَكم في

(١) البرهان: ٥/ ١٧٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/ ١٩٩.

مسيئكم، فأفيضوا مغفورا لكم)[١]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الحَاجُّ مَغْفُورٌ لَهُ ومَوْجُوبٌ لَهُ الجَنَّةُ ومُسْتَأْنَفٌ لَهُ العَمَلُ، ومَحْفُوظٌ فِي أَهْلِهِ ومَالِهِ)[٢]، وقال (عليه السلام): (الحاج إذا دخل مكة وكل الله به ملكين يحفظان عليه طوافه وصلاته وسعيه، فإذا وقف بعرفة ضربا على منكبه الأيمن، ثم قالا: أمّا ما مضى فقد كفيته، فانظر كيف تكون في ما تستقبل)[٣].

٣- إن فيه تعظيماً لبيت الله الحرام وإدامة لذكر الله تعالى وتحليقاً في الأجواء الروحية واستذكاراً لجهود الأنبياء العظام (عليهم السلام) الذين قدموا كل ما عندهم[٤] من أجل إقامة الحنيفية، وفي تلك الديار المقدسة معالم الدعوة الإلهية المباركة وشاهد أحداثها، فأداء الشعائر التي سنوها (سلام الله عليهم) فيه إدامة لذكرهم ومشروعهم الإلهي، وما يلازمه من تعظيم شعائر الله وزيارة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين) ﴿ذَلِكَ

(١) وسائل الشيعة: ١١/ ٩٥.

(٢) الكافي: ٤/ ٢٥٢.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/ ١٠٣/ ح٣٢.

(٤) كخليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) الذي جاء بزوجته وبطفله الصغير اسماعيل (عليه السلام) إلى تلك الأرض وهي وادٍ مقفر لأجل إقامة الصلاة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ثم يؤمر بذبح ولده اختياراً وابتلاءً ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات: ١٠٢-١٠٩)، فتضمن الحج ذبح الهدي تذكيراً بتلك التضحية العظيمة طاعة وتسليماً لأمر الله تبارك وتعالى.

وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢) قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة)[١] لذا حرم تعطيل الكعبة ويجب على ولي الامر إجبار الناس على الحج وزيارة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢].

٤- تتجلى في الحج وحدة المسلمين وعزّتهم وقوتهم ويتحقق به مراد الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢) حيث تذوب كل الخصوصيات القومية والعرقية والطائفية والجغرافية والقبلية والطبقية فلا فرق بين أسود وأبيض ولا بين عربي وأعجمي ولا بين رئيس ومرؤوس، وباختصار فإن الحج ليس يصنع الإنسان فقط وإنما يصنع الأمة ويحييها ويبعثها بهذا المؤتمر المليوني العظيم، وهذا ما يرعب أعداء الإسلام لذا يعملون جاهدين على إفراغ شعائر الحج من مضامينها وأهدافها الحقيقية.

٥- وفي الحج اختبار حقيقي لطاعة العباد لخالقهم العظيم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ، وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الحَمَامِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاَمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ، وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلاَئِكَتِهِ المُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ،

(١) الكافي: ٤/ ٢٧١/ ح ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٢٣/ باب ٥/ ح ٢٤.

يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ لِلإِسْلامِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَجَّهُ، وَأَوْجَبَ حَقَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ)[1].

وروى الشيخ الكليني عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه)[2].

٦- إنه فرصة للتفقه في الدين والتعرف على أحكام الشريعة وسيرة الأولياء العظام والدعوة إلى الله تبارك وتعالى؛ ونشر التعاليم الحق الى كل انحاء العالم، فإن عدداً كبيراً من الحجاج لا يحظى بلقاء العلماء والفضلاء في بلدانهم ولا يعرفهم أصلاً، فيوفر الحج فرصة للقائهم والاستفادة من علومهم ومعارفهم، وفي علل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (مع ما فيه من التفقّه ونقل أخبار الأئمة (عليهم السلام) إلى كل صقع وناحية كما قال اللّه عز وجل: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة:(١٢٢)))[3].

٧- ما فيه من الثواب العظيم والمنازل الرفيعة عند الله تعالى؛ واستجابة الدعاء وقضاء حوائج الدنيا والآخرة روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (إذا

---

(١) نهج البلاغة: ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٣/ ٣٣.

(٣) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢/ ١١٩.

أخذ الناس منازلهم بمنى نادى منادٍ من قبل الله عز وجل: إن أردتم أن أرضى فقد رضيت)[١]، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢)، وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) قال: (ودَّ مَن في القبور لو أنّ له حجة واحدة بالدنيا وما فيها)[٢]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الحجاج يصدرون على ثلاثة أصناف صنف يعتق من النار، وصنف يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه، وصنف يحفظ في أهله وماله، فذاك أدنى ما يرجع به الحاج)[٣].

أما المنافع الدنيوية فتظهر في عدة مجالات:

١- اجتماعية: حيث يتعارف المسلمون من أصقاع الأرض ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣) ويطّلع بعضهم على شؤون البعض الآخر وتتقوى العلاقات بينهم، ويتبادلون الهموم والآمال ويخططون لمشاريع مشتركة فيها الخير والسعادة لهم، وقبل الحج يقوم مَن عزم عليه بلقاء أقربائه وأصدقائه وتبادل براءة الذمة معهم ومعالجة المشاكل بينهم واستعادة المحبة والمودّة ليفد على ربّه مخلصاً سليم القلب نقياً من المكدّرات وحراً من الأغلال.

٢- أخلاقية: فإن الحاج يستلهم من المشاعر المقدسة وما تختزنه من

---

(١) الكافي: ٤/ ٢٦٢/ باب: فضل الحج والعمرة وثوابهما/ ح٤٢.

(٢) التهذيب: ٥/ ٢٣/ ح٦٧.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/ ٩٣/ ح٢.

المعاني الروحية ومن استذكار مواقف القادة العظام أخلاقاً راقية وثباتاً على الحق وشوقاً إلى الاستنان بهم والمضي على طريقهم، وكذا يستفيد من أخلاق رفاقه ويتعلم منهم ما لم يكن يعلم من حسن السيرة ويتجنب ما يُحرم ويُكره، وإن طول فترة السفر والاختلاط مع ناس متنوعي الثقافة والمزاج ومختلفي المراتب في العلم والمعرفة يبرز معالم الشخصية الحقيقة للإنسان مهما حاول إخفاءها وإظهار صورة جميلة في الحياة الاعتيادية.

٣- اقتصادية: يبيّن الإمام الصادق (عليه السلام) جملة منها في رواية هشام بن الحكم المتقدمة، وروى الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام): (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): حجوا تستغنوا)[١]، وقال الإمام الرضا (عليه السلام): (إن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير الخبث من الحديد)[٢] وقد وعد الله تعالى من ينفق شيئاً في سبيله يخلفه له، قال تعالى ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ:٣٩) وفي خصوص الحج فقد ورد استحباب الانفاق، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مَا مِنْ نَفَقَةٍ أَحَبَّ إِلَى اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نَفَقَةِ قَصْدٍ وَيُبْغِضُ اَلْإِسْرَافَ إِلاَّ فِي اَلْحَجِّ وَاَلْعُمْرَةِ فَرَحِمَ اَللَّهُ مُؤْمِناً كَسَبَ طَيِّباً وَأَنْفَقَ مِنْ قَصْدٍ أَوْ قَدَّمَ فَضْلاً)[٣]

---

(١) الفقيه: ٢/ ١٧٣/ ح ٧٦٤.

(٢) تهذيب الأحكام: ٥/ ٢٢/ ح ٦٥.

(٣) الفقيه: ١٠٢/٣/ ح ٤٠٨

وهي تشمل الهدايا التي يجلبها، قال الإمام الصادق (عليه السلام)هَدِيّةُ الْحَجِّ مِنَ الْحَجِّ)[1]، والحج يحرك عجلة الاقتصاد بنحو عام فيشمل الحاج وغيره، وقد بيّن الإمام الصادق (عليه السلام) جملة من المنافع الاقتصادية في رواية هشام بن الحكم المتقدمة، فإنَّ توجه الملايين إلى الديار المقدسة سنوياً يحرّك قطاعات واسعة كالنقل والخدمات الفندقية والطعام وتجارة البضائع المختلفة والبناء، وأن الهدي وحده يتطلب استهلاك ملايين الأنعام سنوياً، وإن الحجاج يُخرِجون قبل سفرهم ما بذممهم من الحقوق الشرعية كالخمس ورد المظالم ويعطونها إلى الفقراء وهي مبالغ ضخمة تعطي قوة شرائية للطبقة المحرومة فيتحرك السوق.

٤- صحية: فإن الأطباء والحكماء يوصون بالسفر وتغيير شكل الحياة الرتيبة لتحسين الصحة والمزاج، روي في الكافي بسنده عَنْ الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) أنهُ قَالَ: (قَالَ عَلِيٌّ بْنُ الحُسَيْن (عليهما السلام): حُجُّوا واعْتَمِرُوا تَصِحَّ أَبْدَانُكُمْ، وتَتَّسِعْ أَرْزَاقُكُمْ، وتُكْفَوْنَ مَؤونَاتِ عِيَالِكُمْ)[2].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يشركنا في أجور الحجاج وصالح أعمالهم وأدعيتهم.

---

(١) الكافي: ٤/ ٢٨٠/ ح٥

(٢) الكافي: ٤/ ٢٥٢/ ح١.

القبس/١٣٦

سورة الحج:﴿٢٩﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾

موضوع القبس: الولاية ثمرة الحج

قال أهل اللغة[1]: إن التَفَث هو الدرن والأوساخ وقضاء التفث هو إزالتها من البدن في إشارة إلى حال الحجاج بسبب حركتهم الطويلة في المشاعر المقدسة والقيود التي فرضها الإحرام فاذا انتهوا من أداء مناسكهم أحلوا من احرامهم وازالوا ما علق بأبدانهم وقصّوا أظفارهم وازالوا شعورهم ونحو ذلك، ولعلهم أخذوا هذا المعنى من الروايات مع أنها قد تكون بصدد بيان بعض التطبيقات أو أي نحو آخر.

وقيل: أنها ليست كلمة عربية وأن أصلها عبراني بمعنى الإمساك والقبض وحينئذ يكون المراد بالتفث القيود التي تفرض على المحرم وهي التي نسميها (تروك الاحرام) وقضاؤها هو إتمامها على وجهها وإكمالها إلى حين الخروج منها، قال تعالى:﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ (البقرة:﴿٢٠٠﴾) أي أتممتموها، وكذا في قوله:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ (الجمعة:﴿١٠﴾) وقوله: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ (البقرة:﴿٢١٠﴾) ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ (القصص:﴿٢٩﴾) وغير ذلك.

ويمكن قبول كلا الاتجاهين من التفسير بأن يقال:ان في الآية كناية لأنها ذكرت اللازم - وهو إزالة الاظفار والشعر والادهان والتعطر- وهي تريد الملزوم

(١) مفردات غريب القرآن- الأصفهاني: ٧٣،- لسان العرب- ابن منظور: ١٢٠/٢.

وهو اكمال المناسك المطلوبة للإحلال من الاحرام وإباحة هذه الأفعال لهم، بأن يتمّوا ما ابتدأوا به من مناسك الحج ويحلوا من إحرامهم الذي التزموا به واوجبوه على أنفسهم ابتداءاً من الاحرام قبل الخروج إلى عرفة وما يتضمنه من تروك كثيرة تلبية لقوله تعالى ﴿الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة:﴿١٩٧﴾) فالتَفَث يراد به الفعل المصدري أي إتمام الالتزام بما يقتضيه الاحرام وإنهاؤه على النحو المطلوب أو اسم المصدر بمعنى التحلل من الاحرام وإزالة ما عَلُق بهم بسببه خلال مدة المناسك.

وقد اشارت الروايات إلى كلا المعنيين، ففي صحيحة البزنطي في قرب الاسناد والكافي قال (سألت الرضا (عليه السلام) عن الآية قال:تقليم الأظفار وطرح الوسخ عنك والخروج من الاحرام)[1] ومثلها عدة روايات، وبين التعبير عن عقد الاحرام بترك الرفث وعن الاحلال منه بقضاء التفث انسجام جميل وبلاغة رائعة.

فاذا أدى الحاج مناسك منى يوم العاشر من ذي الحجة فرمى جمرة العقبة الكبرى وذبح وحلق فقد أحلّ من احرامه وابيحت له سائر تروك الاحرام الا الطيب والنساء ويحلّ الأول بأداء طواف الحج والثاني بطواف النساء لذا عطفت الآية على قضاء التفث ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ (الحج:﴿٢٩﴾) أي ليؤدوا ما ألتزموا به من تروك الاحكام ومناسك الحج ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج:﴿٢٩﴾) وهما طوافا الحج والنساء.

---

(١) الكافي: ٤/ ٥٠٣/ ح١٢.

هذا هو المعنى الظاهري الذي خُوطِب به جميع الناس ، وهناك معنى باطني للخواص من أهل المعرفة، ففي صحيحة ذريح المحاربي عن أبي عبدالله (عليه السلام) في هذه الآية قال (عليه السلام) (التفث لقاء الإمام)[1] وفي معاني الأخبار روى عبد الله بن سنان عن ذريح المحاربي قال (قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): إن الله أمرني في كتابه فأحب أن اعمله، قال:وما ذاك؟ قلت:قول الله تعالى ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ (الحج:٢٩) قال: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لقاء الإمام و﴿لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك) قال عبدالله بن سنان فأتيت أبا عبدالله (عليه السلام) فقلت جعلت فداك قول الله عزوجل ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال (عليه السلام): أخذ الشارب وقص الأظافر، وما أشبه ذلك، قال: قلت: جُعِلت فداك فان ذَريحاً المحاربي حدثني عنك، أنك قلت ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ تلك المناسك؟ فقال (عليه السلام): صدق ذريح، وصدقتَ إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح)[2].

وهذا التفسير منطبق تماماً مع علل الحج والمنافع المطلوبة منه والتي اشارت اليه الآية السابقة ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج:٢٨) والمنافع المعنوية أولى من المادية وهي التي تتحقق بلقاء امام الأمة وقائد حركتها المباركة والاستفادة منه في تلك الأجواء الروحية النقية البعيدة عن عواصم السلطة والسياسة الماكرة

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٢٩٠/ ح١٤٣٢.

(٢) معاني الأخبار: ٣٤٠/ ح١٠.

الخبيثة لينقوا أنفسهم من الادران والأمراض المعنوية ويستعدون لحياة جديدة نقية من رواسب الماضي كما وعدت به الأحاديث الشريفة.

وفي رواية عن الإمام الرضا (عليه السلام) يبيّن فيها فوائد الحج والحكمة من تشريعه وجعل منها هذا اللقاء بالإمام للتفقه في الدين ونقل تعاليمه إلى الناس في اقطار الأرض، قال (عليه السلام) (إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عزوجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل) إلى ان قال (عليه السلام) (مع ما فيه من التفقه ونقل اخبار الأئمة (عليهم السلام) إلى كل صُقع وناحية كما قال الله عزوجل ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢))[1].

لذا يعبّر الإمام الباقر (عليه السلام) عن ألمه من عدم التفات أكثر الناس إلى هذه الحقيقة فقد روى في الكافي بسنده عن أبي عبيدة الحذّاء قال (سمعت أبا جعفر (عليه السلام) ورأى الناس بمكة وما يعملون – قال فقال: فعال كفعال الجاهلية أما والله ما أمروا بهذا وما أمروا إلا أن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم فيمروا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم)[2].

فالحج لا يكتمل معناه ويتحقق الغرض منه الا عندما يقترن بإظهار ولاية أهل البيت (عليهم السلام) واستحضار معانيها والقيام بتكاليفنا تجاه المعصومين كالدعاء

(١) وسائل الشيعة: ١٢/١١.

(٢) الكافي: ١/ ٣٢٣/ ح٢.

لهم ونشر مناقبهم وفضائلهم واهداء الأعمال لهم والدعوة إلى اتباعهم وغير ذلك، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه قال (تمام الحج لقاء الإمام)[1].

وينبغي للحاج أن يستحضر ولايته للمعصومين (عليهم السلام) في جميع مناسك الحج فيتذكر بالإحرام التجرد عن كل ما يعيق طاعة الإمام والتواصل معه والعمل بأوامره، وبالوقوف الامتثال بين يدي الامام وبالسعي الحركة نحو الإمام وبالذبح التضحية في سبيل نصرة الإمام وإنجاح مشروعه الإلهي وبالرمي رفض كل الطواغيت والسلطات التي تنصب نفسها أئمة وقادة للناس بغير حق، فالإمامة نظام ومحور الطاعات الأخرى.

روى في الكافي بعدة طرق عن أبي جعفر (عليه السلام) قال (بني الإسلام على خمس:على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم ينادِ بشيء كما نودي بالولاية فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه - يعني الولاية-)[2].

وفي صحيحة زرارة أضاف (قلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن) وقال فيه (ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته) فالاسرار المعنوية للحج وسائر العبادات لا تدرك الا في ظل ولاية المعصوم (عليه السلام) كما ان تحرير الانسان ونيل كرامته وحفظ استقامته لا تكون الا على يد الإمام المعصوم (عليه السلام) وبقيادته المباركة ومن بعده نوابّه بالحق.

---

(١) وسائل الشيعة: ١٠/ ٢٥٥/ أبواب المزار - باب٢/ ح١٢.

(٢) الكافي: ٢/ ١٨- باب دعائم الإسلام/ ح١-٣-٥.

إن قيمة الحج التي يكتسبها الانسان لا تتحقق كاملة بالحركة البدنية بين المشاعر المقدسة وإنما هي منوطة بمقدار معرفته للإمام وإتباعه له فقد تزيد وقد تنقص إلى حد الصفر، وعن مثل هؤلاء المفلسين يقول الإمام (عليه السلام) (أترى هؤلاء الذين يلبّون، والله لأصواتهم أبغض إلى الله من أصوات الحمير)[١].

ويعلل الإمام الباقر (عليه السلام) ذلك في صحيحة[٢] الفضيل حينما نظر الى الناس يطوفون حول الكعبة قال (عليه السلام) (هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا ألينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم) ثم قرأ هذه الآية ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:٣٧) وفي تفسير العياشي عند هذه الآية عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (ينبغي للناس أن يحجوا هذا البيت ويعظموه لتعظيم الله إياه وأن يلقونا حيث كنّا نحن الادلاء على الله)[٣].

وهذا الحج الشكلي الخالي من الغرض الحقيقي هو ما حصدوه من ابتعادهم عن الإمام الحق، عن الفضيل عن أبي جعفر (عليه السلام) قال (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية، ولا يعذر الناس حتى يعرفوا إمامهم)[٤].

وان مكة تشرفت باحتضانها للمعصوم لذا أقسم بها مقيدة بوجوده ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد:١-٢) ومن لطف الله تعالى بعباده حضور المعصوم (عليه السلام) بنفسه في موسم الحج كل عام لتبقى الشعائر

(١) وسائل الشيعة: ٥٧/٩.

(٢) الكافي: ٣٢٢/١/ح١.

(٣) تفسير العياشي: ٢/ ٣٣٣/ ح٣٩.

(٤) بحار الأنوار: ٢٣/ ٨٩.

محتفظة بقيمتها المعنوية وليحظى الحجاج ببركات وجوده روي عن عبيد بن زرارة قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام) يقول: (يفقد الناس إمامهم فيشهدو الموسم فيراهم ولا يرونه)[1] وفي كتاب اكمال الدين بسنده عن السفير الثاني محمد بن عثمان العمري قال (سمعته يقول: والله إن صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كل سنة فيرى الناس ويعرفهم، ويرونه ولا يعرفونه)[2].

ولهذا يقف الإمام السجاد (عليه السلام) امام الطاغية يزيد ويعلنها صريحة واضحة (أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا)[3].

أيّ انا صاحب هذه المشاهد المشرفة والوريث الحقيق لها والمولود الطبيعي للقائمين عليها من لدن إبراهيم الخليل إلى النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) فأنا أولى بولاية أمور الأمة وسياسة شؤون العباد والبلاد.

(١) كمال الدين وتمام النعمة- الشيخ الصدوق: ١/ ٣٧٩/ ح٤٩.

(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ١٣٥- أبواب وجوب الحج وشرائطه، باب٤٦/ ح٨-٩.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٨.

القبس/١٣٧

سورة الحج:﴿٣٢﴾

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

موضوع القبس: احياء الشعائر الدينية

نحاول فهم الآية ودلالتها وما نستفيده من دروس من خلال نقاط:

١- ﴿شَعَـٰٓئِرَ﴾ جمع (شعيرة) وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة[١]: يُقال للواحدة (شَعارة) وهو أحسن من (شعيرة) وهي العلامة الدالة التي تُدرك ولكن بلطف ودقة، فشعائر الله كل ما دلّ على الله تعالى وكان علماً لطاعته والاشعار: الاعلام من طريق الحس، و(المشاعر) المعالم جمع (مشعر) وهي المواضع التي اشعرت بعلامات.

وتتضمن معنى الدقة واللطافة لذا سمي (الشَعَر) لدقته[٢]، والشعور دقة الادراك، والشاعر لأنه يشعر بفطنته بما لا يفطن له غيره.

فهذه المناسك والشعائر والمشاعر رموز تعبّر عن التوجه الى الله تعالى وطاعته وتوصل الى التقوى التي هي الغاية من الشعائر فهذه الشعائر وسائر الاعمال لها قوالب شكلية وإنما تكتسب أهميتها من تحصيل حقائقها، لذا جعل تعظيم الشعائر من حركة القلوب وتكاملها وليست مقتصرة على حركات الجسد وأعضاء

---

(١) معجم مقاييس اللغة- ابن فارس: ٣/ ١٩٤.

(٢) والشعار: هو الثوب الرقيق الذي يلي الجسد ويلامس الشعر ويقال في لغة العرب للقريب الملاصق للمودّة (أنت الشعار دون الدثار) أي اللباس الملاصق وليس الخارجي.

الجسم، فلينتبه الى هذه الحقيقة من يريد تعظيم الشعائر بصدق فالمنافقون والفاسقون قد يؤدون الشعائر الشكلية كما كانوا في زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحضرون الصلاة في المسجد ويخرجون في الغزوات لكنها لا قيمة لها لأنها خالية من التقوى.

وقد أمرنا الله تعالى باحترامها وتقديسها وحفظ حدودها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (المائدة:٢) أي لا تنتقصوها ولا تنتهكوا حرمتها ولا تضيعوها، وما دام تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، فأن من لم يعظم شعائر الله فانه من اهل القلوب القاسية التي لم تذق حلاوة التقوى.

٢- وقد ورد تعظيم الشعائر مطلقاً في الآية ولم يُحدَّد بشكل معين فتشمل التعظيم بالمشاركة فيها والدعوة اليها والتعريف بحقيقتها أو المساهمة بالمال او التشجيع والدفاع عنها ضد من يشوهها ويخذَل الناس عن المشاركة فيها وينتقصها ونحو ذلك.

والتعظيم ليس له صيغة خاصة وانما هو لكل شعيرة بحسبها فقد يكون بالاهتمام بها واعطائها الأولوية في حياة الانسان، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)، وقد يكون بانتقاء افضل افرادها كما في قوله تعالى ﴿لن تَنَالُواْ الْبِرَّ

حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:﴿٩٢﴾).

٣- ولأن الشعيرة ما يدرك بدقة ولطافة فأن حقائق هذه الشعائر ومعانيها تخفى على غير الفطن الواعي الذي يهديه الله بلطفه فالحج الذي كله شعائر ومشاعر قال تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (الحج:﴿٣٦﴾) وقال تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة:﴿١٨٥﴾) والآية محل البحث وردت في سياق مناسك الحج وقال تعالى ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة:﴿١٩٨﴾).

تعرّض للتشكيك والاستهزاء والسخرية وكان بعض الزنادقة الملحدين يحضر موسم الحج[1] ويقول: الى متى تطوفون بهذه الأحجار لأنهم لم يدركوا المعاني الروحية فيها وحقائق هذه الأفعال التي تدعو الى التوحيد الخالص ونبذ الشركاء، وأنى لأحد أن يدركها إلا ان يكون من أصحاب القلوب التقية العارفة بحقائق هذه الأفعال، وهكذا الشعائر الحسينية تتعرض للتشكيك والانتقاص والازدراء لنفس السبب وغيره.

٤- الضمير في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا﴾ يمكن أن يعود الى الشعائر نفسها فأنها من التقوى، ويمكن أن يعود الى التعظيم وقد جمع ليكون مناسباً للشعائر أي فأن هذه التعظيمات من تقوى القلوب.

٥- ومن أهم الشعائر التي أمرنا بتعظيمها الاحكام الشرعية والقوانين الإلهية في كل شؤون الحياة ومفاصل المجتمع فان الالتزام بهذه القوانين واقامتها بين

---

(١) أنظر: أصول الكافي- الشيخ الكليني: ١/ ٧٤/ ح٢.

الناس ودعوتهم اليها والدفاع عنها هو من تعظيم شعائر الله الذي هو من تقوى القلوب، وان من يقف في طريق إقرار هذه القوانين وأخذ الدين دوره في حياة الانسان والمجتمع تحت خديعة (الدولة المدنية) وامثالها هو ناقص الورع والتقوى.

٦- وتعظيم الشعائر الإلهية واجب على الجميع بالمقدار الذي يتحقق فيه المطلوب، الى درجة انه إذا تقاعس الجميع وجب على ولي الامر إجبارهم عليه ففي رواية صحيحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال انفق عليهم من بيت مال المسلمين)[1].

ومن زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) نتوسع الى زيارة الائمة المعصومين (عليهم السلام) وتعظيم مشاهدهم المشرّفة لانها سبب لتحصيل الألطاف الإلهيّة مما لا يمكن تحصيله في أي موضع آخر.

وانقل لكم هذه الرواية التي تدل على مدى اهتمام الأئمة (عليهم السلام) بالشعائر والمشاعر الإلهية، وموضوع الرواية الحرم الحسيني المطهر ففي كتاب الكافي لثقة الإسلام الشيخ الكليني عن أبي هاشم الجعفري - وهو من أصحاب الائمة المخلصين ومن ذرية جعفر الطيار - قال:بعث أليَّ أبو الحسن الإمام الهادي (عليه السلام) في مرضه فما زال يقول ابعثوا الى الحير- أي الحائر الحسيني - فقلت له:جعلت فداك أنا اذهب الى الحير فقال: أنظروا في ذاك - أي تدبروا الأمر جيداً

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، أبواب وجوبه وشرائطه، باب٥/ ح٢.

واختاروا رجلاً مناسباً لأن المتوكل العباسي كان ينزل أشد العقوبات بزائري قبر الحسين (عليه السلام)- ، قال أبو هاشم فذكرت ذلك لعلي بن بلال فقال: ما كان يصنع في الحير وهو الحير – أي ان الإمام الهادي (عليه السلام) هو الإمام المعصوم الحجة من الله تعالى فما حاجته الى التوسل بقبر جده الحسين (عليه السلام) -، فقدمت العسكر- أي سامراء والإمام فيها – فدخلت عليه فقال لي أجلس حين أردت القيام فلما رأيته أنس بي ذكرت له قول علي بن بلال فقال لي ألا قلت له – ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يطوف بالبيت ويقبّل الحجر، وحرمة النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمن أعظم من حرمة البيت وأمرهُ الله عز وجل أن يقف بعرفة، وإنما هي مواطن يحب الله أن يذكر (وفي رواية: يتعبد) فيها فأنا أحبُ أن يُدعى لي حيث يحب الله أن يُدعى فيها)[1].

ومن هذا الوجوب نستنتج انه علينا ان نراقب واقعنا بدقة فإذا وجدنا فريضة وشعيرة الهية معّطلة او تقاعس المجتمع في أدائها كصلاة الجمعة او الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، او إقامة القوانين الإلهية فعلينا المبادرة لإحيائها، وكذا اذا وجدنا احد المشاعر المقدسة مهجوراً فعلينا اعماره بالزيارة والدعاء والذكر كالتقصير الذي حصل في زيارة الإمامين العسكريين بعد التفجير الاجرامي والفتنة الطائفية عام ٢٠٠٦م، او الشعائر الفاطمية التي نهضتم لإحيائها منذ عام ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ وكذا الشعائر الزينبية التي وفقتم للمشاركة فيها.

٧- ورد في الرواية أعلاه أن (حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت) فأذن من تعظيم الشعائر احترام المؤمنين وإكرامهم والتواضع لهم وقضاء حوائجهم

(١) الكافي للكليني: ٥٦٧/٤-٥٦٨/ح٣.

خصوصاً إذا كانت له مزية اضافية ككونه احد الوالدين او من الارحام او الجيران او من وأهل العلم والفضل ونحو ذلك فلا تغفلوا عن هذا المعنى، ولا تخسروا هذه الفضيلة وتتنازعون بينكم من اجل المال او كلمة قيلت او أي سبب آخر للنزاع والتباغض والتباعد.

٨- ان الشعائر أضيفت الى الله تعالى ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، فالشعائر والمشاعر لا تكون مقدسة وموصلة الى تقوى القلوب الا اذا كانت بحجة شرعية من الله تعالى وتقع ضمن الاطار الإلهي العام الذي رسمه المعصومون (سلام الله عليهم)، اما بعض الطقوس المبتدعة فقد تكون جائزة اذا لم تحرم بعنوان ثانوي كالأضرار بالبدن او تشويه سمعة المذهب، لكنها ليست مقدسة ولا راجحة لانها ليست من الله تعالى.

وكذا ظاهرة انتشار الكثير من القبور المنسوبة الى أولاد وبنات الائمة الطاهرين من دون وجود دليل يثبت صحة هذه النسبة فهي وهمية لا مستند لها وقد توضع اساطير وقصص خرافية او تحكى منامات لبعض العجائز كدليل على قدسية هذه القبور، وهي في الحقيقة ليست مشاعر مقدسة ولا يجوز زيارتها لأنها ليست من شعائر الله تعالى.

ملحق: إلى المشكّكين بجدوى الزيارات المليونية

يشكّك البعض بجدوى حضور الملايين في الزيارات، كعاشوراء والأربعينية ويناقش في صرف الأموال الطائلة لخدمة الزوار وتوفير احتياجاتهم، وينطلق بعض هؤلاء من التأثر بالأجندات الغربية التي لا تفقه الآثار المعنوية لهذه الحركة المباركة على الفرد والمجتمع.

فيجب أن نكون نحن على ثقة عالية بشريعتنا وشعائرنا التي باركها الشارع المقدّس، فنجيب على هؤلاء بمستويين من الجواب، يُسمى الأول في مصطلح الحوزة العلمية بالجواب النقضي، أي الرد على الإشكال بإشكال مثله من واقعهم وممارساتهم، ويُسمّى الثاني الجواب الحلّي بتقديم الدليل على جدوى هذه الشعائر وبيان الآثار المباركة التي تثمرها.

والجواب على المستوى الأول هو بما يصدر منهم هذه الأيام بمناسبة الاحتفالات برأس السنة، حيث تسود العالم الغربي وغيره احتفالات صاخبة ومهرجانات والعاب نارية وسفرات من غرب الأرض إلى شرقها وشراء هدايا (عمانوئيل) وأمثالها[1] من الممارسات التي تصرف فيها مليارات الدولارات بلا معنى عقلائي يمكن الاقتناع به إلا تسويلات الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء من

(١) من تلك المراسيم في فرنسا احراق السيارات حيث أحرقت ١١٩٣ سيارة ليلة ٢٠١٣/١/١م، بحسب وزير الداخلية الفرنسي مانويل فالز وقال: إن العدد قريب من عدد السيارات التي أحرقت في سنوات سابقة حيث تحوّل إحراق السيارات ليلة رأس السنة إلى عادة لدى الفرنسيين منذ بضع سنوات وأحرقت ليلة ٢٠١٠/١/١ (١١٤٧) سيارة ولم تُعلن إحصائيات ٢٠١١، ٢٠١٢ حيث تحفظ وزراء اليمين في حينها عن إعلان الأرقام.

المتع واللذات الوقتية الكاذبة، وكان الأجدر بهم صرف هذه المليارات على جياع أفريقيا وتنمية اقتصاديات الدول الفقيرة وإنشاء المشاريع المفيدة في الدول التي يتباكون على فقرها وابتلائها بالأمراض الفتاكة والحروب والمشاكل الاجتماعية.

هذا غير ما يصرف من مليارات أخرى على غيرها من الفعاليات غير العقلائية كالدورات الأولمبية وبطولات كأس العالم مما يثقل ميزانيات الدول بمبالغ طائلة، وبين أيدينا اليونان التي اشترطت عليها الولايات المتحدة أموراً عند تنظيمها الدورة الأولمبية عام ٢٠٠٤م، ولم تستطع واردات السياحة سدّها فغرقت في ديون باهضة شارفت بسببها على الإفلاس.

فالأولى بهؤلاء المنتقدين أن يعترضوا على هذه الممارسات والفعاليات التي لا فائدة فيها إلا متعة ولذة –كما يزعمون– وهي وقتية بمقدار لحظتها ووهمية ويبقى الفرد يعاني بعدها من مشاكل نفسية واقتصادية أيضاً لأن أغلب أفرادهم يقترض ليقوم بتلك السفرات أو شراء الهدايا ونحوها. فهؤلاء المعترضون ينطبق عليهم المثل المعروف بأنه يرى القذّة في عين الغير ولا يرى الجمل في عينه.

أما على صعيد المستوى الثاني من الجواب فقد تضمّنت خطاباتنا السابقة ذكر العديد من تلك الآثار المباركة، نشير إليها باختصار، وتُراجَع التفاصيل في مواضعها.[1]

١- إن التوجّه سيراً على الأقدام من مسافات بعيدة مع ما يرافقه من العناء والمشقّة فيه تعبير عن عميق المودّة والولاء للإمام (عليه السلام) التزاماً بقوله تعالى ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣).

(١) راجع خطاب المرحلة: ١٤/٤، ٢٢٧- ٢٣٨ وفي مواضع أخرى من الكتاب.

٢- إنّ فيه إظهاراً لعظمة الإمام المقصود بما عظّمه الله تعالى، كما سار الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) ماشيين إلى مكة المكرمة تعظيماً لبيت الله الحرام.

٣- إنّ فيها إدخالاً للسرور على قلب النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) ومواساة لهم على عظيم مصابهم، وفيه إحياء لأمرهم والتزام بما وجهوا إلهيا (أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا) [١].

٤- الثواب العظيم الذي رصد لمن يقصد زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ماشياً وقد وردت في ذلك روايات عديدة منها عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (من أتى قبر الحسين (عليه السلام) ماشياً كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة)[٢].

٥- إنها وسيلة هداية للآخرين، فقد اهتدى بشعائر الحسين (عليه السلام) إلى الحق كثيرون وعادوا إلى الصلاح والرشد في حين عجزت كل الوسائل عن إصلاحهم، وهذه من بركات الإمام الحسين (عليه السلام) فإنه (مصباح هدى وسفينة نجاة)[٣].

٦- إنها توحّد الأمة بكل طوائفها وقومياتها وتوجهاتها الاجتماعية والسياسية ومختلف انتماءاتها الجغرافية والعشائرية، وهذا واضح حيث يذوب الجميع في

---

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)- الشيخ الصدوق: ٢/ ٢٧٥/ ح٦٩،- الكافي- الشيخ الكليني: ٨/ ٨٠/ ح٣٧.

(٢) راجع الروايات في وسائل الشيعة: كتاب الحج، أبواب المزار وما يناسبه، باب ٤١.

(٣) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)- الشيخ الصدوق: ٢/ ٦٢/ ح٢٩.

حب الإمام الحسين (عليه السلام) وبعضهم لبعض مما يستحيل تحقيقه في غير هذا الهدف قال تعالى ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (الأنفال:٦٣).

٧- إنّ المسيرات السلمية وسيلة حضارية تتبعها كل الأمم المتحضرة لإلفات النظر إلى قضاياها والمطالبة بحقوقها ودفع الآخرين للسؤال والفحص عن المشروع المحرِّك لها، وهذا ما تحقق إذ صار العالم كله يتساءل اليوم عن الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) والشيعة، والسؤال مفتاح الوصول إلى الحقيقة.

٨- إنها تحبط محاولات الأعداء المتنوعين التي تستهدف الشعب العراقي الأبي وهذا البلد الكريم، لإفساده وإخضاعه وإرعابه وتدجينه وسلخه من هويته الإسلامية الأصيلة، فقد حاول الإرهابيون بكل وسائل القتل والتدمير والجريمة إخافته، وحاول الاحتلال تدجينه وتحويله إلى جزء من مشروع الشرق الأوسط الكبير بل رأس الحربة فيه، وحاولت تقنيات الإغراء والغواية والتضليل إفساده وإبعاده عن إسلامه الأصيل ففشل الجميع، ببركة هذه المسيرات المليونية.

٩- إنها ممارسة تعبوية تحافظ على جاهزية الأمة وحضورها في الميدان على الدوام وبدونها يصاب الشعب بالخمول والكسل والاسترخاء فيكون مكشوفاً وهدفاً سهلاً لكل استهداف.

١٠- إنها تقوّي الإرادة والتحمل وتوطين النفس على الصعاب مما يعجز عن تحقيقه أي ممارسة أخرى وتشكّل بذلك فقرة مهمة من عملية الاستعداد لنصرة

الإمام الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والمشاركة الفاعلة في التمهيد لدولته المباركة ونصرته.

١١- إن أجواء الزيارة والمشاعر الروحية فيها تعطي للنفس زاداً معنوياً وحصانة وغذاءاً روحياً يبقى تأثيره ولذته إلى أمد بحسب استحقاق كل شخص واستعداده، وكما يقال بحسب سعة إنائه ووعائه فإنه يغترف من هذه الألطاف الإلهية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧).

١٢- بهذه الحركة المليونية يبرز الشعب العراقي انتماءه للإسلام ولمذهب أهل البيت (عليهم السلام) ويبرز هويته في عملية إحصاء سكّاني صادق ودقيق لا يقبل الخطأ والتزوير وليردّ بذلك على بعض الجهات التي تحاول القفز على الواقع وتدّعي خلافه.

وقد وردت الإشارة إلى جملة من هذه الآثار المباركة في دعاء الإمام الصادق (عليه السلام) لزوار أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) في الرواية المعتبرة عن معاوية بن وهب البجلي وفيها (اغفر لي ولإخواني ولزوّار قبر أبيَ الحسين بن علي صلوات الله عليهما الذين أنفقوا أموالهم واشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا ورجاءاً لما عندك في وصلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيك محمد (صلى الله عليه وآله)، وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدوّنا، أرادوا بذلك رضوانك، فكافئهم عنّا بالرضوان)[1] إلى آخر الدعاء.

(١) مفاتيح الجنان: ٤٨٤ فضل زيارة الإمام الحسين (عليه السلام).

القبس/١٣٨

سورة الحج:﴿٤٠﴾

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾

موضوع القبس: سنة التدافع

من السنن الإلهية:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:﴿٢٥١﴾).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:﴿٤٠﴾).

تكشف هاتان الآيتان عن سنة إلهية عظيمة وفريضة واجبة على المسلمين وهي سنة التدافع أي دفع الكفر بالإيمان، والشر بالخير، والفساد بالصلاح، والباطل بالحق، والمنكر بالمعروف، وتظهر عظمة هذه السنّة من اندراج فريضتين عظيمتين تحت عنوانها وهما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضافاً الى الطاعات الاخرى كالدعوة الى الخير والنصيحة والارشاد والموعظة.

من وحي القرآن:

وهنا نلتفت إلى عدة أمور نستوحيها من الآيتين الكريمتين:

١- جعل هذه السنة الإلهية من منن الله تعالى وأفضاله على العالمين في الآية الاولى، رغم أن هذا التدافع يقتضي حصول تضحيات بالأرواح والأموال

ومفارقة الأهل والأوطان وبذل الجهود الكبيرة لأنها حرب مستمرة ضارية، وتفسير ذلك بوجوه يأتي احدها ونذكر هنا وجهاً ذكرت الآية حاصله انه لولا هذا الدفع لامتلأت الأرض بالشر والفساد والظلم والكفر ولم تستقم فيها حياة إنسانية كريمة، ولأزيلت كل مظاهر الخير والصلاح التي أشير إليها في الآية الثانية بأسماء دور العبادة والذكر في الديانات التوحيدية.

٢- مادام هذا التدافع سنة إلهية فهي ثابتة وحتمية ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢) ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:٤٣) ولا يمكن التخلص من هذه المواجهة بالهروب من الواقع أو الانزواء أو غض الطرف ودفن الرأس في التراب، لأن النتيجة حينئذ ما ذكرته الآية الشريفة.

وإن هذه المواجهة مستمرة ولا تقتصر على زمان ومكان محدودين، لأنّها مرتبطة بوجود الناس على هذه الأرض وانقسامهم إلى فريق في الجنة وفريق في السعير.

٣- يظهر من الآيتين أن الغرض من التدافع ومنه الجهاد بل العمل الإسلامي عموماً هو تثبيت كلمة التوحيد وحفظ شعائره ومشاعره، وإخراج الناس من عبادة العبيد وتحريرهم ليكونوا عباداً لله تبارك وتعالى ولم يُشرّع القتال والتدافع بأي نحو كان -ومنه التدافع والتنافس السياسي- طلبا لدنُيا أو مال أو توسيع سلطة ونفوذ أو أي مغانم أخرى غير رضا الله تبارك وتعالى وإعلاء كلمته خلافاً لأهداف غير الربانيين فإنها لتلك الأهداف الدنيوية وهذا يجيب عن الإشكالات عن تشريع الجهاد في شريعة الإسلام.

ما قلناه آنفاً يدعونا إلى تصحيح مقاييس النصر والربح والنجاح في ثقافتنا:

ظنّوا بأن قتلَ الحسينَ يزيدُهم كذبوا فقد قتلَ الحسينُ يزيدا[1]

وان نرتب أولوياتنا بشكل صحيح ونعرف بماذا نضحي ومن اجل ماذا نضحي بعد معرفة الأهم والمهم، إذ يظهر من الآية أنّ الهدف الأسمى هو إعلاء ذكر الله تعالى وإقامة شريعته ويهون دون ذلك القتل والقتال والتدافع بكل أشكاله وبذل كل شيء، وليس العكس بأنّ يُجعل الدين وسيلة لكسب الدنيا.

٤- وان الدفع يعني عدم إمكانية اجتماع الطرفين المتدافعين معاً كالمعروف والمنكر أو الحق والباطل بل إن كلاً منهما يسعى لإزالة الآخر واجتثاثه، فلا مجال للمداهنة ولا لأنصاف الحلول لتصادم الأحكام والتشريعات الإلهية مع القوانين الوضعية التي تخضع للأهواء والنزوات، لأنّهم لا يرضون إلاّ بمحو الدين وإلغاء هوية أهله التي عبّرت عنها الآيتان بالهدم، وقال تعالى عنهم ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (البقرة:١٢٠).

٥- إن الله تعالى قادر على إعزاز دينه ونصرهِ بقدرته اللامحدودة فيقول للشيء كن فيكون ويقطع دابر الفساد والكفر والشر، إلا انه تعالى أبى الا ان تسير الأمور وفق أسبابها الطبيعية ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ (محمد:٤)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

(١) ديوان الوائلي للشيخ أحمد الوائلي (رحمه الله): ١١١.

وَاحِدَةً ﴾ (المائدة:٤٨)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢)، فجعل تعالى دفع الأشرار بعمل الأخيار وحركتهم المباركة مع تأييد الله تعالى وإمداده ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٢)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (الحج:٣٨) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (الحج:٤٠)، فلابد إذن وفق هذه السنة الإلهية من عمل دؤوب متواصل.

وحذّرت الآيتان من التقاعس عن العمل والمرابطة في مواجهة قوى الشر والانحراف والفساد لان النتيجة تسلّط الطواغيت والفسقة وخلوّ الساحة لهم وهو ينطبق على الحديث النبوي الشريف (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[1] ويقوم هؤلاء الأشرار باستعباد الناس ومحو كل شعائر الدين ومشاعره وشعاراته، ورمزها ومجمعها الذي اشارت اليه الآية الشريفة المساجد فيعملون على هدمها وتخريبها.

٦- إن هدم المساجد لا يقتصر على المعنى المادي أي إزالتها من وجه الأرض إذ قد يكون التخريب معنوياً - وهذا هو الأخطر- وذلك بحرمان الناس من بركاتها وتعطيل دورها الذي ذكرته الآية الشريفة بأنّه يُذكر فيها الله كثيراً وتُتلى فيها آياته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، والمساجد هي مراكز تجمع المسلمين وتعارفهم وتحشيد قواهم ونشر الوعي بينهم وتهذيب أخلاقهم وتعليمهم الدين.

وهذا التخريب المعنوي هو ما يلجأ إليه الطواغيت والمنافقون المتستّرون

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ١١٨/ ح١١.

بالدين فهم يعمّرون المساجد مادياً إلاّ أنّهم يفرغونها من محتواها وتأثيرها في حياة الأمة كالذي شهدناه ايام الرئيس المقبور صدام وامثاله.

وقد يكون تأثير مساجد المنافقين معادياً للدين القويم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة:١٠٧) وهذا شاهد على ما قلناه من كون التخريب المعنوي اخطر.

٧- **وبناءاً على ما قلناه من ان التخريب المعنوي هو الاخطر وانه قد يكون من المتسترين بالدين من نفس المسلمين فان سنة التدافع تجري داخل المجتمع المسلم ايضاً** وليس فقط مع الاعداء الخارجيين وتكون حينئذٍ مع من يحرّف الدين ويداهن فيه ويعرقل مسيرته ويحارب المصلحين ويقف حجر عثرة في طريق الإصلاح مكتفياً بشكليات الدين ومظاهره الخارجية، كالذين واجههم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكانوا من العناوين الكبيرة في المجتمع المسلم، خصوصاً بعد الالتفات إلى الوصف الذي أعطته الآية للمساجد، والذي لاينطبق على اولئك المتسترين بالدين.

٨- **لا بدّ ان يلاحظ في آليات التدافع مناسبتها لما يستعمله العدو،** لأنّه إذا لم يكن مناسباً ومكافئاً للعدو فلا يعتبر دفعاً ولا تدافعاً، فإذا كان عمل العدو وهدمه فكرياً فلابد من دحضه بفكر مثله وان كان إفساده أخلاقياً فلابد من مواجهته بحملة مثلها، وهكذا إن كان سياسياً أو إعلامياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو عسكرياً ونحو ذلك فانه يقابل بمثله.

٩- **إن الله تبارك وتعالى لطيف بعباده ولا يتركهم سدى فريسةً**

بأيدي شياطين الانس والجن بل يقيّض من عباده من ينهض بهذا الحمل الثقيل لذا نسب تعالى الدفع إليه فهو الذي يدفع الناس بالناس، وهذا المعنى من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (يحمل هذا الدين في كل قرن عُدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين)[1]، واذا تقاعس قوم عن اداء واجباتهم فان الله تعالى يوفّق غيرهم لهذه الطاعة قال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨).

١٠- **الوعد الإلهي لعباده العاملين المخلصين بالنصر** وتأكيد ذلك بعدة مؤكدات في الآية، كاللام ونون التوكيد في قوله تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ﴾، نعم قد يتأخر النصر لحكمة إلهية كحماية المؤمنين من العجب او لتعريضهم لمزيد من البلاء لإنضاجهم وتأهيلهم، أو لكي يستشعروا أهمية وقيمة النصر، وقد يحقق الله تعالى النصر للمؤمنين لكن على نحو لا يفهمه الناس لاختلال القيم والمقاييس عندهم، وعلى اي حال فان هذا النصر مشروط بإخلاصهم لله تعالى وصدقهم في ما عاهدوا الله عليه، فقد وضحت الآية التالية للآية الثانية التي فيها الوعد بالنصر من ينصرهم الله تعالى بقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

(١) رجال الكشي: ٢، وروى البرقي في المحاسن مثله وفيه (فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) بحار الأنوار: ٩٢/٢، عن بصائر الدرجات: ١/ ٣٠، باب ٦/ ح٧.

الْأُمُورِ﴾(الحج:٤١).

١١- ورد في الروايات معنى آخر للدفع يناسب قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١) **لأنّ فيه منّة من الله تعالى،** ففي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قَالَ: (إن الله يدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يصوم منهم عمن لا يصوم من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصيام لهلكوا، وإن الله يدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي، ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإن الله يدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج منهم، ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله تعالى﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾)[1].

١٢- إنّ الدفع وإن كان في المصطلح يعني مقاومة الشيء بعد وقوعه، إلا أن معناه هنا أوسع فيشمل ما يعرف بالرفع أي منع وقوع الفساد والظلم والانحراف أصلاً، بل أن العمل على النحو الثاني هو الذي يجب أن نفكر فيه ونضع خططنا له على طريقة الحكمة القائلة (الوقاية خير من العلاج) فتهيئة أسباب الصلاح والبيئة المساعدة لانتشاره وإقناع الناس به مقدَّم على انتظار وقوع المنكر ثم التفكير في كيفية إزالته ومعالجته.

وهذا مبدأ مهم سار عليه قادة الإسلام العظيم فمن قصار كلمات امير

(١) البرهان: ٢/ ١٤٥ نقلا عن تفسير العيّاشي١. ١٣٥/٤٤٦.

المؤمنين (عليه السلام) (ازجر المسيء بثواب المحسن)[1] وروي عن الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام) قوله (السداد دفع المنكر بالمعروف)[2] فالأولى أن تكافئ المحسن وتشجّع العامل الصالح لتحفّز غيره على الإحسان وإتقان العمل ولا يبقى مجال ليفكّر بالعمل السيء وتعريض نفسه للعقوبة.

١٣- ولابد ان نلتفت الى ساحة اخرى للتدافع وهو الذي سماه النبي (صلى الله عليه وآله) الجهاد الاكبر وهي ساحة النفس التي يتصارع فيها جنود الرحمن مع جنود الشيطان لتحسم المعركة بانتصار ارادة الخير او ارادة الشر، والاولى مؤيدة بالألطاف الالهية والبصيرة والعقل والمعرفة والعزم والحكمة، والثانية مزودة بالشهوات و الاهواء والميول النفسية.

روي في الكافي انه كان عند الإمام الصادق (عليه السلام) جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل و الجهل، فقال الإمام:(عليه السلام) (اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا) قال الراوي جعلت فداك لا نعرف الا ما عرفتنا، فذكر الإمام (عليه السلام) ان الله تعالى اعطى لكل منهما خمسة وسبعين جنداً وقال (عليه السلام) الخير وهو وزير العقل وجعل ضدّه الشر وهو وزير الجهل، والايمان وضده الكفر)[3] الى اخر الحديث.

---

(١) نهج البلاغة، ح٤، قصار الكلمات رقم ١٧٧ عن روض الاخيار/ ٤١.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٤٣٨، ح١٤٥٦٢، حلية الاولياء لابي نعيم: ح١٤٦٢.

(٣) اصول الكافي: كِتَابُ الْعَقْل وَالْجَهْل ج١/ ح١٤.

الدعوة النبوية وسنة التدافع الخارجي:

لقد جسد النبي (ﷺ) في رسالته الإسلامية هذه السنّة - أي سنّة التدافع- بأوضح مصاديقها وبأشكال متنوّعة فكانت دعوته (ﷺ) من أول أمره تستند إلى عقيدتين متلازمتين هما إثبات الإلوهية لله تعالى ونفيها عمّا سواه، وكان شعار دعوته المباركة (قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا)[1] فلم يقتصر على القضية الأولى -أي إثبات الإلوهية لله تعالى- ما لم تنضم إليها الثانية وهي رفض الوهية غيره لتكتمل عقيدة التوحيد، وإلاّ فإنّ المشركين كانوا يقولون بوجود الله تعالى وخالقيته ورازقيته ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت:٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت:٦٣) وغيرها. فالمشركون لم يعترضوا على هذا المقدار وكان بين ظهرانيهم أحناف موحّدون وأتباع الديانات السماوية لكنّهم أعلنوا العداء بضراوة والحرب على النبي (ﷺ) لأنّه دفع عقيدتهم وألغاها.

وقد بدأ النبي (ﷺ) التدافع بالجهر برفض تلك العقيدة الباطلة وقداستها المزيّفة التي صنعها المنتفعون بها وتلاه الإجراء الآخر وهو مباينة أهلها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (الكافرون:١-٣)، ثمّ بالاستدلال على بطلانها وردّ دعاؤهم والإجابة على إشكالاتهم.

وهكذا تدرّجت وتنوّعت آليات التدافع والمواجهة حتّى أُذن له (ﷺ)

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١٨/ ٢٠٢.

بالقتال بعد أن مكّنه الله تعالى من زمام الأمور في المدينة المنّورة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩) حتى فتح الله تعالى عليه الفتوح المبينة وعمّت رسالته المباركة شرقها وغربها.

التدافع الداخلي:

هذا على صعيد التدافع الخارجي أما على مستوى التدافع الداخلي فإجراءاته مع المنافقين معلومة وهدمه وإحراقه لمسجدهم الذي اتّخذوه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين في الرواية الموجودة في سبب نزول الآية المذكورة.

وسار على نهجه سبطه الشهيد الإمام الحسين (عليه السلام) فأقام بخروجه المبارك هذه السنة الإلهية إذ انه لم يتقاعس ولم يذعن ولم يستسلم لبطش بني أمية وطغيانهم، ونهض بمسؤوليته وقام (عليه السلام) ليدفع المنكر والباطل، ولولا قيامه المبارك لنقض بنو أمية الإسلام عروة عروة ولتحقق المحذور الذي اشارت اليه آيتا التدافع حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القران إلا رسمه، وقد قطعوا شوطاً واسعاً في هذا المجال لولا ان الإمام الحسين (عليه السلام) قلب الأمور عليهم وأعاد للإسلام وجوده ومضمونه ونقاءه وحيويته:

إن كان دين محمدٍ لم يستقم إلا بقتليَ يا سيوفُ خذيني[1]

وقد حقق الله له (عليه السلام) وعده بالنصر فها هو ذكره المبارك يملأ الخافقين ويهدي الناس إلى الحق ويحفظ دين الإسلام عزيزاً كريماً والمسلمين مرفوعي الرأس، وأصبحت قضية الحسين (عليه السلام) من أعظم الحوادث التاريخية على

(١) بيت من قصيدة للشاعرالكبير الشيخ محسن أبو الحب «ت١٣٠٥هـ»

الإطلاق وأعظمها انتشاراً، وها هي المسيرة المليونية في زيارة الأربعين شاهد على الكرامة والعزة والحرية والرفعة.

ايها الاحبة:

إنّ من أفضل أشكال التأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله) وبالإمام الحسين (عليه السلام) إحياء هذا القانون الإلهي العظيم في كل ساحاته سواء داخل كيان المجتمع المسلم أو خارجه وبالآليات المناسبة لكل مواجهة، ولا يسعنا القعود عن هذه الوظيفة المباركة وإلاّ ضاع الدين واضمحل كيان الإسلام كما نبّأت به الآية الشريفة، ومن تخلف عن هذه المواجهة لم يبلغ الفتح، كما قال الإمام الحسين (عليه السلام) في رسالته[1]، قال تعالى:﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٤٤/٣٣٠.

القبس/١٣٩

سورة المؤمنون:﴿٧٠﴾

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

موضوع القبس: لماذا يكره أكثر الناس الحق؟

أمير المؤمنين (عليه السلام) مثالاً

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون:﴿٧٠﴾) وقال تعالى ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف:﴿٧٨﴾).

قال ابن فارس ((حق: يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل)) وقال الراغب ((الحق: المطابقة والموافقة)) وفي المصباح ((حق الشيء إذا وجب وثبت، وحقيقة الشيء منتهاه وأصله مشتمل عليه)) وحق الشيء: بلوغ غايته قال سيبويه ((قالوا: هذا العالم حق العالم يريدون بذلك التناهي، وأنه بلغ الغاية فيما يصفه به من الخصال))[1] كما في الحديث (لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلماً بعيب هو فيه)[2] يعني خالص الإيمان ومحضه وكنهه.

ويتحصل من مجموعها إن معنى الحق فيه ركنان: الثبوت والاستحكام كما في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

(١) المعجم في فقه لغة القرآن: ١٠/١٣، عن ابن سيده في المحكم: ٢/ ٤٧٤.

(٢) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ٢٦/ ٢٠٣، عن النهاية: ١/ ٤١٥.

جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧) مع كونه مطابقاً للواقع وموافقاً للغرض الصحيح، قال الطوسي ((الحق: وضع الشيء في موضعه على ما تقتضيه الحكمة))[1]، ولذا كان الحق نقيضاً للباطل تارة بلحاظ فقدان الركن الأول فيه فإن الباطل لا استحكام فيه ولا ثبوت قال تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (الإسراء:٨١) ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ (الأنفال:٨)، ونقيضاً للضلال تارة أخرى بلحاظ فقدان الركن الثاني، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس:٣٢).

و﴿الْحَقُّ﴾ من الأسماء الحسنى لأن وجود الله تعالى وتوحيده وصفاته الحسنى هو الحق المطلق وكما عليه الأكثر في تفسير الآية التالية ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور:٢٥) والعلم هنا بمعنى ارتفاع حجاب الغفلة وإلا فإن هذه الحقيقة لا يجهلها أحد﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل:١٤)، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج:٦٢) وقال تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٦٢) ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢) فهو سبحانه الحق وما نزّله حق، وما حكم به حق، وما قضى به حق، وما وعد به حق، ومن بعثهم حق وما دعا إليه حق، وما سوى ذلك باطل وضلال وزُخرُف وغرور،

(١) التبيان: ٦/ ٢٨٦.

وعلى هذا فلا يتوقع من عاقل أن يترك الحق ويسير خلف الباطل مع ما فيه من الضلال والابتعاد عن الواقع والصواب.

لكن النتائج كانت على العكس كما تنبئ الآيتان الكريمتان فإن أكثر الناس عزفوا عن الحق وكرهوه وقاوموه، واستمرأوا الباطل ونصروه، وهي نتيجة غريبة لكنها حقيقة واقعة كرّرها القرآن الكريم بحسرةٍ وأسف، وقد أكدّها في عشرات الآيات الكريمة بألفاظ متعددة مثل (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا يشكرون، لا يعلمون) أو مثل قوله تعالى ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء:٨٩) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣)، وقد لا يكون كرههم للحق عناداً واستكباراً وإنما لجهلهم والتضليل الذي مارسه كبارهم الذين يثقون بهم، قال تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:٢٤) بل إن كثيراً من المؤمنين ليسوا صادقين في إيمانهم ويتزلزلون عند تعرضهم للفتنة والابتلاء ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦).

وتكرار لفظ الحق صريحاً في المقطع الثاني مع أن الاولى الإتيان بضمير يرجع إليه فيكون (وأكثرهم له كارهون) وهو ما يعرف بالإظهار في موقع الإضمار لإفادة حالة عامة وهي كره مطلق الحق بما هو حق وليس فقط الحق الذي جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المقصود باللفظ الأول، ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وكذا في الآية الثانية، فانتقل الكلام من الخاص إلى العام.

والغريب أن الناس تدعي أنها تريد الحق وتخرج مظاهرات للمطالبة بالحقوق وإقامة العدالة لكنهم يكرهون الحق ولا يقيمون العدالة في حياتهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام)في خطبة خطبها في صفين: (فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ[1] وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ. ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ)[2].

وتوجد قلة تتحدث بالحق وتعمل به، ومما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصفهم: (قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ)[3].

وقد دلّت الروايات الشريفة على ان المصداق الأكمل والأوضح للحق الذي لا ريب فيه هو رسول الله وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما)، وقد تواتر

---

(١) أي أن تنظيرات الناس في وصف الحق وتعريفه ومصاديقه كثيرة وكلُ منهم يدلي بدلوه، لكنهم في مجال التطبيق والعمل بالحق لا يلتزمون به وتضيق نفوسهم بتحمّله.

(٢) نهج البلاغة: ٢/ ١٩٨، الخطبة: ٢١٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (علي مع الحق والحق مع علي، اللهم أدر الحق معه حيث دار)[١]، وروى هذا المعنى علي بن إبراهيم في تفسيره قال: (الحق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، والدليل على ذلك قوله ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (النساء:١٧٠) يعني بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام))[٢] ويشهد له ما ورد من الروايات في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢) حيث نزلت في النعمان بن الحارث الفهري الذي أنكر بيعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير بالإمامة والخلافة من بعده[٣].

وثبت هذا الحق من بعده لأولاده الأئمة المعصومين (عليهم السلام) ففي زيارة الجامعة الكبيرة (وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ)[٤] فالحق منهم يؤخذ وإليهم يعود وهو لازم لهم لأنهم أصله ويجريه الله تعالى إلى الخلق من خلالهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَخَلَّفَ - رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)- فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ)[٥]، كما ورد في

(١) البحار: ٣٨/ ٢٦ باب (أنه مع الحق والحق معه).

(٢) البرهان: ٢٢/٧ عن تفسير القمي: ٩٢/٢ ورواها أيضاً في ٢٨٩/٢ عند آية الزخرف ٧٨.

(٣) أنظر قبس قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠) في تفسير من نور القرآن.

(٤) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٩٩/ ١٢٩.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٠.

الزيارة (إِرَادَةُ الرَّبِّ فِي مَقَادِيرِ أُمُورِهِ تَهْبِطُ إِلَيْكُمْ وَتَصْدُرُ مِنْ بُيُوتِكُمْ)[١] وقال الإمام السجاد(عليه السلام) في الصلوات الشعبانية: (الْمُتَقَدِّمُ لَهُمْ مارِقٌ وَالْمُتَأَخِّرُ عَنْهُمْ زاهِقٌ واللاّزِمُ لَهُمْ لاحِقٌ)[٢].

فحق محمد وآل محمد عظيم لا يحيط به الا الله تعالى، وقد حصلت معجزات لمن سأل الله تعالى بحق محمد وآل محمد في دعائه كالمرأة التي شفيت من العمى[٣].

فكثر اعداءهم لأن أكثر الناس تكره الحق، وقد أستمر هذا الكره لكل ما هو حق ومن يسير على طريق الحق، ودفع شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وأتباعه ثمناً باهظاً من أرواحهم وأموالهم وسائر حقوقهم لأنهم على الحق، روى البرقي في المحاسن عن أبي بصير قال: (قلت لابي جعفر جعلت فداك اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال: وما هو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر: إن سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى(عليه السلام) فلم يكن في قوم موسى (عليه السلام) أحد أشّد اجتهاداً وأشدّ حباً لهارون منهم فسمّاهم قوم موسى الرافضة فأوحى الله تعالى الى موسى (عليه السلام) أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فاني نحلتهم، وذلك اسم قد نحلكموه الله)[٤].

---

(١) الكافي: ٤/ ٥٧٧ ط.الإسلامية، وهي من الزيارات المطلقة للامام الحسين (عليه السلام) في كتب الزيارات، وفيها عبارات كثيرة تبيّن علو مقامهم (عليهم السلام).

(٢) مصباح المجتهد: ١/ ٤٥، مفاتيح الجنان في أعمال شهر شعبان.

(٣) بحار الأنوار: ٤٢/ ٤٤، عن تفسير فرات الكوفي، سفينة البحار: ٢/ ٢١.

(٤) المحاسن: ١/ ١٥٧، بحار الأنوار: ٦٨/ ٩٧، سفينة البحار: ٣/ ٣٨٤.

وفي أمالي الطوسي قال: (دخل سماعة بن مهران على الصادق (عليه السلام) فقال له: يا سماعة من شر الناس؟ قال: نحن يا ابن رسول الله، قال: فغضب حتى احمرت وجنتاه ثم استوى جالساً وكان متكئاً فقال: يا سماعة من شر الناس عند الناس؟ فقلت: والله ما كذبتك يا ابن رسول الله نحن شر الناس عند الناس لأنهم سمونا كفاراً ورافضة، فنظر إلي ثم قال: كيف بكم إذا سيق بكم إلى الجنة، وسيق بهم إلى النار؟ فينظرون إليكم ويقولون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ (ص:٦٢))[1].

وبقي شيعة أهل البيت (عليهم السلام) منزّهين عن الحقد والكره والظلم والانتقام، قال ابن ابي الحديد وهو معتزلي: (إن بشر الوجه وطلاقة المحيّا والتبسم والهيبة التي كانت من أخلاق أمير المؤمنين (عليه السلام) بقيت متوارثة في محبيه واوليائه إلى الآن، كما بقي الحقد والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، وقال: ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوايدهم يعرف ذلك)[2].

أسباب كره الحق:

ذكرت الآية التالية أحد أسباب كرههم للحق وهو أنه يخالف أهوائهم ويضع حدوداً لأنانيتهم وشهواتهم واطماعهم، وهم يريدون ديناً ونظاماً للحياة يلبي شهواتهم ويحفظ مصالحهم ويعزّز نفوذهم وامتيازاتهم، فيدعهم وشركَهم ويُبقي لهم أصنامهم لأنها مصدر ثروتهم وأن يبيح لهم الفحشاء والمنكر ونحو

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ١١٧.

(٢) بحار الأنوار: ٤١/ ١٤٧، سفينة البحار: ٢/ ٢١، عن شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

ذلك مما تشتهيه أنفسهم، لكن هذا غير ممكن، لأنه يؤدي إلى ضياع الضوابط والمعايير الصحيحة، لأن الكون كله خلق بحق ويدبّره الله تعالى بالحق بلا فرق بين التشريع والتكوين، فالخروج عن نظام الكون وقوانينه وترك الأشياء تسير عبثاً ينتج عنه ضلال وفساد كبير ولا يمكن أن يأمر به إله الحق، قال تعالى في الآية التالية ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٧١) ومما يريدون بأهوائهم اتخاذ شركاء لله تعالى وهذا عين الفساد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢) وأن أهواء الناس متفاوتة ومتناقضة فاتباع أهوائهم يؤدي إلى الصراع والفناء، فلا تتحقق سعادة الإنسان التي هي الغاية من وجوده إلا بالسير وفق النظام الكوني الذي رسمه الله تعالى وأودعه في فطرة الإنسان وجعل الدين منهاجاً له ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم:٣٠).

ويمكن ذكر أسباب أخرى لكره الحق وأهله وعدائهم والسعي لاستئصالهم هي التي أوجبت كثرة أعداء علي (عليه السلام) باعتباره ميزان الحق الذي يدور معه حيثما دار، وقد تناولتها في كلمة سابقة[1] قال الأزري في هائيته مشيراً إلى هذا المعنى:

خصّك الله في مآثر شتى ... هي مثل الأعداء[2] لا تتناهى

---

(١) خطاب المرحلة: ٨/ ٢٣٨.

(٢) في بعض المصادر (الاعداد)، والمعنى صحيح فان الاعداد مفتوحة لا نهاية لها وكذلك مناقب امير المؤمنين (عليه السلام).

منها:

١- الحسد، قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة:١٠٩) وقد توسعنا[١] في شرح هذه الظاهرة عند تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٥٤) قال الإمام الباقر (عليه السلام): (نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله أجمعين)[٢] وقد أعترف غاصبو حق أمير المؤمنين (عليه السلام) وظالمو أهل البيت (عليهم السلام) بأن قريشاً كرهت أن تجتمع النبوة والخلافة فتذهب بالفخر كله[٣].

وهذا الحسد غريزة متأصلة في مرضى القلوب والمبتلين بعقدة الحقارة، قال الشاعر:

إن يحسدوك على علاك فإنما متسافل الدرجات يحسد من علا.

٢- إن الحق ناصح أمين للناس يتحرى مصلحتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهم لا يحبون من ينصحهم ويرشدهم ويدلّهم على عيوبهم ليهديهم إلى الكمال قال تعالى ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾

---

(١) أنظر قبس قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء:٥٤) في تفسير من نور القرآن.

(٢) الكافي: ١/ ١٥٩/ ح١.

(٣) الكامل لابن اثير: ٢/ ٤٣٩، تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٣، المسترشد في إمامة علي بن ابي طالب (عليه السلام): ٦٨٣.

(الأعراف:﴿٧٩﴾) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أمحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة)[١] وهو يعلم أن النصيحة مرّة لا يستسيغها الناس لكنه (عليه السلام) كان يقول (مرارة النصح أنفع من حلاوة الغش)[٢] وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (اتبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتّبع من يضحكك وهو لك غاش)[٣] وقيل للإمام الرضا (عليه السلام) (إن قوماً من أهل بيتك يتعاطون أموراً قبيحة فلو نهيتهم عنها فقال: لا أفعل، فقيل: ولم؟ قال: لأني سمعت أبي يقول النصيحة خشنة)[٤].

٣- الاختلاف الطبيعي مع الحق بسبب خبث المعدن وسوء السريرة فيتحول إلى باطن خبيث يكره خصال الخير والنبل والكمال، ونقصد بالطبع ما كان مكتسباً بسبب المعاصي والذنوب وعدم الإصغاء لصوت الهداية والصلاح لا الطبع الأولي وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإنها لا تأبى الحق، ولو جبل الإنسان فطرياً على كراهة الحق لكان معذوراً في عدم قبوله، لذا كان حب علي (عليه السلام) ميزاناً يميِّز بين من أصله طيّب أو خبيث، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن علي (عليه السلام) (والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنّه لعهد النبي الأمي إليّ أن لا يحبّني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق)، وروى

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

(٢) غرر الحكم: ٩٧٩٩.

(٣) المحاسن: ٢/ ٤٤٠/ ح٢٥٢٦.

(٤) عيون اخبار الرضا للشيخ الصدوق: ١/ ٢٦١/ باب ٢٨/ ح٣٨، فيما جاء عن الإمام علي بن موسى (عليهما السلام) من الاخبار المتفرقة.

الترمذي في صحيحه بسنده عن أم سلمة قالت (كان رسول الله (ﷺ) يقول: لا يحبّ علياً منافق ولا يبغضه مؤمن)[١].

وحربهم على الحق وأهله ليست شريفة ولا نظيفة بل يستعملون فيها أقذر الأدوات من البهتان والكذب والتدليس والخداع والمكر من أجل الحيلولة بين الناس والاستماع إلى الحق كاتهام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنون كما حكت الآية مع أن ما جاء به عين الحكمة والصواب ولو كان من صنع مجنون لكان مضطرباً فيه اختلاف كثير فكيف عجزوا عن مجاراته والإتيان بمثله، فهم يعلمون أنه حق وأن اتهاماتهم له باطلة، لكنهم يغلفون دوافعهم الحقيقية بعناوين تخدع العامة فتنطلي عليهم الحيلة ويصدقون الكذب، سئل مروان بن الحكم عن قتالهم لعلي (عليه السلام) وسبِّه على المنابر وهل إنه كان مسؤولاً عن دم عثمان كما زعموا فقال مروان: (ما كان أحدٌ أدفع عن عثمان من علي (عليه السلام) فقيل له: ما لكم تسبّونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك)[٢].

هذا ما سجّلناه من دواعٍ وأسباب، ولعله توجد غيرها يكتشفها المتتبع، ولكن ماذا كانت النتيجة، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣٠) فكانوا كلما أوغلوا في معاداة علي (عليه السلام) وسبّه على المنابر والافتراء عليه والانتقاص منه كان علي (عليه السلام) يرتفع ويزداد تألّقاً حتّى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، صحيح الترمذي: ٢٩٩/٢ وراجع مصادره لدى العامة في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢٥٣/٢.

(٢) الصواعق المحرقة: ١/ ١٦٣، مجموعة محققين مؤسسة الرسالة لبنان/ ١٩٩٧، شرح- نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ١٣/ ٢٢٠.

اعترفوا بذلك فقال قائلهم: ((إن بني أمية لهجوا بسبّ علي بن ابي طالب في مجالسهم ولعنوه على منابرهم فإنما يأخذون بضبعيه إلى السماء مدا))[1].

هذه الظاهرة المؤلمة في حياة البشر تتكرر أيضاً بدرجات متفاوتة طبعاً مع كل الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومع العلماء الربانيين العاملين المخلصين ولنفس الأسباب المتقدّمة، ممّا يوجب الحسرة والألم والاستنكار والاستغراب قال تعالى ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (يس:٣٠).

وتُبقي الآية الكريمة باب الأمل بتحقق الهداية والصلاح مفتوحاً حيث وصفت المعرضين عن الحق بالأكثرية وهذا يعني وجود قلة تحب الحق وتعتنقه وتثبت عليه، لأنهم حافظوا على سلامة فطرتهم.

لذا على العاملين الرساليين أن لا يستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه وأن لا يشعرهم كثرة أعدائهم بالإحباط واليأس فهذا دليل نجاحهم وتأثيرهم في الناس، ولو كانوا فاشلين ولا يمتلكون القدرة على الإصلاح والتغيير لما عاداهم أحد ولا حسدهم أحد.

وقد أكّدت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على التمسك بالحق والتواصي به والصبر عليه وإن كان شديداً، قال تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٣) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحبَّ إليه - وإن نقصه وكرثه - من الباطل وإن جرَّ إليه فائدة

(١) أمالي الطوسي: ٥٨٨ المجلس:٢٥/ ح٦، والضبع وسط العضد من اليد.

وزاده)[1] وقال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن كره حكماً شرعياً على خلاف هواه: (يا هذا اصبر على الحق فإنه لم يصبر أحد قط لحق إلا عوّضه الله ما هو خير له)[2] وفي تحف العقول عن أبي محمد (عليه السلام) قال: (ما ترك الحقَّ عزيزٌ إلا ذل، ولا أخذ به ذليل إلا عزّ)[3].

وحذر المعصومون (عليهم السلام) من التجاوز على أهل الحق، روى الشيخ الصدوق بسنده عن عبد الأعلى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من دخل مكة مبرّءاً من الكبر غفر ذنبه، قلت: وما الكبر؟ قال: غمص[4] الحق وسفه الخلق، قلت: وكيف ذاك؟ قال: يجهل الحق ويطعن على أهله)[5].

ويجب الالتفات إلى أمرين تضمنتهما كلمةُ لأمير المؤمنين (عليه السلام):

١- أن مجرد عدم نصرة الحق وخذلانه هو نصرة للباطل.

٢- أن الحق يعرف بالحجة والبرهان فإذا ثبت صار هو المعيار في تمييز أهله عن غيرهم وليس العكس بأن يخدع بعناوين كبيرة يجعلها المقياس لمعرفة الحق فيترك العمل بما قام عليه الدليل من القرآن والأحاديث الشريفة ويتبع قول فلان وفلان لأنهم أضفوا على انفسهم عناوين ذات قدسية، كالذي وقع فيه

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٥.

(٢) بحار الانوار: ٧٠/ ١٠٧ عن تنبيه الخاطر.

(٣) بحار الانوار: ٧٢/ ٢٣٢.

(٤) غمص من باب ضرب، أي احتقره وعابه وتهاون بحقه كما في مجمع البحرين.

(٥) بحار الانوار: ٢/ ١٤٢.

أصحاب الجمل[1]، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في الذين توقفوا عن بيعته: (وقيل إن الحارث بن حوط أتاه (عليه السلام)، فقال له: أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فقال (عليه السلام): يا حار، إنك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه. فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر. فقال (عليه السلام): إن سعداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق، ولم يخذلا الباطل)[2].

روى عبد الرحمن بن الحجاج قال: (كنا في مجلس أبان بن تغلب فجاء شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد مع علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) قال: فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي (عليه السلام) بمن تبعه من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما

---

(١) وهي حالة مستمرة حيث يكون المعيار (قال فلان) أو (هل من المعقول أن يكون قول فلان ليس حقاً) ونحو ذلك، مثلاً الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء:١١٢) ثم يأتي شخص فيرمي مؤمناً موالياً يعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونشر تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) وخدمة الناس ببهتان وكذب، فمن رد عليه قوله لمخالفته للقرآن فهذا منهج الحق والقرآن، ومن أخذ منه ونشر كلامه فهذا ممن أخذ من الرجال وليس من الحق، أو ترد الرواية عن ابي عبد الله (عليه السلام) يقول: (من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان) (الكافي: ٢/ ٣٥٨) فيتركها ويتبع فلاناً في تسقيط المؤمنين افتراءً عليهم مستدلاً بقول فلان وهو يعلم مجافاته للحق.

(٢) نهج البلاغة: حكمة (٢٦٢).

عرفنا فضلهم إلا باتباعهم علياً (عليه السلام))[١].

وكلما امتد الزمان ازدادت الهجمة على الحق وأهله وأتباعه وكثر أعداء الحق وانضم إليهم من لم تتوقع منهم ذلك مصداقاً لقول الإمام الصادق (عليه السلام): (والله لتمحصن، والله لتميزن، والله لتغربلن، حتى لا يبقى منكم إلا الأندر)[٢]، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله)[٣].

وهنا قد يثار سؤال بأنه وردت روايات تحث على لزوم الجماعة وعدم الانشقاق عنهم وأن الحق معهم كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة، لأن الشاذين من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب)[٤] فكيف ينسجم هذا مع ما أفادت الآية الكريمة من ذم الأكثرية وابتعادهم عن الحق.

والجواب أن الجماعة التي أُمرنا بملازمتها هي التي بنت نظامها على الحق واجتمعت عليه فالارتباط بها يكون عملاً بالحق الذي هم عليه وليس لمجرد أنها أكثرية عددية فإنها لا تغني من الحق شيئاً لانسياقها وراء الأهواء والشهوات وميلها إلى الأنانية الموجبة للصراع والتنازع فيقود إتّباعها إلى الضلال والفساد كما أخبرت الآية الكريمة وتشهد به التجارب، لكن أكثر الناس يميلون إلى السير مع

---

(١) رجال النجاشي: ١٢، رقم: ٧.

(٢) تفسير العياشي: ١٩٩/١/ح١٤٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

الأكثرية من دون تدبر في العواقب دفعاً للمشاكل وحبّاً للراحة حتى أنشأوا مثلاً قالوا فيه: ((حشر مع الناس عيد)) فالأكثرية بما هي أكثريه عددية لا قدسية فيها ولا تنتج حقاً إلا بمقدار موافقتها للحق، ولو أردنا أن نعتمد رأي الأكثرية فلا بد من توعيتها وزيادة بصيرتها ورشدها والعمل وفق المنهج الرباني الرشيد السديد.

القبس/١٤٠

سورة المؤمنون:﴿٩٦﴾

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾

من أخلاق الإسلام التي حثّت عليها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة العفو والصفح عمّن اساء اليك وظلمك وجرح مشاعرك وأن تقابل هذه السيئة بالحسنة، وقد بلغت الآيات بالعشرات والأحاديث بالمئات، ومنها قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:﴿٣٤﴾-﴿٣٥﴾) وقال تعالى ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (الرعد:﴿٢٢﴾) وقال تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿المؤمنون:﴿٩٦﴾).

وتصرح الآية الأولى أن من ثمرات هذا الخلق الكريم راحة النفس وصفاء البال وانتشار المودة والمحبة بين الناس بحيث نستطيع تحويل العدو إلى صديق حميم بهذه الاخلاق.

وقد جعلته الآية الثانية علامة مميزة لأولي الالباب الذين لهم مقام محمود عند الله تعالى.

ولما ابتعد المجتمع الإسلامي عن هذه الاخلاق رجع امره الى التشتت والتنازع والفرقة والاختلاف إلى حد الاقتتال وازهاق الأرواح، فان هذه النزاعات كان يمكن نزع فتيلها والقضاء عليها من أول الأمر بالعفو عن الإساءة ومقابلة

السيئة بالحسنة.

إن هذه الاخلاق الإسلامية هي أساس ما يعرف اليوم بعلم التنمية البشرية وعلم الانثروبولوجي وفن العلاقات الإنسانية.

وفي الحقيقة فأن عنوان مقابلة السيئة بالحسنة له مظاهر عديدة في العلاقات الاجتماعية، ويتحلل إلى اشكال عديدة من السلوك الإنساني، ففي كتاب الكافي بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في خطبته الا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة، العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك والإحسان إلى من اساء اليك وإعطاء من حرمك)[1].

فهذه الأنماط الأربعة من السلوك كلها داخلة تحت هذا العنوان، وفي الكافي أيضاً بسند صحيح عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال (سمعته يقول اذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي منادٍ أين أهل الفضل قال فيقوم عنق - أي جماعة- من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون وما كان فضلكم فيقولون كنّا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا قال: فيقال لهم:صدقتم ادخلوا الجنة)[2].

تصوروا أي منزلة رفيعة يحظى بها أهل هذا الخلق الكريم حيث ينادون من بين مليارات البشر من الأولين والآخرين ثم يكرمّون امام الملأ العام الواسع بما يسرّهم وفي ذلك اعلان عن أهمية هذا الخُلق.

قد تقول ان الآخر لا يفهم هذه الاخلاق ولا يتجاوب معها مما يدفعني إلى

---

(١) أصول الكافي: ٢/ ١٠٧/ باب العفو/ ح١.

(٢) أصول الكافي: ٢/ ١٠٧/ باب العفو/ ح٢.

مقاطعته، لكن الإمام الباقر (عليه السلام) يحمِّل المظلوم مسؤولية القطيعة كما يحمّلها الظالم في تأكيد عجيب على هذه الاخلاق، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) (ما من مؤمنين اهتجرا فوق ثلاث – أي ثلاثة أيام – الا وبرئت منهما في الثالثة فيقل له: يا بن رسول الله، هذا حال الظالم فما بال المظلوم؟ فقالّ: ما بال المظلوم لا يصير إلى الظالم فيقول:انا الظالم حتى يصطلحا)[1].

إن حمل النفس على هذه الاخلاق يتطلب شجاعة ومجاهدة للنفس عظيمة وهذا مما لا ريب فيه لذا سُمي (الجهاد الأكبر) ولكنه مع العزم والتوكل على الله تعالى والوعي بعواقب الأمور ييسّر الأمر، ومن الأمور التي تستحضرها لتقوّي عزيمتك ما رواه الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (قال عيسى بن مريم ليحيى بن زكريا (عليهما السلام) اذا قيل فيك ما فيك فاعلم أنه ذنب ذكرته فاستغفر الله منه وإن قيل فيك ما ليس فيك فاعلم انه حسنة كتبت لك لم تتعب فيها)[2]. لأن الأمر لا يخلو من أحدى الحالتين وفي كلتيهما يكون الخير لك.

وان كان المفروض بنا كمسلمين أن نسلِّم لما يريده الله تعالى فوراً بلا كلام وعدم الاحتياج إلى مزيد من الكلام لتحصيل القناعة بما يريده الله تعالى.

ويتأكد هذا الخُلق بين الاقرباء والارحام، عن عبدالله بن سنان قال (قلت لأبي عبدالله (عليه السلام):إن لي ابن عم أصله فيقطعني، حتى هممت لقطيعته إياي أن اقطعه قال:إنك اذا وصلته وقطعك وصلكما الله جميعاً وإن قطعته وقطعك قطعكما

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ١٨٨/ ح ١٠.

(٢) أمالي الصدوق: ٤١٤، المجلسي٧٧/ ح٨.

الله جميعاً)[١].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) وقد جاءه رجل يشكو اقاربه فقال (عليه السلام) (اكظم غيضك وافعل، فقال:انهم يفعلون ويفعلون، فقال:أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله اليك)[٢].

وتبيّن الرواية التالية النكال والعقوبة القاسية التي تحلّ بمن يقابل الحسنة بالسيئة من ذوي الارحام فقد روى الكشي[٣] في رجاله بسنده عن علي بن جعفر بن محمد أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (عليه السلام) شاء ان يستأذن عمه ابا الحسن موسى (عليه السلام) في الخروج إلى العراق قال: فأذن له، فقام محمد بن إسماعيل فقال: يا عم أحب أن توصيني، فقال:اوصيك أن تتقي الله في دمي - أي لا تنقل إلى هارون العباسي كلاماً عني يؤدي إلى قتلي - فقال: لعن الله من يسعى في دمك، ثم قال: يا عم أوصني، فقال: اوصيك أن تتقي الله في دمي، قال: ثم ناوله أبو الحسن (عليه السلام) صرة فيها مائة وخمسون دينارا، فقبضها محمد، ثم ناوله أخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أعطاه أخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أمر له بألف وخمسمائة درهم كانت عنده؛ فقلت له في ذلك:ولاستكثرته، فقال:هذا ليكون أوكد لحجتي عليه إذا قطعني ووصلته، ثم ذكر انه سعى بعمه الى الرشيد وانه يدعي الخلافة ويجيء له الخراج، فامر له بمئة الف درهم ومات في تلك الليلة.

---

(١) الوسائل: ١٥/ ٢٤٧، عن أصول الكافي.

(٢) الوسائل ٨/ ٣٩٣، عن أصول الكافي/٤٦٩.

(٣) اختيار معرفة الرجال- الشيخ الطوسي: ٢/ ٥٤٠.

فاذا أردنا صفاء البال وراحة النفس والسعادة وبناء المجتمع المتماسك المتحد المتحابب في الدنيا وضمان الفوز بالدرجات الرفيعة في الاخرة فلنلتزم بهذه الاخلاق الكريمة.

القبس/١٤١

سورة المؤمنون: ﴿١١٥﴾

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

موضوع القبس: لا مكان للتفاهة في حياة الإنسان

آية جليلة القدر عظيمة البركات، روى في الدر المنثور ان عبد الله بن مسعود قرأها في إذن مصاب مع الآيات الثلاثة التالية حتى نهاية السورة فبرأ لأنه سمع من رسول الله (ﷺ) قوله: (والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال).

وفيه أيضاً عن أحد أصحاب النبي (ﷺ) قال: (بعثنا رسول الله (ﷺ) في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن امسينا وأصبحنا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا)[1].

يظنّ كثير من البشر أنه لا توجد حياة أخرى بعد الموت ولا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنة ولا نار، وهو وهم باطل يريد به هؤلاء أن يخدعوا أنفسهم، حتى يطلقوا العنان لشهواتهم وأهوائهم ليفعلوا ما يشاؤون ما داموا لا يتعرضون للحساب.

فالآية الكريمة توجّه لهم استفهاماً استنكارياً فيه توبيخ على هذا الاعتقاد ممزوجاً بالحسرة والأسف، وهكذا في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ

(١) الدر المنثور: ١٢٢/٥، ط.دار الفكر.

سُدًى﴾ (القيامة:﴿٣٦﴾)، فإن ظنَّكم بعدم وجود يوم القيامة الذي ترجعون فيه إلى خالقكم ليحاسبكم على أعمالكم، يلزم منه أنَّ خلقكم وايجادكم في الدنيا عبث وليس وراءه هدف صحيح، ولا يثاب المحسن على إحسانه ولا يعاقب المسيء على إساءته ولا ينتصف المظلوم من الظالم، وفي كل هذا ظلم لله سبحانه وتعالى ووصفه بغير الحكمة والعدالة والقدرة، لذا جاءت الآية التالية حاسمة في التنزيه ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون:﴿١١٦﴾).

فهذا الظن وهم باطل لا يليق بالخالق الحكيم الرحيم ولا يستند إلى دليل، بل هو على خلاف الحق والبرهان الساطع الذي يذعن له العقل السليم، فإن الله تعالى لم يخلقكم عبثاً من دون غرض صحيح، وهذه الغاية هي التي تجعل للحياة معنى وقيمة ولولا وجود يومٍ يكافئ به المحسنون ويعاقب فيه المسيئون لما كان أي حافز لفعل الخير ولا رادع عن فعل الشر، وهذا أحد الأدلة على وقوع المعاد والحساب، وهو دليل نفي العبثية في الخلق، فالبعث وما يليه من الحساب والجزاء هو الحلقة الأخيرة في النشأة لتبلغ به كمالها وتمامها، ولا يغفل عن هذه الحقيقة المتجلية في صفات الكون إلا من عَمِي قلبه عن رؤية الحق.

وهكذا تكشف الآية عن أنَّ كثيراً مما يظنه الأنسان ويعتقد به هو وهم باطل، لأنه لم يأخذه من المعين الصافي.

فعلى الإنسان أن يستشعر مسؤوليته عن وجوده في هذه الدنيا، وأن يستعد للحساب عند رجوعه إلى الله تعالى يوم القيامة ومن يستسلم للغفلة سيفاجأ بما يجد في كتاب أعماله ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:﴿٤٧﴾)

فإنه مخلوق للآخرة وهي الحياة الباقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:٦٤) والدنيا دار ممر لها، يتزود منها الإنسان بما يضمن له السعادة والفوز في الآخرة، وليست هي هدفاً بنفسها حتى تكون كل همَّه، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الدنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها)[1].

وقد أكّدت عدة آيات قرآنية على هذه الحقيقة وهي نفي العبثية في خلق الكون والإنسان بألفاظ متعددة كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الدخان:٣٨) واللعب كالعبث يطلق على الفعل الذي يخلو من الغرض الصحيح، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۞ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:١٦-١٧) واللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، وكل ذلك باطل نقيض الحق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص:٢٧) ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٩١).

فلا يضيّع الإنسان أي جزء من وقته من دون اكتساب ما ينفعه في آخرته، فإن عمره رأسماله الذي سُلِّم إليه ليستثمره في الخيرات والحسنات.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة: ٤٦٣.

وأشارت عدة آيات كريمة إلى الغرض من خلق الإنسان، بعضها على نحو الغرض النهائي كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٩) فقد خلقهم الله ليتنعموا برحمته ويسعدوا برضوانه، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:٧٠) فالغرض تكريمه وبيان أفضليته ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠)، وبعضها على نحو الوسيلة للوصول إليه كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) روي عن الإمام الحسين (عليه السلام) قوله: (أيها الناس، إن الله جلَّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه)[1]، فخروجه إلى الدنيا لخوض هذه التجربة والاختيار حتى يتأهل لنيل الكرامة والسعادة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك:٢).

روى الشيخ الصدوق في العلل بسنده عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال: (سألت الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) فقلت له: لم خلق الله الخلق؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى النعيم)[2].

وفي الآية تقريع وزجر للعابثين في هذه الحياة الغافلين عمّا خلقوا لأجله والمهوسين بالتفاهات، حتى أصبحت (صناعة التفاهة) كما يسمونها رائجة، وكلما

(١) بحار الانوار: ٣١٢/٥.

(٢) نور الثقلين: ٥٦٦/٣.

كان المحتوى هابط للمنشور أو المقطع الفيديوي أكثر تفاهة وانحطاطاً كان أكثر رواجاً ويلقى إعجاب الملايين، فتسابق طالبو الشهرة والمال لابتكار التفاهات، بينما المواقع التي تبني الإنسان وتغذّي الفكر وتنمّي القدرات الإيجابية لا يرتادها إلا القلة.

إن صناعة التفاهة ونشرها بين الناس ليست وليدة اليوم، بل هي سياسة تتبعها الحكومات الجائرة الظالمة لإلهاء الشعوب عن قضاياها الأساسية، وإشغالهم عن محاسبة الحكام الظلمة والالتفات إلى جرائمهم، ولتسطيح عقول الناس وتجهيلهم حتى يكونوا كالقطيع الذي يقاد بلا وعي كالشعوب الغربية اليوم، حتى تشبّه الآلاف منهم بالكلاب في نباحهم وسلوكهم ومشيهم على أربع، وآخرون بالخراف كذلك ولهم حظائر يأوون إليها، أما تغيير الجنس والمثلية والشذوذ فحدّث ولا حرج، حتى قالوا إن الإنسان حينما يولد يكون منقسماً بايولوجياً إلى ذكر وانثى أما بعد ذلك فان النوع الاجتماعي أو الجندر لا حدود له فيمكن أن يكون حماراً أو خشبة أو وحشاً أو غير ذلك حسبما يشتهيه ويميل إليه، ويجري كل ذلك باسم الحرية الزائفة.

وكان حكام بنو أمية نشطين في صناعة التفاهة خصوصا في الحرمين المقدسين مكة والمدينة، لأن فيها بقايا أصحاب النبي (ﷺ) والفقهاء والصلحاء وعلى رأسهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فتعمدوا إسقاط قدسية هاتين المدينتين والقضاء على الأخلاق الكريمة والعفة والشرف بنشر الخلاعة والمجون، فكان شاعرهم عمر بن أبي ربيعة المخزومي يتجول في شوارع المدينة المقدسة وينشد

في الغزل شعراً خليعاً وحوله الفاسقات يغنين ويضربن بالدفوف ((وكان يتعرض لنساء الحاج ويشبّب بهن))[١].

وانتشر المهرجّون الذين يضحكون الناس بالمقالب التي ينصبونها لأهل الصلاح والشرف أو عامّة، الناس، وتطورّت الحالة في العصر العباسي حيث نشأت مجاميع من يُسمَّون بالشطّار والعيّارين، وأغرت هذه الحرفة كثيرين مما دفعهم إلى ترك طلب العلم لأنهم وجدوا سوقه كاسداً، فاتجهوا إلى صناعة التفاهة طلباً للدنيا، وقد عبَّر بديع الزمان الهمداني (ت:٣٩٨ هـ) في المقامة القردية من مقاماته، عن دافع هؤلاء مع اعترافهم بدناءة فعلهم بعد أن وصف ازدحام الناس على قَرَّادٌ يُرْقِصُ قِرْدَهُ بما ورد..... فَقُلتُ: مَا هَذِهِ الدَّنَاءَةُ وَيْحَكَ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

الـــذَّنْبُ لِلْأَيَّـــام لاَ لِـــي ... فَاعْتِـــبْ عَلَـــي صَـــرْفِ اللَّيَـــالِي

بِـــالحُمْقِ أَدْرَكْـــتُ المُنَـــى ... وَرَفَلْـــتُ فِـــي حُلَـــلِ الجَمَـــالِ[٢]

ويعلمنا الإمام[٣] السجاد (عليه السلام) في أدعيته التي تمثل مدرسة متكاملة للمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة وأسس الحياة السعيدة، يعلمنا الهدفية في

(١) الاعلام للزركلي: ٥/ ٢١١، ط/٣ عن مصادره.

(٢) مقامات بديع الزمان للهمداني: ١/ ١٠٦.

(٣) تحدث سماحة المرجع (دام ظله) بملخّص هذا القبس تزامناً مع ذكرى استشهاد الإمام السجاد (عليه السلام) مع حشد كبير من الشباب والطلبة الجامعيين في نهاية الدورة الصيفية المكثفة التي يتلقونها في النجف يوم ٢٧ محرم ١٤٤٥هـ – الموافق ٢٠٢٣/٨/١٥م.

الحياة وألا نصرف اوقاتنا إلا فيما ينفعنا، ومن ذلك قوله: (وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ)[1].

أي كرّس أعمالي لما تطلبه مني يوم القيامة كالصلوات في أوقاتها وصيام شهر رمضان وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب المحارم والبر بالوالدين والإحسان إلى الناس وعدم الظلم ونحو ذلك.

وكان لأئمة المسلمين (عليهم السلام) المواقف الصارمة في مواجهة هذه التفاهات كصنع المقالب والقيام بحركات لإضحاك الناس، فقابلوها بالتوهين والتحقير، تارة وبالموعظة والنصيحة وبالتحذير من سوء العاقبة تارة أخرى، روى الشيخ الصدوق في الأمالي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان بالمدينة رجل بطّال يضحَكُ الناسُ منه، فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أُضحِكه -يعني علي بن الحسين (عليهما السلام) - قال: فمّر عليٌّ وخلفه موليان له فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته ثم مضى، فلم يلتفت إليه علي (عليه السلام)، فاتبعوه - أي الموليان- وأخذوا الرداء منه، فجاءوا به فطرحوه عليه، فقال لهم: من هذا؟ فقالوا له: هذا رجل بطّال يضحك منه أهل المدينة، فقال (عليه السلام): قولوا له: إن لله يوماً يخسر فيه المبطلون)[2].

أقول: يشير (عليه السلام) بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الجاثية:٢٧). هذه الخسارة التي تحدثت عنها الآيات عديدة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء العشرون: مِنْ دُعَائِهِ (عليه السلام) فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ومَرْضِيِّ الْأَفْعَالِ.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٨٩.

الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ (الشورى:٤٥) لأنهم خسروا كل رأسمالهم فيما يضرُّهم ولا ينفعهم.

وكان الإمام السجاد (عليه السلام) يحذّر الناس من هذه الأفعال ويعتبرها من الكبائر، روى أبو خالد الكابلي عن سيد الساجدين (عليه السلام) في تفسير (الذنوب التي تهتك العصم) بأنها (شرب الخمر ولعب القمار، وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح وذكر عيوب الناس)[1].

ويزداد قبح الفعل إذا تضمّن كذباً أو إيذاءً للناس واستهزاءً بهم، وهو ما يحصل عادة في المقالب أو الكاميرا الخفية أو كذبة نيسان وامثالها، (روى في الترغيب والترهيب: عن أبي الحسَن – وكانَ عَقَبيّاً بَدْريّاً –: كُنّا جُلوساً معَ رسولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله)، فقامَ رجُلٌ ونَسِيَ نَعلَيهِ، فأخَذَهُما رجُلٌ فوَضَعهُما تَحتَهُ، فرَجعَ الرّجُلُ فقالَ: نَعْلَيَّ، فقالَ القَومُ: ما رأيناهُما، فقالَ: هُوَ ذَه، فقالَ رسولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله): فكيفَ برَوعَةِ المؤمن؟! فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، إنّما صَنعتُهُ لاعِباً، فقال: فكيفَ برَوعَةِ المؤمن؟! – مَرَّتين أو ثلاثاً)[2]، فأين مجتمعنا الذي يتبجح بانتقاص الآخرين والسخرية منهم من هذه الأخلاق الكريمة.

لذا ورد التحذير منه والوعيد بأشد العقوبات، – من وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي ذر (ويل للذي يحدِّث فيكذب ليضحك القوم، ويل له ويل له ويل له)[3] وفي

(١) معاني أخبار للصدوق: ٢٧٠/ ٢٧١، وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٨٢، ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام).

(٢) الترغيب والترهيب: ٣/ ٤٨٤/ ح٥.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٥١/١٢ ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام).

رواية أخرى (إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض)[١].

روى سيف بن عميرة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (كان يقول علي بن الحسين (عليهما السلام) لولده: اتقوا الكذب، الصغير منه والكبير، في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير، أما علمتم إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صدّيقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذابا)[٢].

عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (وإياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً وإن حكيت ذلك عن غيرك)[٣]، فالتبرير بمقولة (ناقل الكفر ليس بكافر) يحتاج إلى وقفة تأمّل ومراجعة.

وفي نهج البلاغة (ما مزح أمرؤ "رجل" مزحةً إلا مجّ من عقله مجة)[٤].

وفي أمالي الصدوق: عن الصادق عليه السلام قال: (لا تمزح فيذهب نورك ولا تكذب فيذهب بهاؤك).

وروى صاحب السرائر في وصيّة الكاظم عليه السلام لبعض ولده: (إيّاك والمزاح فانّه يذهب بنور إيمانك ويستخف مروّتك)[٥].

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٥١/١٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٥٠/١٢ ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام).

(٣) نهج البلاغة: ٣/ ٥٦.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٤٥٠.

(٥) سفينة البحار: ٦٧/٨.

وهذ النهي لا يشمل المزاح مع المؤمنين وملاطفتهم وإدخال السرور عليهم فإنه مستحب إذا خلا من الكذب والباطل وإيذاء الآخرين والاستهزاء بهم ومن كل ما يوجب عداوتهم وتخجيلهم وأمثالها، ففي الكافي بسنده عن يونس الشيباني قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل، قال: فلا تفعلوا[1] فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتُدخِل السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يداعب الرجل يريد أن يسرّه)[2] وروي (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ولا يؤذي قلباً ولا يفرط فيه)[3].

ومما روى في مزاح النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يأكل تمراً مع علي (عليه السلام) وكان يضع النوى قدّام علي (عليه السلام) فلمّا فرغا قال: يا علي هذا النوى كلّه أمامك انّك لأكول، فقال يا رسول اللّه الأكول الّذي يأكل التمر ونواه يعني به النبي (عليه السلام) لأنّه لم يكن عنده نوى التمر)[4].

وروي أن رجلاً أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: (يا رسول الله أحملني، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّا حاملوك على ولد ناقة، قال: وما أصنع بولد ناقة؟ - وكأنه ظنّ أنه يعطيه ولد الناقة الصغير فلا ينفعه بالحمل وغفل عن أن الناقة الكبيرة تلدها الناقة أيضاً- فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): وهل تلد الأبلَ إلا النوق)[5].

---

(١) أي لا تقلّلوا من المداعبة، وفي (مكارم الأخلاق:٥٨/١/ ح٤٧) (هلّا) وهو الأنسب.

(٢) الكافي: ٦٦٣/٢/ ح٣.

(٣) بحار الأنوار: ٢٣٥/٦٩.

(٤) الأنوار النعمانية - السيد نعمة الله الجزائري: ٧١/٤.

(٥) بحار الأنوار: ٢٩٤/١٦/ ح١، سنن أبي داوود: ٢٠٠/٤/ ح٤٩٩٨، ميزان الحكمة: ١٢٣/٨.

وفي الكافي عن معمر بن خلاد سألت أبا الحسن (عليه السلام) فقلت: (جعلت فداك الرجل يكون مع القوم فيجري بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال: لا باس ما لم يكن، فظننت أنه عنى الفحش، ثم قال إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأتيه الاعرابي فيهدي له الهدية ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان إذا اغتم يقول: ما فعل الاعرابي ليته أتانا)[1].

نسأل الله تعالى أن يوقظنا من نومة الغافلين المبعدين (وَعَمِّرْني مَا كَانَ عُمْرِيْ بِذْلَةً فِي طَاعَتِكَ)[2].

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٢/ ٦٦٣، ميزان الحكمة: ١٢٤/٨.

(٢) من دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد (عليه السلام).

القبس/١٤٢

سورة النور:﴿٢١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾

موضوع القبس: خطط الشيطان الناعمة للوصول الى غرضه

قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور:﴿٢١﴾).

الخطوة: مصدر مرة من الخطو، وهي مسافة ما بين القدمين عند السير، وجمعها خُطُوات وتقرأ بضمتين مثل غُرفة وغُرُفات، وقد حكي عن الفّراء قوله (العرب تجمع فُعلة من الأسماء على فُعُلات نحو حُجرة وحُجُرات، فرقاً بين الاسم والنعت، النعت يُخففَّ مثل حُلوة وحُلوات)[1] (والمشي يقتضي تجاوز الموضع، فالتعدي والتجاوز من لازم المعنى وليس هو مدلول اللفظ كما في معجم مقاييس اللغة، قال (والخطأ من هذا لأنه مجاوزة حد الصواب)[2].

واتباع الخطوات تعني اقتفاء الأثر والملازمة في السير، وكذا اتباع خطوات الشيطان يعني السير على منهجه ومتابعته والاستجابة لما يأمر به، وقد ذكرت الآية سبب النهي عن اتباع الشيطان ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ويسوق أتباعه إلى الضلال والشقاء وتعدي حدود الله تعالى والابتعاد عن طاعة الله تعالى وتكون النتيجة ما ذكره الله تعالى في قوله

(١) التحقيق للمصطفوي: ٣/ ٩٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ١٩٨ مادة (خَطُواً).

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٨٥).

فمنهج الشيطان هو الدفع باتجاه الوقوع في المنكر وهو كل أمر سيء يستقبحه العقل والشرع فعلاً أو قولاً، والفحشاء وهي المنكرات التي تتجاوز الحدود المقبولة على صعيد الفرد أو المجتمع خصوصاً ما يتعلق بأعراض الناس وأموالهم وأمنهم وغذائهم.

والأمر بمعنى الدعوة الى الفحشاء والمنكر بتزيينهما والتحريض عليهما وإيجاد الدوافع لهما كما تقول: نفسي تأمرني بكذا أي تدعوني إليه، إذ من المعلوم أن الشيطان ليس له سلطة قاهرة على الإنسان ولا يستطيع إكراهه على شيء، وكل فعله الوسوسة وتحديث النفس الأمارة بالسوء وتزيين فعل الشيء والإغراء بالفحشاء والمنكر لا أزيد من ذلك، وقد حكى الله تعالى قوله لمن ضلوا بسببه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم:٢٢) والإنسان مخير في اتباعه أو مقاومته بتأييد الله تعالى ولطفه، وقد يُسلّم الشقي قياده للشيطان فيُسيّره كيف يشاء ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١٠٠) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة:١٩)، وهذا ما يقوم به أعوانه من شياطين الجن والإنس فإنهم يقعدون في طريق الناس الذين يسيرون نحو الله تعالى بحسب فطرتهم فيحرفون مسيرتهم بخطوات ضالة مبعدة عن الغرض الأسمى.

والمراد بخطوات الشيطان ضلالاته التي تؤدي الى ابتعاد الإنسان عن الدين

القويم والصراط المستقيم فمنهجه ومشروعه الأمر بالفحشاء والمنكر، فهو سبب كل فساد وانحراف، وهو المهيّج لكل جريمة وفعل منكر سواء كان على مستوى العقيدة أو الفكر أو السلوك.

وأضاف تعالى في آية أخرى دعوة الشيطان إلى أمر آخر غير الفحشاء والمنكر وهو ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٩) أي يدعوهم إلى الحكم بغير ما أنزل الله ونسبة أشياء إلى الشريعة وهي ليست منها.

وقد وقع هذا التحذير والنهي عن اتباع خطوات الشيطان في سياق الآيات الكريمة التي سجّلت ما يعرف بحديث الإفك وهي الاشاعة الباطلة التي مسّت عرض وشرف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سيد الخلق على الاطلاق والقائد الأعلى للدولة، وهي خطوة دفع الشيطان باتجاهها لتكون بداية لخطوات على طريق نشر الفحشاء والمنكر بعد أن كسر هذا الحاجز العظيم، وكادت هذه الإشاعة أن تفتك بالمجتمع المسلم وتؤدي إلى إنهياره لولا رحمة الله تعالى ولطفه، لذا كانت بقية الآية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢١).

وقد صور الله تعالى الحالة بأبشع صورة تهزّ الوجدان بعنف وتدفع الإنسان إلى الابتعاد عنها حيث يسير الشيطان الذي هو عدو مبين ومجمع القاذورات نحو هدفه وهو الخراب والتدمير ونشر الشقاء والهلاك ويسير خلفه جماعة متبعين خطواته مبتعدين عن منهج السعادة والكمال فأي حال أشقى من هذا، وحديث الإفك وإشاعته كان نموذجاً له.

وقد تكرر التحذير من اتباع خطوات الشيطان في عدة مواضع أخرى (سورة

البقرة: الآيات ﴿١٦٨﴾-﴿٢٠٨﴾/ سورة الأنعام: الآية﴿١٤٢﴾) ووصفه الله تعالى فيها بما يوجب هذا الحذر قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:﴿٦﴾) والعقل والفطرة يدعوان الى الحذر من العدو والفرار منه.

والذي يتأمل في هذه المواضع المتعددة من التحذير يجد فيها بياناً لبعض منافذ الشيطان وتطبيقات لخطواته، فقد جاء النهي عن اتباع الشيطان تارة في مورد التشريعات المحرمة بغير ما أمر الله تعالى به، كما في بعض قضايا الطعام حيث جعل الله تعالى كل ما في الأرض حلالاً طيباً الا ما استثناه، لذا كان الأصل في الأشياء الحلّية، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:﴿١٦٨﴾-﴿١٦٩﴾) ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأنعام:﴿١٤٢﴾) لكن أهل الكتاب والمشركين حرموا بعض ما أحله الله تعالى وبذلك فقد جعلوا أنفسهم آلهة يشرعون من دون الله تعالى فاستنكر الله تعالى ذلك منهم وقال ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:﴿٥٩﴾) ونفى حرمة هذه الأشياء، قال تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:﴿١٠٣﴾) كما أحلوا بعض ما حرّم الله تعالى كالربا ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ

الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة:٢٧٥).

وورد النهي عن اتباع خطوات الشيطان تارة أخرى في مورد التنازع والعنف وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨)، فالقطيعة التي تحصل بين الأخوة والتباغض والمهاترات هي من فعل الشيطان ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (المائدة:٩١).

وذكرت الروايات مصاديق لخطوات الشيطان كصحيحة منصور بن حازم في التهذيب قال (قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): أما سمعت بطارق، ان طارقاً كان نخاساً بالمدينة فأتى أبا جعفر (عليه السلام) فقال: يا أبا جعفر إني هالك إني حلفت بالطلاق والعتاق والنذر، فقال له: يا طارق ان هذه من خطوات الشيطان)[١].

وفي رواية الكافي بسند معتبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إذا حلف الرجل على شيء والذي حلف عليه اتيانه خير من تركه فليأت الذي هو خير ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان)[٢] وروى العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم مثالاً على ذلك عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) (أنه سُئل عن امرأة جعلت مالها هدياً وكل مملوك لها حراً إن كلمت أختها أبداً، قال: تكلمها وليس هذا بشيء إنما هذا وأشباهه من خطوات الشيطان)[٣].

---

(١) التهذيب: ٨/ ٢٨٧.

(٢) الكافي: ٧/ ٤٤٣/ ح١.

(٣) تفسير العياشي: ١/٧٣/ ح١٤٦.

ومن خطوات الشيطان الوسوسة في العبادات وخطور الأوهام والشكوك التي لا واقع لها، فقد روى في الكافي بسنده عن عبدالله بن سنان قال (ذكرت لأبي عبد الله (عليه السلام) رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة وقلت: هو رجل عاقل، فقال: أبو عبد الله وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فإنه يقول لك من عمل الشيطان)[1].

وفي الحقيقة فان لاتباع الشيطان مراتب عديدة أوضحها ترك الواجب وفعل المحرم على مستوى العقيدة أو السلوك، ثم اقتحام الشبهات من دون تحقّق، ثم ترك المستحبات وفعل المكروهات، ولا ينتهي عند الغفلة عن الله تعالى والتعلق بما سواه من الأسباب، فان كل هذه مصاديق بمراتب متعددة لخطوات الشيطان الذي يسير نحو هدف هو الإبعاد عن طاعة الله تعالى ورضوانه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور:٢١) ((ولا يخفى أن أوّل قدم منه هو رؤية النفس والتوجه إليها وتكبيرها وتجليلها، وهذا يخالف العبودية ويجرُّ الإنسان إلى أي وادٍ مظلم مضِلٍّ مهلك))[2].

ومن الخطوات المؤثرة والحاسمة في اتباع الشيطان وعدمه هي الولاية فقد وردت روايات عديدة في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨) أنهم أمروا بالدخول في ولاية أهل البيت (عليهم السلام)، وان اتباع خطوات الشيطان

(١) الكافي: ج١، كتاب العقل، ح١١.

(٢) التحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي: ١٠٠/٣.

بالدخول في ولاية غير أهل البيت (عليهم السلام)[1].

ولأن الإنسان في هذه الدنيا لابد له من إتباعٍ ما، وهي الحقيقة التي نبّه إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) (أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ)[2] فاذا لم يتبع المنهج الرباني الذي يدعو إليه الله تعالى والأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والعلماء الأبرار العاملون، فلا شك في أنه واقع في اتباع الشيطان وجنوده والنفس الأمارة بالسوء لأنه بين هذين الخيارين والدافعين، وهنا يسجل القرآن الكريم استغرابه ممن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير قال تعالى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران:١٦٢).

ويمكن النظر الى ورود خطوات الشيطان في الآيات الكريمة على نحو الجمع باتجاه متوازي أو متوالي - إذا صح التعبير - أما التوازي فبلحاظ ان تعدد الخطوات تعني تنوع ضلالاته وشبهاته وفتنه المردية والسبل الموصلة اليها، فينقلهم من معصية إلى معصية حتى يوقعهم فيها جميعاً، لذا كانت سبل الضلال متعددة أما الصراط المستقيم فواحد، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وأما التوالي فنقصد به اتخاذ الشيطان عدة خطوات تدريجية مترتبة للوصول إلى غرضه وعدم دعوته إلى المنكر والفحشاء مباشرة، لأن الإنسان قد يرفض مثل هذه الدعوة المباشرة للخروج عن الدين أو الفطرة السليمة ويأباها الضمير الحي

---

(١) راجع الروايات في البرهان: ٩٢/٢.

(٢) نهج البلاغة: ٣/ ٧٠، من رسالته (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري واليه على البصرة.

إذا جاءت بشكل دفعي، وهذا مما يوجب زيادة الحذر منه لأن الخطوة الأولى منه قد تكون مقبولة ظاهراً لدى الشخص وكذا الثانية وهو لا يعلم النتيجة التي يريد أن يوصله إليها، وهو عين ما يفعله شياطين الإنس للتغرير بضحاياهم بحرب ناعمة لا يلتفت الى بداياتها الا الفطن إلى أن تحصل الكارثة.

مثلاً يريد أن يغري شاباً وفتاة في الجامعة بعلاقة غير مشروعة فيقنعهما أولاً بتبادل المحاضرات ومساعدة أحدهما الآخر في حل المسائل العلمية وأنها علاقة بريئة بين زملاء في الدراسة، ينشأ منها حب ومودة ثم يحصل إعجاب بينهما وميل، ثم مواعيد للقاء بينهما بدون رابطة شرعية، وقد يسعيان للزواج فيلاقيان إعتراضاً من الأهل فيقرّران الهروب معاً وقد يعثر الأهل عليهما فيقتلون الفتاة غسلاً للعار بحسب العرف ويقتلون الشاب انتقاماً وتستمر الثارات، وكان بالإمكان تجنب هذه الكارثة من أول خطوة وغلق باب أي علاقة مع الجنس الآخر حتى لو كان لأمر مباح ظاهراً لأنه باب للشرور والآثام.

وكذا النزاعات العشائرية العبثية التي تخلّف قتلى ومصابين وأرامل وأيتام وعدم أمن واستقرار قد تبدأ بكلمات مزاح بين إثنين يتطور إلى بذاءه وكلمات جارحة ثم عراك شخصي ثم وعيد وتهديد واستنصار بالعشيرة وتستمر الحماقات الناتجة من اتباع خطوات الشيطان حتى تصل الى القتال وفي ذلك كلمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) عندما نهى عن بعض المكروهات خشية انتهائها إلى ارتكاب المحرمات فقد روى الشيخ الصدوق في العلل قال (جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: أقبّل وأنا صائم؟ فقال (عليه السلام): أعفّ صومك، فإن بدء القتال اللطام)[1].

(١) وسائل الشيعة: ٩٩/١٠ أبواب ما يمسك عنه الصائم، باب٣٣، ح٩ وكذا ص٩٨، ١٠٠.

إن كل ما تعانيه البشرية من كوارث وأزمات في مختلف المجالات هو نتيجة ابتعادهم عن المنهج الإلهي واتباع خطوات الشيطان فالله تعالى يدعوهم إلى الانتفاع بكل ما جعل لهم في الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (البقرة:١٦٨) وقال تعالى ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأنعام:١٤٢) ثم عقبهما بقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فأنه يدعوكم إلى الكسل والاتكالية المنتجة للتخلف والانحطاط أو يوحي إلى اتباعه بسنٍّ قوانين وضعية تعيق حركة الانتفاع هذه كإقطاع الأراضي الواسعة لذوي النفوذ وحرمان الأيدي العاملة منها، أو تركز الثروات بيد فئة قليلة تستخدم أساليب الظلم والقهر لإدامة هيمنتها وتسلطها واستئثارها وتقرر الرواتب العالية والهبات الجزيلة للمتسلطين، فارفضوا هذه القوانين الشيطانية التي تحطُّ من كرامة الإنسان وتستعبده وتحرمه من حقوقه.

وهذا واحد من الفروق بين المنهج الرباني الذي يؤسس للعدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان وبين المنهج الشيطاني الذي يستعبد الإنسان ويذلّه ويحقّره ويقوده إلى الهلاك.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من مكائد شياطين الجن والإنس ومن اتباع خطواتهم.

القبس/١٤٣

سورة النور:﴿٢٢﴾

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

موضوع القبس: درس من حياة الإمام السجاد (عليه السلام)

في هذه الليلة الأخيرة من شهر رمضان المبارك نأخذ درساً من فعالية كان يقيمها الإمام السجاد (عليه السلام) في مثل هذه الليلة، وفيها تطبيق وتجسيد لآية في القران الكريم، والأئمة المعصومون (عليهم السلام) كجدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان خلقهم القرآن، والآية قوله تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢).

لنتعلم تحصيل المغفرة:

فالآية تعلمنا اسلوباً لتحصيل المغفرة الالهية والعفو والصفح، وإن كان الله تعالى متصفاً في ذاته بأنه غفور رحيم ويبتدئ عباده بمغفرته ورحمته وإن لم يكن منهم استحقاق، لكنه تعالى يزيدهم من فضله فيعلمهم أنهم إن أحبوا أن يغفر الله لهم وكل إنسان يحب ذلك إذ ما من عاقل مستعد لملاقاة الله تعالى بعمله من دون فضل الله تعالى وكرمه فعليهم أن يتعاملوا بينهم بالعفو والصفح ويتجاوز بعضهم عن بعض ليحتجوا بذلك على الله تعالى احتجاج انس ومودة وشفقة واستعطاف.

وهذه المعاني عبر عنها الإمام السجاد (عليه السلام) في دعاء ابي حمزة (اللّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ فِي كِتابِكَ أَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنا وَقَدْ ظَلَمْنا أَنْفُسَنا فَاعْفُ عَنّا فَإِنَّكَ أَوْلى بِذلِكَ مِنّا وَأَمَرْتَنا أَنْ لانَرُدَّ سائِلاً عَنْ أَبْوابِنا وَقَدْ جِئْتُكَ سائِلاً فَلا تَرُدَّنِي إِلاّ بِقَضاء

حاجَتِي)[1].

في العفو والصفح:

وقد جسّد الإمام السجاد (عليه السلام) هذه الآية في فعالية كان يجريها في آخر ليلة من كل شهر رمضان، فقد روى السيد أبن طاووس في كتاب الاقبال بإسناده الى الإمام الصادق (عليه السلام) مضمونها باختصار ان الإمام السجاد (عليه السلام) كان يشتري العبيد والاماء خلال السنة ويؤدبهم ويفقهّم وكان لا يضرب عبداً ولا امة وإذا أذنب احد منهم كتب ذنبه في صحيفة وتاريخها ولم يعاقبه. حتى إذا كانت آخر ليلة من شهر رمضان، دعاهم وجمعهم حوله، ثم أظهر الكتاب ثم قال:يا فلان فعلتَ كذا وكذا ولم أودبّك اتذكر ذلك؟ فيقول:بلى يا ابن رسول الله، حتى ياتي على آخرهم ويقرّرهم جميعاً.

ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: أرفعوا أصواتكم وقولوا:يا علي بن الحسين إن ربَّك قد آحصى عليك كل ما عملت، كما آحصيت علينا ما عملنا، ولديه كتاب ينطق عليك بالحق، لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها، وتجد كل ما عملت لديه حاضراً كما وجدنا كل ما عملنا لديك حاضراً، فأعفُ وأصفح كما ترجو من المليك أن يعفو عنك، فأعفُ عنا تجده عفّوا، وبك رحيماً، ولك غفوراً، ولا يظلم ربك أحداً، كما لديك كتاب ينطّق بالحق علينا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما اتيناها إلا أحصاها.

وهوّ ينادي بذلك على نفسه ويلقنّهم، وهم ينادون معه وهو واقف بينهم

---

(١) مفاتيح الجنان :٣٤٩ من دعاء ابي حمزة الثمالي.

يبكي وينوح ويدعو بمضمون ما نقلناه من دعاء ابي حمزة، ثم يقبل عليهم ويقول:قد عفوت عنكم فهل عفوتم عني ومما كان مني اليكم، فيقولون:قد عفونا عنك يا سيدنا وما اسأت.

فيقول لهم:قولوا اللهم أعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنا فأعتقهُ من النار كما أعتق رقابنا من الرق فيقولون ذلك، فيقول اللهم آمين رب العالمين اذهبوا فقد عفوتُ عنكم وأعتقت رقابكم رجاءه للعفو عني وعتق رقبتي فيعتقهم.

فإذا كان يوم الفطر منحهم جوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس، وما من سنة إلا وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين نفساً الى أقل أو أكثر)[1].

دروس من العفو والصفح:

أقول في الرواية دروس عديدة:

(منها) تواضع ائمة أهل البيت (عليهم السلام) وسمو اخلاقهم وترّفعهم عن الانتقام والرد على الاساءة مضافاً الى اننا تعرفنا من خلالها على احدى الوسائل التي نشر الإمام السجاد (عليه السلام) علوم اهل البيت (عليهم السلام) ومناقبهم وأخلاقهم ومظلوميتهم لأن هؤلاء العبيد كانوا ينتشرون في الامصار وينقلون ما شاهدوه من سيرة الإمام السجاد (عليه السلام).

هذه كلها اشارات مختصرة، والمهم هنا تطبيق الآية الكريمة على هذا الفعل، فقد كان الإمام (عليه السلام) يستطيع أن يقوم بهذا العمل سراً بينه وبين ربه فيعفوا

(١) المراقبات للملكي التبريزي :١٩٩-٢٠٠.

عمن أساء اليه ويطلب من الله تعالى العفو إلا ان الإمام (عليه السلام) كان يجري العمل علناً ليوصل هذا الدرس الى الآخرين ولُينقل عبر الاجيال مضافاً الى أن (العمل بالقلب كما انه عبادة له فإجراء ما فيه على الجوارح ايضاً عبادة للجوارح فعند الاتيان بالجوارح تتحقق العبادة بها ايضاً، وانها تؤثر في القلب تأثيراً خاصاً ورقة لا يؤثره مجرد الامر القلبي ويصير سبباً لعمل آخر مؤثر ايضاً فيمتد الفيض الدائم، لان للجوارح ايضاً حظاً من نور العمل فيؤثر عملها في القلب نوراً زائدا على نور عمله)[1].

هذا الادب هو ما يريده الله تعالى ورسوله والائمة الاطهار (صلوات الله عليهم اجمعين) منّا، اذ لا شيء يستحق التباغض والتقاطع بين المؤمنين وخصوصا اذا كانوا ذوي رحم، وليس من المعقول اننا نرجو رضا الله تبارك وتعالى ومجاورة اولياءه في الجنان ونحن نقطع الرحم وآصرة الايمان لأجل كلمة سيئة قالها او تقصير صدر منه او تجاوز على بعض حقوقه، او تنازع بينهم على مال.

سياق الآية الكريمة:

والملفت للنظر ان الآية التي ورد فيها الامر بالعفو والصفح جاءت في سياق جريمة كبرى ارتكبها البعض في حق رسول (صلى الله عليه وآله) اذ اتهموا زوجته مارية القبطية بالفاحشة وانها ولدت ابراهيم من خدين[2] لها لا من زوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي الحادثة المعروفة بحديث الافك، فرغم عظم الجريمة وعظم من

(١) المراقبات للملكي التبريزي:٢٠٢.

(٢) أنظر: بحار الأنوار- المجلسي: ٢٢/ ١٥٥/ ح١٢.

وقعت عليه وهو اكرم خلق الله وخاتم الأنبياء، ورئيس الدولة، وقد اشارة الآيات الى ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور:١٩) وقال تعالى عنها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:٢٣) ومع ذلك فقد جاء معها الامر بالعفو والصفح في الآية محل البحث، فكيف لا نعفو ولا نصفح نحن عن توافه الامور التي نتعرض لها في حياتنا.

القبس/١٤٤

سورة النو ر:﴿٣١﴾

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

دعوة موجّهة إلى جميع المؤمنين ليتوبوا إلى الله تعالى، وهي موجّهة إلى غيرهم من باب أولى، فالجميع مطالبون بالتوبة أي الرجوع إلى الله سبحانه لأن التوبة تعني الرجوع عن الذنب والعودة إلى الصراط الذي أمر الله تعالى به.

والاستجابة المطلوبة لهذه الدعوة لها مستويات متعددة بحسب مستويات الأشخاص أنفسهم وشكل الذنوب التي تصدر منهم فيتوب الله تعالى على العبد فيرجع على عبده بالتوفيق والجذب والدعوة للطريق الصحيح فان استجاب العبد وتاب بمستوى معين، تاب الله عليه ورجع عليه برحمة أخص ونقله الى مستوى أعلى وهكذا تكون العلاقة التكاملية درجة بدرجة وخطوة بخطوة حتى يتحقق الفلاح قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:﴿١١٨﴾).

وتذكر آية أخرى هذه العلاقة العاطفية بين الله تعالى وعباده وتبيّن ان هذا الحرص من الله تعالى على عودة العباد اليه ناشئ من المودّة والرحمة قال تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود:﴿٩٠﴾).

وقد تكررت هذه الدعوة للمؤمنين في اكثر من آية من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

وقد حثّ النبي (صلى الله عليه وآله) اتباعه على الاستجابة للدعوة مبادراً اليها بنفسه الشريفة تطبيقها على نفسه الشريفة، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إنه ليغان على قلبي وإني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة)[١] وروي في كل يوم مئة مرة[٢] وفي الدر المنثور عن البخاري ومسلم والبيهقي عن ابي رافع قال (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أيها الناس توبوا إلى الله جميعاً فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة)[٣].

والتوبة ليست فقط من ذنوب حاصلة في أي مستوى كانت بل تحسن التوبة مما يمكن أن يحصل لولا لطف الله وعنايته وصرفه عن العبد ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف:٢٤).

وهذا المعنى ليس غريباً فإن تقديم سبب التوبة والاستغفار على الذنب نفسه وارد في الروايات كجزاء لبعض الاعمال الصالحة[٤] فكما ان الاعمال الصالحة تكفّر الذنوب اللاحقة كذلك التوبة والاستغفار من الذنوب اللاحقة والمحتملة.

وترقى درجات التوبة لتصل الى مستوى التوبة للحفاظ على درجة العصمة

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ٤٩٧/١٥ عن لب اللباب للراوندي: ٣٩٧/١ ودرر اللئالي لابن ابي جمهور.

(٢) شرحنا في خطاب سابق معنى استغفار رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمعصومين (عليهم السلام) (راجع موسوعة خطاب المرحلة: ج٧/ ص٢٣٣).

(٣) الدر المنثور: ٤٤/٥.

(٤) ورد عن الإم الصادق (عليه السلام) أنه قال من زار قبر الحسين (عليه السلام) ليلة في ثلاث ليالي غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ليلة الفطر وليلة الاضحى وليلة النصف من شعبان) (وسائل الشيعة: ٤٧٥/١٤، ابواب المزار، باب٥٤ ح١.

وتكاملها والبقاء في القمة وهو أحد وجوه استغفار المعصومين (عليهم السلام) التي ذكرناها في خطاب سابق.

وتتحقق التوبة الصادقة عندما تكون صادرة عن الشعور بقبح الفعل لما فيه من الجرأة على الله تعالى الخالق المنعم ومقترنة بالعزم على عدم العود إلى مثلها وتدارك ما فات مما يمكن تداركه كقضاء الصلاة والصيام الفائتين وإرجاع حقوق الناس التي غصبها وهكذا، وقد وصفت التوبة الصادقة في الآية المتقدمة بالنصوح للدلالة على المبالغة في النصح لنفسه أي صدق التائب مع نفسه وهذه التوبة النصوح كفيلة بمحو السيئات والنجاة من العذاب ودخول الجنة برحمة الله تعالى.

والله تعالى يعلم أن العبد مهما صدق في توبته فأنه معرّض للوقوع مرة أخرى في الذنب بأحد مستوياته لذا دعاه إلى التوبة النصوح مرة أخرى.

روى الشيخ الكليني في الكافي بسند صحيح عن ابي بصير قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؟ قال:هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً) فقلت:وأيُّنا لم يعد، فقال:يا ابا محمد إن الله يحب من عباده المفَّتن التواب)[1].

ومثلها رواية محمد بن الفضيل في نفس الباب.

ومقام التوبة من المقامات المحمودة عند الله تعالى قال عزّ من قائل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:﴿٢٢٢﴾) وأضاف الله تعالى وصف التوابين إلى ذوي الدرجات الرفيعة عنده تبارك وتعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ

(١) الكافي: ٢/ ٣١٤/ ح٤.

السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:١١٢) وللمعصومين(عليهم السلام) وهم سادة الخلق ادعية طويلة في طلب التوبة.

فالمؤمنون جميعاً مدعوون للتوبة كغيرهم لأن عندهم ذنوباً أيضاً وإن كانت لا تشابه ذنوب الكفار والفسقة وفي هذا تحذير للمؤمنين وموعظة حتى لا يغتّر مؤمن بعمله أو يعجب به أو يجعل لنفسه منزلة أفضل من الآخرين وقد تتطلب إعادة العبد الى ربه شيئاً من الابتلاء والأذى رحمة بالعبد وشفقة عليه ليضطرّ إلى اليقظة والعودة إلى الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة:٢١) وقد ورد في ادعية ليالي شهر رمضان (إلهي لا تُؤَدِّبْني بِعُقُوبَتِكَ)[1] أي لا تجعلني بحال احتاج الى عقوبة وابتلاء لكي اعود الى الطريق الصحيح بل اعود بلطفك وعنايتك.

وتوجد مضافاً إلى ذلك ذنوب لا يلتفت إليها عادةً أشرنا إليها في خطاب مفصَّل منشور تضمّن شاهداً على ذلك[2] من وحي دعاء للإمام السجاد (عليه السلام) اللهم اني اعتذر اليك من مظلوم ظلم، بحضرتي فلم انصره، ومن معروف اسدي اليَّ فلم اشكره، ومن مسيء اعتذر اليَّ فلم أعذره)[3].

هذا اذا نظرنا بلحاظ المسؤولية الشخصية، اما اذا نظرنا بلحاظ المسؤولية الاجتماعية فسنجد ذنوباً جديدة نتحملها بسبب عدم بذلنا الوسع في إصلاح

---

(١) مفاتيح الجنان: ٢٤٠.

(٢) خطاب المرحلة: ج٧/ ص١٠٢.

(٣) الصحيفة السجادية (ابطحي): ١٨٧.

المجتمع وتخليصه من المعاصي المنتشرة فيه جهلاً أو تهاوناً أو تمرداً أو لأي سبب آخر وهذا كله تقصير في اداء أعظم وظيفة في الاسلام وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

ولعل هذا أحد وجوه ورود هذه الدعوة في نهاية الآيات الآمرة بالحجاب والناهية عن التبرج من سورة النور مع أنه ليس جميع نساء المؤمنين متبرجات لكنهم جميعاً مسؤولون عن وجود هذه المعصية في المجتمع إن لم يكونوا مبتلين فعلاً بدرجة من درجات هذه المعاصي الاجتماعية فانتشار الخلاعة والمجون يصيبهم بالنظرة المحرمة والإثارة غير المشروعة ونحو ذلك والعياذ بالله.

ونحن بين يدي شهر رمضان الذي هو من أعظم أسباب التوبة والاستغفار فإنه شهر المغفرة والعتق من النار ومما ورد في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) التي استقبل بها شهر رمضان في آخر جمعة من شعبان قال (صلى الله عليه وآله): (أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَنفُسَكُم مَرهُونَةٌ بِأعمَالِكُم، فَفُكُّوهَا بِاستِغفَارِكُم، وَظُهُورَكُم ثَقِيلَةٌ مِن أوزَارِكُم، فَخَفِّفُوا عَنهَا بِطُولِ سُجُودِكُم)[2].

(١) راجع كتابنا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فقه الخلاف الجزء العاشر.

(٢) مفاتيح الجنان /ص١٧٢.

ملحق: تحريك الدوافع نحو التوبة والرجوع الى الله تبارك وتعالى[1]

في مجتمعنا (المسلم) مشاهد عديدة تستوقفنا وتجعلنا نطيل التأمل فرجل مسلم اشتعل رأسه شيباً يسمع المؤذن ينادي (حي على الصلاة) وهو يجلس في المقهى ويلعب الدومينو ويخوض في أحاديث الباطل وكأن النداء ليس موجهاً إليه.

وآخر اذا جنّ عليه الليل عاد الى داره ثملاً قد سلبت الخمر عقله.

أو امرأة مسلمة تمشي بين الرجال سافرة قد كشفت عن شعرها وبعض اجزاء جسدها.

أو شابٌ مسلمٌ تارك للصلاة غارق في اللهو واللعب يتخذ من فنّان فاسق قدوة له يقلّده في أفعاله وأقواله ويحمل على ملابسه علامات الكفار وصور الفساق أو تراه مفطراً في نهار شهر رمضان.

أو ناس مؤمنون يخوضون في الغيبة وانتقاص الناس وتسقيطهم والافتراء عليهم والايقاع بهم.

وآخر يغض النظر عن معاملاته ويحاول ان يجد الف طريقه لتبرير الربح غير المشروع.

---

(١) سلسلة محاضرات أخلاقية توعوية كتبت لالقاءها بمناسبة حلول شهر رمضان/ ١٤٢٢هـ- ولم يتسنَّ ذلك، لكن سماحة الشيخ القى مختصرها في خطبة صلاة الظهرين يوم عيد الأضحى المبارك /١٤٢٢هـ- الموافق ٢٠٠٢/٢/٢٣م، في جامع الخاقاني في حي الغدير بالنجف الاشرف وكان ازلام النظام الصدامي البائد يراقبون حركة سماحة الشيخ ويحسبون عليه أنفاسه حتى منعوه من صلاة الجماعة والقاء الخطب.

أو طالب وطالبة جامعية وهما ينشأن علاقه (حب) خارج الصيغ الشرعية ويجلسان معاً بعيداً عن أعين النظار في اجتماع غير شريف يكون ثالثهما الشيطان.

أو ثريّ ينفق المبالغ الضخمة لأمور تافهة لمجرد الجري على الاتيكيت الرائج بين اقرانه أو للرياء والمباهاة واذا طلبت منه اخراج حق الله سبحانه المتعلق بماله أو مساعدة شاب فقير يريد ان يحصّن نفسه بالزواج أو ارامل وايتام لا معيل لهم اعرض وناء بجانبه وربما نهر السائل واهانه.

وقد تجد عشيرتين تتقاتلان من اجل امور تافهة فتذهب الضحايا وتتلف الأموال.

أو دولتين مسلمتين تتصارعان فتزهق الأرواح ويهلك الحرث والنسل من اجل ما يسمونه بالمصالح أو غيرها من الدعاوي الوهمية وهم يعلمون ان الارض لم تنفد خيراتها بل هي تكفى لهم ولأضعافهم وانهم ليحرقون الحبوب واللحوم من اجل الحفاظ على سعر السوق.

أو تجمعات قد اغواها الشيطان فجمعها على الحرام في مسرح أو ملهى أو غيرها من مراتع الشيطان.

أو الآفاً وملايين من الناس قد اضاعت أموالها وأوقاتها وقد حبست انفاسها وفقدت وعيها من اجل كرة جلديه تافهة تدخل في هذا المرمى أو ذاك وتقوم الدنيا ولا تقعد اذا تغلب احدهما على الآخر ولا اعرف ماذا قدموا بذلك من خير للبشرية.

المعاصي القلبية:

هذا على المستوى الظاهري واما على المستوى (المعنوي) فان المعاصي أيضاً لها مصاديق واسعة لان من كانت طاعته ظاهرية اي كان مستواه ظاهرياً ورضى ان يحاسب حساباً ظاهرياً فمعاصيه كذلك اي يؤاخذ على المعاصي بالمعنى الشرعي فقط روى الشيخ الكليني في الكافي عن زرارة عن الإمامين الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال: (إن الله تبارك وتعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة وعملها كتبت له بها عشرا ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه (سيئة) ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة)[1].

ومن كانت طاعاته قلبية باعتباره ممن التفت إلى تطهير القلب وتصفية الباطن فمعاصيه قلبية فيحاسب على الخواطر والنوازل القلبية ويستغفر لذنوب لا يحاسب عليها أهل الظاهر، مثلاً ورد في الحديث النبوي الشريف: (ثلاث لم يسلم منها أحد:الطيرة والحسد والظن، قيل وما نصنع، قال: اذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ، واذا ظننت فلا تحقق)[2].

فاذا مرّت هذه الخواطر على القلب والتزم بما ذكره (صلى الله عليه وآله) فلا شيء عليه على المستوى الظاهري لكن المشتغل بتنقية القلب يعتبر نفسه في معصية قلبية لمجرد وجود هذه الخواطر في قلبه اذ يفهم ان قلبه لم يطهر تماماً أو قل انه ليس من أصحاب (القلب السليم) بدليل عدم خلّوه من هذه الخواطر، هذا القلب الذي

---

(١) الكافي: ج٢/ ص٤٢٨.

(٢) تحف العقول: ٥٠، الطبعة الثانية ١٤٠٤ تعليق علي أكبر الغفاري وفي المتن ذكر الجزء الثاني من الحديث فقط، وفي كنز العمال: (ثلاثة لازمات لأمتي: سوء الظن والحسد والطيرة، فاذا ظننت فلا تحقق، واذا حسدت فاستغفر الله، واذا تطيرت فامض) (ج١٦/ ص٢٠/ ح٤٣٧٨٨).

لا ينجو غداً الا أهله قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء:٨٨-٨٩) ويمدح خليله ابراهيم (عليه السلام) بانه من اهل هذا القلب، قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات:٨٣-٨٤).

وتصفيةُ القلب من هذه الاغلال قد لا يكون الا في يوم القيامة ويكون من نعم الله سبحانه على عباده الفائزين ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ (الأعراف:٤٣) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٥-٤٨) ومن هذه الاغلال ان يمتعضّ قلبك عند مدّح أحد تحسده أو تفرح عندما ينتقص رغم عدم مشاركتك في الكلام.

وانما أصبح زواله اي الغل نعمة لأنه ينكد الحياة ويمنع من افراغ القلب لله سبحانه (لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن)[1] والسعادة الحقيقية لا تتحقق الا في هذه المرتبة.

عندما أرى أو أسمع أو أقع – الا ان تتداركني رحمة ربي – في هذه المظاهر وغيرها من اشكال السلوك المنحرف في هذه البشرية التائهة الضالّة أتأمل طويلاً ويملأ التفكير أعماقي وأتساءل:الا يعلم هؤلاء ان هذه افعال محرمة لا يرضاها الله سبحانه؟ أو انها مبعدة عنه تبارك وتعالى وموجبة لتقليل الدرجات يوم القيامة؟

(١) بحار الأنوار: ج٥٥/ ص٣٩.

فان علموا ذلك فما الذي يجرئهم على معصية الله سبحانه؟ الا يعلم هؤلاء أن امامنا عقبة كؤودا هي الموت وما بعد الموت أعظم وأدهى! وعلى تعبير الإمام الكاظم (عليه السلام) عندما وقف على جنازة تلحد في قبرها قال (عليه السلام) بزفره وكلّه تحقير لهذه الدنيا (ان شيئاً هذا آخره – وهي الدنيا – لحقيق ان يزهد في أوله، وان شيئاً هذا أوله – وهي الآخرة – لحقيق ان يخاف من آخره)[1].

وأتسّاءل اليس هؤلاء مسلمين ويؤمنون بالله – ولو نظرياً – ويؤمنون بالآخرة والمعاد والحساب؟ فلماذا لا ينعكس هذا الايمان على تصرفاتهم؟ فأين الخلل؟

ان كل هذا يكشف عن ان المشكلة ليست على مستوى النظرية اي اقامة الدليل على كل ذلك فان الكتب حافله بما يقنع من له ادنى مسكة عقل، ولم يقصّر علماءنا ومفكرونا في حشد كل ما يمكن ان يقرّب الايمان ويقنع به وانما المشكلة على مستوى التطبيق.

وعلمت عندئذٍ اننا لم نعد – كما كنّا في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي – بحاجه الى اثبات وجود الله سبحانه فهذه حقيقة لم يبق من يشكك فيها أو قل ان أولياء الشيطان لم يعودوا يفتنون المؤمنين من هذه الجهة[2] وما عادت مهمتنا اثبات هذه الحقيقة بل ان اعداء الله جاءوا بخطه جديدة تقتضي المحافظة على الشكل الظاهري والقالب الخارجي للدين ونخره من الداخل

---

(١) تحف العقول – ابن شعبة الحراني: ٤٠٨.

(٢) لاحظ ان تاريخ البحث قبل سقوط صدام المقبور عام ٢٠٠٣م، حيث لم تكن دعوات علنية للإلحاد وإنما حصلت بعد السقوط عندما دخلت المنظمات والمؤسسات الدولية المختلفة، وتيسّرت للناس وسائل التواصل الاجتماعي.

وتمييع العقيدة في النفوس وافراغها من محتواها وإماتة الوازع الديني بحيث لا يبقى له ادنى تأثير في سلوك المسلم؟؟

فنحن بحاجة إذن إلى زرع وإيقاظ الاحساس بوجوده تبارك وتعالى والتعامل معه على انه موجود فعلاً وليس ايماناً نظرياً فقط وتذكرت الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ما خلق الله عز وجل يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)[1] فانه يقين مئة بالمئة على مستوى النظرية لكنك لا تجد من يؤمن به عملياً بمعنى انه يستعد له الاستعداد الكامل وكأنه كتب على غيره.

فترى الانسان اذا عزم على سفر قد لا يطول شهراً يُعدُّ كل ما يحتاجه أو يحتمل انه يحتاج اليه ويهيئ جميع أموره حتى الحقير منها فلماذا لا يستعد بنفس الاستعداد لسفر الآخرة ويحضرّ زاد هذا السفر الذي بيّنه القرآن الكريم ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:١٩٧) وقال الإمام الحسن (عليه السلام) (وحصّل زادك قبل حلول أجلك) خصوصاً وإنا نعلم ان الحكم - وهو الله تبارك وتعالى - بصير لا تخفى عليه خافيه في السماوات والأرض وهو أقرب الينا من حبل الوريد وشهوده كُثر ومنهم هذه اعضائنا التي نعصيه بها ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:٦٥).

أعود الى التساؤل اذن كيف نحمل الناس على الالتزام بالشريعة الإلهية وكيف ندفعهم الى التطبيق؟ ولا يُفهم من كلمه (نحمل) و(ندفع) القصر والإجبار والإكراه فهذا اسلوب مرفوض ولا ثمرة فيه وقد قال تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

---

(١) الفقيه: ١/ ١٩٤/ ح٥٩٦.

(البقرة:٢٥٦) فهذا من خيانة التعبير فأننا نريد ان نتعرف على الاسلوب الذي يحبّب الايمان والاسلام الى الانسان ويزيّنه له بحيث ينجذب اليه، تلقائياً ويجده الطريق الوحيد الذي يكفل له سعادته في الدنيا والآخرة ويكرّه اليه الفسوق والعصيان بالضبط عكس ما يفعله الشيطان اللعين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات:٧-٨).

فوجدت ان ذلك يمكن تحقيقه على ثلاثة مستويات تمثّل عوالم الانسان الثلاثة:

المستوى الاول: النفس

فقد يجد الانسان في الإسلام والإيمان تحقيق نزعاته النفسية وارضاء للقوى والشهوات الغريزية الكامنة فيه فيؤمن لأن الايمان يحقّق له المال أو الجاه أو اي شيء آخر ولا يُفهم من هذا أنه يشمل التوسل بالأمور المحرمة كما لو اردنا ردعه عن الزنا فنجوّز له اللمس او النظرة للأجنبية فان الغاية لا تبرر الوسيلة في نظر الإسلام مهما كانت الغاية سامية لكن مثلاً نريد أن نحث رئيس عشيرة على تطبيق شريعة الإسلام في السنينة العشائرية فلا حاجة إلى الغاء رئاسته ونظام عشيرته بل نبقيه في موقعه ونعطيه الصلاحيات التأديبية التي يحتاجها باعتبار ان الإسلام قد وضع تعزيرات على التصرفات المحرمة وترك تحديدها بيد الحاكم الشرعي أو من ينيبه فيحصل رئيس العشيرة على السند الشرعي بتخويل الفقيه الجامع للشرائط.

أو نريد ترغيب شاب في الحضور في المساجد واداء الصلاة جماعة في أوقاتها فنقول له:ان هذا يعطيك فرصة للتعرف على وجوه المجتمع فاذا عرفوك وثقوا بك فيمكن ان يوجدوا لك عملاً تجارياً معهم أو يتكفلون زواجك إن كان لا يستطيع ذلك.

وهذا الاتجاه وان كان بعيداً عن ذوق الإسلام في التكامل الا انه امضاه وارتضاه لأنه يعلم ان الخطوة الأولى وان لم تكن لله تبارك وتعالى لكن المهم ان يلتفت إلى الإسلام ويعيش في احضانه ويستنشق عبيره وشذاه فان ذلك كافٍ لان يتخلّى عن اهدافه الدنيوية تلك ويصلحها إلى اهداف ربّانية مخلصه وهكذا كانت هداية رجال اصبحوا من عظماء الإسلام فقد روي ان حمزه بن عبد المطلب سيد الشهداء أسلم حينما أدركته العصبية لعشيرته وهو يرى قريش تؤذي ابن أخيه وتصبّ جام غضبها عليه وليس له ناصر الا الله سبحانه فادركه العرق الهاشمي وانتصر لابن أخيه وأعلن إسلامه ارغاماً لقريش فكانت تلك فاتحه الخير له وللإسلام[1].

ويندرج في هذا المستوى تخصيص جزء من الزكاة للمؤلفة وهم الذين لم يستقر الايمان في قلوبهم فيأتلفهم بالمال ليحسن اسلامهم وهكذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) حينما وزّع غنائم حنين على مشركي قريش بالأمس وطلقائه اليوم بعد

(١) روي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنه قال (لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبدالمطلب وذلك حين أسلم غضباً للنبي (صلى الله عليه وآله) في حديث السِلّا الذي ألقي على النبي (صلى الله عليه وآله) (بحار الأنوار:١٨/٢١١، ٧٣/٢٨٥). والسلا هو ما يرافق جنين الحيوان حين ولادته كالجلد الرقيق الذي يحيط به وان ابا جهل وضع سلا جزور على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يصلي.

فتح مكة ولم يعطِ الانصار شيئاً فظنّوا ان ذلك لموجدة في قلبه عليهم فجمعهم (صلى الله عليه وآله) وقال: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار. وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا:رضينا برسول الله قسماً وحظا. ثم انصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتفرقوا)[1].

وورد هذا الاتجاه في طلب العلم فقد روى عنهم (عليهم السلام) أنهم قالوا (تعلموا العلم ولو لغير الله فإنه سيصير لله)[2] اذ بعد ان يمس العلم شغاف القلب ويتنور بالمعرفة فانه سيعود الى الله تبارك وتعالى والمهم هي البداية.

بل ان هذا الاتجاه مقبول ومشروع على مستوى الآخرة فترى القرآن الكريم يطمع المؤمنين بحور عين وولدان مخلدين ولحم طير مما يشتهون وانهار من عسل مصفى وخمر لذة للشاربين في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وفوق ذلك ما تشتهيه الأنفس وتلذ العيون بل ما لا عين رأت ولا اذن سمعت وهي عبادة التجار على تقسيم أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي دون عبادة الأحرار[3].

وقد نقل لي بعض المتقدمين[4] في درجات السلوك الصالح انه سأل استاذه اننا

---

(١) صحيح البخاري: ج٣ /ص٦٩/ ح٧١، ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ٢٠/ ٢٦٧/ ح٩٨.

(٣) أنظر: بحار الأنوار– المجلسي: ١٤/٤١.

(٤) هو السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) في بعض رسائله الاخلاقية الى سماحة الشيخ ولم يذكر الاسم مراعاة للظروف آنذاك وقد نشرت الرسائل لاحقاً في كتاب قناديل العارفين.

كيف نجاهد أنفسنا ونمنعها من لذاتها من اجل أنفسنا ولذاتها في الآخرة طبعاً فقال:هكذا أدبنا المعصومون (عليهم السلام).

وتوجد أجوبه أخرى (منها) ان هذه زائله وتلك باقية – وفيه – انه لا يغير من الاشكال شيء (ومنها) ان جنة هؤلاء ليست من قبيل هذه النعم وانما لذات معنوية.

ومما ينبغي ملاحظته هنا انه لا ضير من ان يكون لحم الطير وحور العين حتى لأصحاب اللذات المعنوية والمقامات العالية كما انهم في هذه الدنيا في جنتهم الحقيقية ومع ذلك فهم يأكلون ويشربون وينكحون غاية الأمر ان أفعالهم هذه ليست مطلوبة في نفسها ولا للتلذذ بها وإنما لقضاء حاجة الجسم فتكون الاستفادة منها موظفة لخدمة الهدف وتكون جزءاً من التكامل لا عائقاً عنه وإنما الذي نجلّهم عنه ان يكون هدفهم هذه الجنة وسد الحاجات ودفع ألم الحاجة كما يقولون جزء من السعادة وأحد مقوماتها.

المستوى الثاني: العقل

بأن نقيم الأدلة والبراهين والحجج المقنعة على صحة المعتقدات وطريقة الشرع ووجوب الالتزام بالشريعة الإلهية فاذا كان الإنسان منصفاً فلا يجد محيصاً عن الإيمان بنتائج تلك البراهين، اما المجادل والمكابر ومن اتبع هواه فلا ينفع معه دليل ولا برهان ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة:١٤٥) اي هدفك وغايتك ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾(الحجر١٤-

﴿١٥﴾) ولقد أُلّفت كتب كثيرة بهذا الاتجاه بحيث لم تترك عذراً ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:﴿١٤٩﴾) وفتح علم خاص لهذا المجال وهو علم الكلام أو العقائد.

وقد وردت أحاديث[1] كثيرة في فضل العلماء الذين يتصدون لنفي الشبهات عن العقائد الحق وحماية الناس من الضلال والانحراف وان أفضل المجاهدين والمرابطين في سبيل الله هم العلماء المرابطون على ثغور ابليس يردّون عن عباد الله اباطيله وضلالاته وان أشد من يتيم الأبوين يتيم انقطع عن أبيه المعنوي وهو إمامه الذي يتكفل برعايته وتربيته في حياته المعنوية فهو أولى بالرعاية والعطف والحنان وأعظم اجراً عند الله تبارك وتعالى.

وان من مسؤوليات العالم المخلص ان يظهر علمه عند الفتن وانتشار الشبهات حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ليوهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.

المستوى الثالث: القلب

واعني به تلك اللوحة الربانية البيضاء الناصعة التي ان صفت ونقت مما يكدّرها وتعب صاحبها على جلائها كانت مرآة صافية تعكس الحقائق عن اللوح المحفوظ من دون كسب وتحصيل فيجد صاحبها كله حاضراً عنده ومنقوشاً في باطنه، والقلب هو ساحة الصراع بين جند الشيطان وقوى النفس الامّارة بالسوء وشهواتها واهوائها ودواعي السوء فيها وبين جند العقل وأدلته وبراهينه ومعارفه

(١) راجعها في بحار الأنوار: ١/٢-١٥.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف:٢٤) فان تغلّب العقل كان منيراً بنور معرفة الله سبحانه وتعالى وبألطافه طافية وفي فيوضاته، ففي الحديث القدسي (لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن)[1].

وتجلّت فيه صفات الكمال وغُلَّت النفس الأمّارة بالسوء وكانت ميولها وشهواتها مهذبة ومؤدبة بأدب الله تبارك وتعالى لا تحيد عنه وزمامها بيد الشرع الحنيف.

وإن غلب جند الشيطان – والعياذ بالله – كان مظلماً ومأوى للشياطين ويُغلُّ العقل ويُسخّر لخدمة الشهوات كما تراه في أولياء الشيطان واتباعه الذين ما فتئت عقولهم تتفتق عن المزيد من الحيل الشيطانية لتحقيق شهواتهم ومطامعهم.

وعندما تأمّلت في تجارب المصلحين وسبرت اغوار التأريخ لأجد اي هذه المسؤوليات أعمق تأثيراً وأعظم انتاجاً، ودققت النظر أكثر في أعظم نقلة عاشتها البشرية وهي التي حصلت في صدر الإسلام على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث سمت البشرية من حضيض الجاهلية إلى قمة الإسلام الرفيعة وفي فترة قياسية هي قصيرة جداً في عمر الزمان.

ولمعرفه عظمه هذه النقلة تستطيع ان تقارن بين حال الأمة قبل الإسلام وحالها بعده فكانوا قبل الإسلام يرتكبون جريمة وأد البنات – اي يدفنونهن في التراب وهن احياء خوف العار – ويغير بعضهم على بعض فيقتل ويسلب وينتهك الأعراض، والقوي يأكل الضعيف قد تفشّت فيهم الفواحش من الزنا وشرب

(١) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٩.

الخمر وهم عاكفون على عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع، فكيف أصبحوا بفضل الله ورحمته؟ اصبحوا متآخين متحابّين يؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة حتى لو كان لأحدهم رغيف من الخبز أعطى نصفه لأخيه واكتفى بالنصف الآخر، واذكر مثالاً واحداً كشاهد على عظمة تلك النقلة فقد روى العدوي انه سمع جريحاً في معركة القادسية يطلب الماء فجاءه ليسقيه فسمع آخر يطلب الماء فقال الجريح اسق أخي أولاً فلما اتاه سمع ثالثاً يطلب الماء فقال اسق أخي فلما أتاه وجده قد مات فرجع إلى الثاني فوجده قد مات وكذا الأول، مثل هذا المستوى الرفيع خلقه الإسلام في تلك الأمة، ولا أريد ان أدخل في تفاصيل هذه التجربة العظيمة فأنها تستحق أفراد كتاب[1] مستقل لها لبيان الدروس المستفادة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا المجال تطبيقاً للآية الشريفة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١) عسى الله ان يوفقنا لإنجازه، والذي اريد ان أقوله هنا ما قيل من ان اواخر هذه الأمة لا تصلح الا بما صلح به اوائلها، وقد صلحت اوائل هذه الأمة بهذا العلاج الشافي: القرآن الكريم[2] كما وصف نفسه انه هدى ورحمة وشفاء لما في الصدور وببركة المعالج وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجهوده الجبارة وصبره المضني ومهمتنا في إصلاح المجتمع اسهل بالتأكيد لأننا نتعامل مع ناس مسلمين أولاً مهما كان درجه ابتعادهم عن الله سبحانه ومتحضرين ومثقفين ثانياً

---

(١) أنجز هذا الكتاب لاحقاً وطبع بعنوان (الأسوة الحسنة).

(٢) تناول سماحته هذه النقلة العظيمة في حياة الأمة في كتابه (شكوى القرآن) وفي (الأسوة الحسنة).

ونأتي على خلفيه تربية طويلة قام بها الأئمة (عليهم السلام) من بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن بعدهم العلماء الأبرار المخلصون عبر هذه القرون الطويلة وعندما نريد ان نستفيد من تجربة القرآن نجد أنه قد كرّس نفسه طيلة مدة النبوة في مكة (وهي ثلاث عشرة سنة أي الجزء الأكبر من زمان النبوة) لإحياء القلوب والعقول وتطهير النفوس ولم يبلّغ الاحكام الشرعية الا بعد ان وصلت الأمة إلى درجة من السمو الروحي والنضج العقلي والايمان الراسخ وحينئذٍ حمّلهم الاحكام فاستجابوا لها وامتثلوها بلا أدنى تردد فكان ذلك المجتمع المثالي الذي لم تشهد له البشرية مثيلاً فلا انحراف ولا جناية ولا مشكلة الا ما ندر جداً مما لا يكاد يذكر فنحن – كحوزة شريفة – محتاجون إلى هذا الاحياء اكثر من حاجتنا الى تبليغ الأحكام، وان إيصال الأحكام الفقهية – مهما كان مهماً – الا أنه وحده لا يكفي بل لابد معه من احياء القلب والضمير والعقل والا فأن الأحكام الفقهية المثبتة في الرسائل العملية لا تكون فاعلة ومؤثرة ومحركة الا اذا امتزجت بما يحيي القلب ويوقظ العقل ويحرّك الضمير.

وأنت اذا سبرت آيات القرآن الكريم فستجد انه حرّك المسارات الثلاثة المتقدمة واستفاد منها ووظّفها في عملية الهداية والإصلاح.

فعلى الصعيد الأول وهو المستوى النفسي تجده يربط بين الايمان وتوافر النعم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦) ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ (الجن:١٦) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح:١٠-١٢) ويربط بالمقابل بين العصيان ونزول النقم ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠) ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس:٩٨) ﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦) هذا في الدنيا واما في الآخرة فمن الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان لكثرته وتواتره ما أعدّ الله تعالى للمطيعين من النعم ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1] وما اعدّ للكافرين من الوان العذاب ومن يتصفح القرآن خصوصاً في قسمه المكي يطّلع على الصور المشرقة السعيدة لحياة المؤمنين والحياة النكدة المعذبة الشقيّة للكافرين.

وعلى المستوى الثاني فقد ضمّ القرآن استدلالات وبراهين واحتجاجات كثيرة على مختلف العقائد والمعارف الإلهية كقوله تعالى في اثبات التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢) وقوله ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (لقمان:١١) وأكّد على ضرورة الحوار ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:٦٤) وإقامة البرهان وعدم جواز التقليد من غير دليل ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٩٢/٨.

(البقرة:١١١)، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ (هود:٨٨)، ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٥٩).

واما على المستوى الثالث وهو الأهم والأعمق تأثيراً والأشد رسوخاً لأن الإيمان اذا كان عن دليل عقلي محض فيمكن ان تزيله مغالطة عقلية لا يفهم الشخص وجه الشبهة فيها اما اذا كان عن طريق القلب واستقر فيه فلا يزيله شيء، من هنا قال ابراهيم (عليه السلام) ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠)، من هنا كان أفضل مدخل لصنع شخص مليء بالإيمان من رأسه إلى أخمص قدميه هو قلبه فترى القرآن تارة يثير في القلب مشاعر الحب لله سبحانه بما يبين من أوصاف الكمال فهو الرحيم بعباده أكثر من الأم الحنون بولدها وهو الساتر عليهم والحليم عنهم والرازق لهم وهو الهادي والمنعم والكريم والعليم والقوي والقادر وغيرها من الاسماء الحسنى واذا احبّ الانسان شيئاً اندفع إلى طاعته وتلبية رغباته من دون ان ينتظر مكافئة او أجر فالأب يسعى بكل ما عنده لإدخال السرور على أولاده واسعادهم وكذا الأم وقد يضحيان بحياتهما من اجلهم لا لمطمع عندهم ولا للخوف منهم سوى الحب لهم.

وتارة أخرى يثير مشاعر الرهبة والخوف بما يصف من مشاهد يوم القيامة ويحكي من أحوال ما بعد الموت.

محفزات للتشجيع على التوبة:

فكيف نستفيد من هذه التجربة القرآنية، وكيف نستثمر هذه الاتجاهات الثلاثة لهداية الناس وجذبهم الى طاعه الله سبحانه وكيف ننزع من عقول الناس وقلوبهم

بان الالتزام بالشريعة تقييد للحريات وانها تكليف وعبئ ثقيل نبدله الى سعادة وسرور بهذا التشريف الإلهي العظيم، نحاول هنا - بإذن الله تعالى- اثارة عدة محفّزات تندرج ضمن هذه الاتجاهات الثلاثة وهو ما اتبعه الأئمة (عليهم السلام) فإنما كانوا يعظون الناس ويهدونهم بطرق شتى فواحد من جهة النفس كذاك الناصبي الذي اغدق عليه الإمام (عليه السلام) العطاء فتحوّل الى موالي وهو يقول (الله اعلم حيث يجعل رسالته)[١] وآخر من جهة الدليل والبرهان ككثير من اليهود والزنادقة[٢] وآخر من جهة القلب بإثارة العلاقة الوجدانية مع الله تعالى والتذكير بالموت وحساب الآخرة كأسلوب الإمام الكاظم (عليه السلام) مع بشر الحافي في القصة المعروفة[٣].

ومن ذلك ما روي ان رجلاً قال للامام الصادق (عليه السلام): (يابن رسول الله دلني على الله ما هو فقد كثر عليَّ المجادلون وحيروني، فقال له: ياعبد الله هل ركبت سفينة قط، قال: نعم، قال فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال:نعم، قال الصادق (عليه السلام):فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث[٤].

---

(١) أنظر: مقاتل الطالبيين- الأصفهاني: ٣٣٢.

(٢) أنظر: الاحتجاج- الطبرسي: ٣١٢/١.

(٣) الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي:١٦٦/٢ ونقل عن روضات الجنان سبب توفيقه للتوبة وعن العلامة (قدس سره) في منهاج الكرامة قصة توبته على يد الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

(٤) بحار الأنوار: ج٣/ ص٤١.

وهو ما يسمى بالوجدان وهذا ناشئ من اختلاف المؤثرات على الناس فمن الضروري ان تتعدد الأساليب والمصلح الذكي المسدّد هو الذي يعرف أفضل باب يدخل منها وعندئذ سيجدون أكثر من مبرر للحرص على طاعة الله سبحانه والتعلّق بها والتضحية من اجلها والشعور بالسرور والسعادة لدى الالتزام بالشريعة.

الاول:

ان التكاليف الشرعية ليست طوقاً في عنق الإنسان ثقيلاً يريد ان يتحرر منه بل هو تشريف له، واضرب لك مثالاً معاشاً فلو ان الملك أراد أمراً معيناً كافتتاح مشروع فأناب إنساناً بدلاً عنه كم سيكون هذا الإنسان محظوظاً ان ينال شرف النيابة عن الملك ويتحدث باسمه فكذلك الانسان اختاره الله سبحان ليكون خليفته في هذه الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠) والله ملك الملوك وربهم وخالقهم فكم تكون عظمة النعمة ان يستخلف أحداً ويسخر له كل ما في الارض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩) وينقل عن شخص عارف انه احتفل يوم بلوغه سن التكليف الشرعي لأنه يوم تشريفه بأعظم النعم.

الثاني:

ان الشريعة الإلهية إنما وضعها الله سبحانه لتنظيم حياة البشر وهدايتهم إلى ما فيه صلاحهم لأنه خالقهم وهو العارف بما يصلحه فان اي جهاز يعطل نرجع الى الشركة المصنّعة للجهاز تعرف عيبه وطريقة إصلاحه والله هو خالق الإنسان وصانعه فهو العارف بمناشئ انحرافه وطرق علاجها ومن القبيح والمستهجن ان نرجع إلى نفس الإنسان التائه الضال ليرسم لنا طريق الصلاح وقد جرّبت البشرية

كل النظم الوضعية فزادتها سوءاً على سوء وظلماً على ظلم ومازالت تتجرع ويلات تلك النظم البشرية، والنتيجة ان الالتزام بالتعاليم الإلهية هو الطريق الوحيد الذي يضمن للبشرية سعادتها واستقرارها وطمأنينتها وانت ترى بعينك وتحس سعادة المؤمن واستقراره الروحي حتى وان مرّت به الوان المصائب وانواع المصاعب في مقابل الكافر الفاسق وصراعه النفسي وانحرافاته نتيجة الخواء الروحي الذي يعيشه فتجد حياته نكدة معذبة وهو في ذروة الرخاء المادي وربما آل به الأمر إلى الإنتحار مما لا تجده في المجتمعات المؤمنة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ (طه:١٢٤). وهؤلاء الذين يريدون اسقاط الدين والغائه من الحياة باسم الحرية الذي هو مصطلح شفاف وتهفو له النفوس، اسألهم ماذا تعنون بالحرية هل الانفلات واللانظام وعدم الخضوع لأية ضوابط وكل واحد يفعل ما يشاء ويحلو له؟ سيقولون لا طبعاً لان هذا معناه الهمجية والفوضى ولا يقوم اي تجمع بشري الا على نظام وقانون ينظم حياة البشر ويقنّن العلاقات بينهم ويحدد الحقوق والواجبات ويرصد المخالفات ويجعل لها العقوبات وبدونه لا تستقيم حياة البشر قلنا:عندئذٍ فأي قانون أفضل يضعه الله سبحانه خالق البشر والعارف بما يصلحهم والمطّلع على سرائرهم ذو القدرات اللامتناهية والكمالات غير المحدودة من العلم والقدرة والرحمة والحكمة والعدل والغنى وغيرها ام يضع القانون بشر قاصر يقول اليوم شيئاً ويتراجع عنه غداً ويلغي اليوم ما قرره بالأمس وهو بين هذا وذاك لا يعرف نفسه فضلاً عن ان يعرف غيره.

الثالث:

ان من شأن كل عاقل ان يرد الجميل بالجميل ويجازي الاحسان بمثله ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص:٧٧)، ونعم الله تعالى علينا كثيرة سواء على صعيد ابداننا التي هي عبارة عن معامل ومصانع كثيرة تعمل بدقة واتقان وابسط مراجعة لكتاب (الطب محراب الإيمان) تنبئك عن هذا مما يوقف شعر رأسك أو على صعيد الحياة حولنا من كون متناسق وأرض طيبة معطاء ونعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨) وجزاء هذا الإحسان إحسان مثله ولما كان الله غنياً عن عباده ولا يمكن ان يصل إليه نفع من أحد فردُّ الإحسان بالنسبة إليه طاعته ومن اشكال شكر النعم ان تطيع المنعم بها اما عصيانه مع نعمه الوفيرة فهذا مما لا يرتضيه عاقل.

الرابع:

ان كل واحدٍ منا يحب ان تزيد النعم عليه وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي وقد وعدنا سبحانه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧) وفي الحديث (بالشكر تدوم النعم) فعلى من يرجو إفاضة النعم وزيادتها وكل إنسان مجبول على حب الاستزادة من المال والبنين والجاه والصحة وغيرها من نعم الله سبحانه فعليه أن يطيع الله سبحانه ويشكره ليزيده الله سبحانه من النعم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦).

الخامس:

أنه اذا أخبرنا إنسان ثقة بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة فأننا سنهرب بالاتجاه المعاكس ونحذر منه ونتخذ الاجراءات الواقية من الوقوع في الخطر، فاذا أكد هذا الخبر ثقة آخر ازدادت استعداداتنا لذلك وكنّا أكثر حزماً، وقد أخبرنا مئة وعشرون الف نبي انه سيكون يوم القيامة ويثاب فيه المطيع على طاعته ويعاقب العاصي على معصيته بنارٍ وقودها الناس والحجارة افلا يوجب هذا الحذر والابتعاد عن كل ما يورطنا في هذه النار المتأججة وقد وضعها القرآن الكريم بمشاهد مرعبة وأخبرنا أن معصية الله سبحانه توقعنا فيها وان طاعته تورثنا جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1] ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ (السجدة:١٧).

السادس:

علينا ان نتذكر ان وراءنا عقبة كؤوداً وشدائد وأهوال أوّلها وأيسرها الموت الذي وُصف بأن نشراً بالمناشير وقرضاً بالمقاريض أهون من سكرة من سكرات الموت هذه الأهوال التي يستغيث منها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أكمل الخلق فيقول في نزعه الأخير (حبيبي جبرئيل عند الشدائد لا تخذلني)[2] ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تلك الحال (وعليكم السلام يا رسل ربي)، وقال:﴿لِمِثْلِ هـذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (سورة الصافات:٦١)[3] ويبكي الإمام

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٩٢/٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٢/ ص٥١٠.

(٣) وفاة الإمام أمير المؤمنين.

الحسن (عليه السلام) في لحظاته الأخيرة فيُسأل عن سبب بكائه فيقول: (أبكي لفراق الأحبة وهول المطّلع)[1] هكذا يعرف الموت من كشف له الواقع اما نحن ففي غفلة عنه حتى نراه ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩) ولكن ليس من شأن المؤمن الواعي ان لا يلتفت إلى الشر والخطر حتى يقع فيه وقد نبّهنا إليه الراسخون في العلم:محمد وآل محمد (صلى الله عليه وآله) ووصفوه بأبلغ وصف (خصوصاً في نهج البلاغة) لا يقدر عليه حتى من عاشه ورآه ودخل فيه، هذا ما ينتظرنا فماذا أعددنا له؟! معصية الخالق تبارك وتعالى والاعراض عنه والتمرد على شريعته التي هو غني عنها وانما هي لخيرنا وسعادتنا.

وعلى الانسان البعيد عن الله سبحانه ان يعي حقيقة ان الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

فكم من صحيح عاش من غير علة ** وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح غافلاً ** وقد تُسجت اكفانه وهو لا يدري[2]

إن حالنا في هذه الدنيا يمكن تصويره بشخص مدلّى في حبل داخل بئر عميق وفي قعر البئر تنين عظيم فاتح فاه ينتظر سقوط هذا الشخص ليلتهمه وتوجد فأرتان تقرضان بالحبل من أعلاه ولا يدري هذا الشخص متى يتم قرض الحبل فيقع فريسة لهذا التنين وهو في هذا الجو المرعب بدلاً من ان يعدّ العدة لتدارك

(١) أمالي الصدوق ص١٣٣ ، العيون ص١٦٨.

(٢) ديوان الإمام علي (عليه السلام): ٧٨.

هذا الخطر والاستعداد لمواجهته ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:١٩٧) أقبل على عسل مخلوط بالتراب على جدران البئر يلعق به ويزاحم الحشرات والديدان المتهالكة عليه، هذا هو حالنا فالتنين هو الموت والحبل هو العمر والفأرتان هما الليل والنهار اللذان يُبليان كل جديد والعسل هذه الملذات الدنيوية المليئة بالمنغصات وهي لذة ساعة لكنها تورث حسرة دائمة.

السابع:

اننا خلقنا لهدف واحد وهو إعمار الحياة بما يرضي الله سبحانه والتكامل في طريق الوصول وقد اعطينا رأس المال الذي نتجر به ونكسب ونجني منه ثمار هذا الطريق ونحن في معاملاتنا الدنيوية عندما نتجر برأس مال فأننا نستقصي التجارة التي تدر أكثر ارباحاً ولا نفرّط في شيء من رأس مالنا وتأخذنا الحسرة والندامة لو فرّطنا في فرصة كان يمكننا ان نحصل على ربح أكثر وهذه الصورة نفسها نعيشها نحن بوجودنا في الحياة الدنيا فرأس مالنا هو العمر والهدف من التجارة نيل رضا الله سبحانه وقد منَّ الله سبحانه علينا بنعم كثيرة فكلما استثمرناها في تحقيق الهدف كانت تجارتنا أكثر ربحاً وكلّما قصّرنا فسنعضُّ على أصابع الندم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ - والظالم كل من فعل معصية - عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) نندم على كل لحظة مرّت علينا لم نوظّفها فيما يرضي الله سبحانه فضلاً عن هدرها في معصيته - والعياذ بالله - ومن اسماء يوم القيامة أنه يوم التغابن راجع سورة التغابن وفيها قوله تعالى ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:٩) وقد ورد ان الجميع يشعرون

بالغبن حتى المؤمنون لأنهم ينظرون إلى المراتب الأعلى منهم وكانوا يستطيعون الحصول عليها لو استغلّوا وقتهم بالشكل الصحيح فيتأسفون على إضاعة الفرصة ومن هنا جاء في وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (ره) (يا أبا ذر اغتنم خمساً قبل خمس..)[1] وفي الأخبار ان عمر الانسان بكل لحظاته يعرض عليه على شكل خزائن تفتح له الواحدة تلو الأخرى فما كان منها مستثمراً في طاعة الله سبحانه وجد في تلك الخزينة روحاً وريحان وان كانت معصية والعياذ بها هبّت عليه منها نار محرقة وان لم تكن لا من هذه ولا هذه بأن قضاها في المباحات الخالية من نية القربة كالنوم والطعام والنكاح فسيراها فارغة فيندم على ما أضاع من عمره ويجب ان نلتفت إلى ان هذه المباحات أيضاً يمكن أن تكون طاعات يتقرب بها إلى الله سبحانه فيما لو صبّت في الهدف فينام ليريح بدنه ويجدّد نشاطه لعمل جديد ويأكل ليتقوى على طاعة الله سبحانه وينكح النساء ليحصن نفسه وزوجته من الحرام وليزيد عدد النسمات التي توحّد الله تبارك وتعالى على هذه الأرض ويفرّغ همه لطاعة الله سبحانه وهكذا إلى ما شاء الله من النيّات الصالحة المقرّبة إلى الله سبحانه وبهذا المضمون ورد حديث رواه الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في وجوه الصدقات الى أن قال (صلى الله عليه وآله) (وفي بُضع أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله:أياتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟، قال (صلى الله عليه وآله):(ارأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر)[2].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٧٥/٧٤.

(٢) صحيح مسلم ٣٣٠ كتاب الزكاة، باب ١٦، ح(١٠٠٦).

خبر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال (لأبي ذر - ضمن وصية جامعة له -: ولك في جماعك زوجتك أجرٌ.. قال أبو ذر: كيف يكون لي أجرٌ في شهوتي؟.. فقال (صلى الله عليه وآله): أرأيت لو كان لك ولد، فأدرك ورجوت خيره، فمات، أكنت تحتسبه؟ قلت: نعم، فقال: فأنت خلقته؟، قال: بل الله خلقه، قال: أفأنت هديته؟، قال: بل الله هداه، قال: فأنت ترزقه؟، قال: بل الله كان يرزقه، قال: كذلك فَضعَهُ في حلاله، وجنبه حرامه، فإن شاء الله احياه، وإن شاء أماته، ولك أجر)[1].

أفبعد هذا كله يلهو الانسان ويلعب أو يضيع وقته في الأمور التافهة فضلاً عن ان يجرّ على نفسه الويلات بما يجترح من السيئات ﴿رِجَالٌ لّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور:٣٧).

الثامن:

انه لابد للإنسان من اله يعبد فأن لم يكن الله سبحانه هو اله المعبود فسيقع في عبادة الإلهة الأخرى وكفى بذلك ضلالاً وخسراناً مبيناً ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات:٢٢-٢٣) فما هي هذه الإلهة التي يطيعها الإنسان البعيد عن الله سبحانه لأن معنى العبادة هو الطاعة والانصياع لذا ورد في تحف العقول عن الإمام (عليه السلام) (من أصغى إلى ناطق فقد عبده)[2] فالذي يطيع نفسه الأمارة بالسوء ويلبي شهواتها

(١) شعب الإيمان- البيهقي: ٥١٤/٧.

(٢) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤٥٦.

فقد اطاعها وعبدها قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣) ومن الإلهة الأخرى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٠) ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة:٣١)، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ - الأصنام - إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣)، ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ (الأحزاب:٦٧)، ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ (الأعراف:١٧٣) فأي عاقل يرضى بأن يخرج من حصن ولاية الله العظيم وطاعته إلى ولاية هذه التوافه التي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياءاً ولا نشورا وفي مقابلهم من أخلص الطاعة لله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۞ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۞ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۞ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۞ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ۞ لَكِنِ

الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (الزمر:١١-٢٠) استمع الى الله سبحانه يحكي لك الحوار الذي سيدور بين العاصي لله سبحانه وآلهته التي اطاعها من دونه تبارك وتعالى والتي أهمها النفس الأمارة بالسوء التي وصفها أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح (فَبِئْسَ الْمَطِيَّةُ الَّتي امْتَطَتْ نَفْسي مِنْ هَواها فَواهاً لَها لِما سَوَّلَتْ لَها ظُنُونُها وَمُناها، وَتَبّاً لَها لِجُرْاَتِها عَلى سَيِّدِها وَمَوْلاها) [1] وفي دعاء آخر (وَتَجْعَلُني عِنْدَكَ أَهْوَنَ هالِك)[2].

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۞ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۞ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ۞ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۞ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿الشعراء:٩٠-١٠٣) وهم كاذبون في هذه الدعوى قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ (الأنعام:٢٨).

هذا الاعتزاز والسمو بعبادة الله سبحانه ونبذ ما سواه هو ما عبّر عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) (إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون

(١) مفاتيح الجنان: ٩٤.

(٢) مفاتيح الجنان: ١٦٧.

لي رباً، إلهي أنت لي كما أحب فوفقني لما تحب)[1].

والمفارقة الصارخة التي تجعل هؤلاء العصاة يدسّون رؤوسهم في التراب ان تكاليف عبادة ما سوى الله سبحانه هي أضعاف تكاليف عبادة الله سبحانه بغض النظر عن العاقبة[2] في الآخرة فالمرأة المحجبة لا تحتاج إلى أزيد من غطاء لرأسها وازار لجسمها بينما السافرة تحتاج ان تشتري انواع البدلات والثياب لأن (الاتيكيت) لا يرضى لها ان تثبت على لباس واحد وان تصفف شعرها على أحدث الموديلات وان تضع انواع المساحيق والعطور وأدوات التجميل وغيرها من المستلزمات لهذا العرف الشيطاني من حقائب وأحذية والآت الزينة والغرب الكافر حينما جرّ مجتمعنا الإسلامي إلى هذا الوضع المنحدر لم ينظر إلى هزيمة ديننا واخلاقنا ونظامنا الاجتماعي المتماسك بل استهدف أيضاً إلى الجانب الاقتصادي حيث أصبحت بلادنا سوقاً رائجة لتصريف منتجاته الشيطانية.

هذا مثال على الصعيد الفردي ومثال آخر على الصعيد الاجتماعي مثل الأمة قد تحتاج إلى تقديم عدد معين من الضحايا والقرابين لنيل حريتها وكرامتها وشرفها لكن تخضع وتستكين للذل وتقاعس عن اداء الواجب فتدفع أضعاف ذلك العدد وهي على ما هي عليه من الهوان والضِعة فالإمام الحسين (عليه السلام) عندما طلب من الأمة ان تقول كلمة الحق في وجه يزيد وتقف في وجه انحرافاته ولو كلّفها بعض التضحيات ولمّا أخلدت إلى الأرض وتعلّقت بالدنيا وتشبثت بها

---

(١) بحار الأنوار: ج٩١/ ص٩٤.

(٢) لبيان تفصيل هذه الفكرة راجع موسوعة خطاب المرحلة: ٧٣/١٠، وقبس قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (الأنفال:٣٦)، في تفسير من نور القران.

وبخلت على الله تعالى بالقرابين اذاقها الذل والهوان عن محمد بن عرفة قال سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول:لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[1] ودفعوا في وقعة واحدة هي واقعة الحرة:عشرة الاف انسان. وهذه سنة الله سبحانه جارية في الأمم جميعاً.

فهؤلاء البعيدون عن الله سبحانه انما يلهثون وراء سراب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور:٣٩).

التاسع:

نقول له:ماذا يخسر الانسان لو اطاع الله سبحانه؟! لا يخسر شيئاً بل هو يعيش ويتمتع بالحياة كما يفعل البعيد عن الله سبحانه وفوق ذلك له المكاسب الدنيوية والأخروية التي يحققها له الايمان بالله سبحانه والسير على شريعته، قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف:٣٢) وفي آية أخرى ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ (النساء:١٠٤).

وقد اتبع هذا الاسلوب الإمام الصادق (عليه السلام) حين قال لابن ابي العوجاء:-وهو من زعماء الملحدين-:في موسم الحج وكان يسخر من الطواف حول الكعبة (إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون يعني أهل الطواف فقد

(١) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي: ٦/ ١٧٦/ ح ١.

سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم)[1]. وهو اسلوب لا يستطيع ان يرفضه اي عاقل.

العاشر:

أنه لو خُيّرتَ بأنك هل تريد أن تدخل في تجارة تعطي فيها ديناراً فيردّ عليك بسبعمائة دينار والله يضاعف لمن يشاء فتصلي خمس صلوات في اليوم وتصوم شهراً في السنة وتحج مرة في العمر إن استطعت وتجتنب الخمر والخنزير والزنا والسرقة لمدة سبعين سنة مقابل ان يدخلك الله جنة عرضها السماوات والأرض تجد فيها كل ما تشتهي حاضراً عندك من دون عناء ولا منغصات خالداً فيها وان تلك الحياة الدنيا لا تشكّل الا جزءاً يسيراً يوم من الحياة الخالدة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٧) فأي عاقل لا يرضى بهذه المعاوضة فيعطي التراب ويأخذ الذهب؟ كلّنا عُرض علينا هذا الأمر فوافقنا عليه وأخذ الله سبحانه منّا العهود والمواثيق على الالتزام بهذا العهد فلما خرجنا إلى الدنيا نسيناه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٢-١٧٣).

(١) بحار الأنوار: ج٣/ ٤٣، عن كتاب التوحيد للصدوق: ١٢٥ باب٩/ ح٤.

الحادي عشر:

ان حقيقة يجب أن نصدّق بها ونعيشها في وجداننا وهي ان الله تعالى معنا أينما كنّا من حيث الزمان أو المكان وفي مختلف أحوالنا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد:٤) وانه كما وصف تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:٥٠) ويعلم كل شيئاً عنّا ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام:٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ (آل عمران:٥).

وامام هذه الحقيقة الدامغة لا يسعنا الا ان نلتزم بآداب العبودية بين يدي الخالق العظيم في جميع أحوالنا، ومن وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) (أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فأنه يراك)[1].

الثاني عشر:

إن كل ما عندنا من مال وجاه وبنين وصحة واستقرار وسائر النعم الأخرى التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨) هي مما أفاضه الله تعالى على عبده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل:٥٣).

واي عاقل يرى أن من غير الانصاف أن تقابل هذه النعم بالمعاصي والتمرد بل بالشكر والعمل بطاعة الله تعالى، واذا أصرَّ العبد على المعاصي فليرجع هذه النعم إلى خالقه وليعص الله بأدوات من صنعه إن قدر على ذلك، لكنه سوف لا يملك

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤/ ص ٧٤.

شيئاً يعصي به الله تعالى لأن كل ما عنده من الله تعالى وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فكيف يعصيه إذن وبهذا المعنى ورد الحديث القدسي (من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر على نعمائي فليعبد رباً سوائي، وليخرج من أرضي وسمائي)[1].

(١) شرح أصول الكافي: ج١/ ص٢١٩.

القبس/١٤٥

سورة النو ر:﴿٣٣﴾

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾

موضوع القبس: العفّة رأس كل خير

(العفّة) ملكة وصفة نفسية كسائر الملكات النفسية مثل الشجاعة والكرم والحلم والرحمة:تحصّن صاحبها من الإنقياد للشهوة وإتباع الهوى والوقوع في القبيح، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لمحمد ابن أبي بكر لما ولاه مصر (اعلم ان افضل العفّة الورع في دين الله والعمل بطاعته)[1] وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (العفاف يصون النفس وينزهّها عن الدنايا)[2]، فالعفّة كالتقوى من هذه الناحية ويمكن ان يكون الفرق بينهما ان العفّة صفة ذات والتقوى صفة فعل والمتعفّف من تحلى بتلك الملكة عن طريق الترويض ومجاهدة النفس، والاستعفاف طلب العفّة.

واذا اطلق لفظ (العفّة) فان الذهن العرفي ينصرف الى حفظ النفس من السقوط في اتباع الشهوة الجنسية بغير ما أحلّ الله تعالى ومخالفة احكامه في هذا المجال سواء على مستوى المظهر الخارجي كسفور المرأة او ميوعتها او عدم غض النظر الى غير ما أحلّ الله تعالى او العلاقات الجنسية غير المشروعة او أي انحراف في توظيف الحاجة الجنسية وإثارتها ونحو ذلك فهذا كله ينافي العفاف،

(١) بحار الأنوار – العلامة المجلسي: ٣٩٠/٧٤.

(٢) غرر الحكم: ٢٥٦/ح ٥٤٢٠.

وقد جاء الامر الإلهي صريحاً بتنزيه النفس في هذا المجال قال تعالى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٣) والخطاب موجّه الى كلا الجنسين فأمروا بالتعفف وحفظ النفس من الحرام بالتزويج إن كانوا قادرين عليه ومؤهلين له، وإن لم تكن عندهم القدرة على التزويج فليتعففوا بالصبر والانشغال بالطاعات والاعمال المفيدة المثمرة والابتعاد عن المثيرات الجنسية وبمساعدة التذكر والالتفات الى ان الإنسان في محضر الله تبارك وتعالى وتحت نظره وفي رقابة الملائكة ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، ومفتاح هذه الحصانة عملياً يتحقق بغض البصر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور:٣٠-٣١).

وهذا الامر الشرعي لغض البصر ليس مختصاً بشريعة الإسلام وإنما هو موجود في الشرائع السماوية الاخرى، ففي أنجيل (متى:٥:٢٧-٢٩) (قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن، واما أنا أقول لكم إن كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فأقلعها وألقها عنك، لانه خير لك أن يهلك احد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم)[1].

وقد بلغ التأديب الشرعي حداً دقيقاً في مجال العفاف لكلا الجنسين كقوله تعالى ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور:٣١) ويكره

(١) نقله عنه في تفسير الفرقان: ٢٠/ ٢٣٨.

للرجل ان يقعد في مكان قامت عنه المرأة حتى تذهب حرارة بدنها عنه، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا جلست المرأة مجلساً فقامت عنه، فلا يجلس في مجلسها رجل حتى يبرد)[1].

فالآية الكريمة تدعو الرجال والنساء الذين لم يتيّسر لهم تلبية شهواتهم الجنسية بالزواج الى التعفف وحفظ النفس من الوقوع في الحرام الى ان يغنيهم الله من فضله ويهيئ لهم أسباب الزواج السعيد المبارك، وروى في صحيح البخاري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجاء)[2].

هذا على صعيد تفسير الآية الكريمة والمعنى المتبادر من العفاف، لكننا ذكرنا في اول الحديث ان العفّة جارية في كل انحاء السلوك ولا تقتصر على ما يتعلق بالشهوة الجنسية والعلاقة مع الجنس الاخر، وقد ورد لفظ العفاف بهذا المعنى في القرآن الكريم وبغيره أيضاً، فعلى صعيد التعفف من أي انحراف في توظيف الحاجة الجنسية قال الله تبارك وتعالى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٣) وقال تعالى ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٦٠) بحفظ نفوسهن عمّا تشتهي من التبرجّ والظهور للأجنبي وإبداء الزينة.

وعلى صعيد عفّة اليد من التجاوز على أموال الاخرين بغير حق قال تعالى

---

(١) الوسائل، ج ٢٠ كتاب النكاح ، أبواب مقدمات النكاح، ب١٤٥/ ح١.

(٢) صحيح البخاري: ٣/٧/ ح ٥٠٦٦، ط. دار طوق النجاة.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ (النساء:٦) وعلى صعيد عفّة النفس واستغنائها عن الطلب من الناس قال تعالى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ (البقرة:٢٧٣) وفي عفّة اللسان ورد قوله تعالى ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ (النساء:١٤٨) وفي عفّة البطن ورد قوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤) وقوله تعالى ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام:١٢١) وجمعت آية أخرى كل معاني العفاف، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(الأعراف:٨٢) أي يتعففون وينزهون أنفسهم عن فعل القبيح في كل شؤون حياتهم.

وهكذا تنوعت الأحاديث الشريفة أيضاً فورد في عفّة البطن عن أكل الحرام بسبب حرمة نفس الطعام والشراب كالخمر ولحم الخنزير واللحوم غير المذبوحة بطريقة شرعية او الأطعمة المتنجسة او بسبب حرمة المكسب او حرمة المال، قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (اذا أراد الله بعبد خيراً أعفّ بطنه وفرجه)[١] وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (ما عُبد الله بشيء أفضل من عفّة بطنّ وفرج)[٢].

و ورد في عفّة المعاملة مع الناس قولاً وفعلاً قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) (من طالب حقاً فليطلبه في عفاف)[٣] أي بوسائل مشروعة ولأغراض صحيحة.

ويبلغ العفاف اسمى مراتبه في عفّة القلب وطهارته من كل الرذائل الخُلقية

---

(١) غرر الحكم للآمدي: ٢٨٩/ح ١٤٠.

(٢) الكافي للكليني: ٢٠٣/٣/ح١٦٤٣.

(٣)كنز العمال – المتقي الهندي: ٢١٧/٦/ ح١٥٤٠٤.

كالحقد والحسد والانانية والعصبية والرياء والعجب وغيرها ويتسامى اكثر فلا يسكن فيه غير محبة الله تبارك وتعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٨-٨٩) وسلامة القلب تعني طهارته وتعفّفه عن التعلق بما سوى الله تعالى، لما سُئِل الإمام الصادق (عليه السلام) عمّا يسمونه بالعشق بين الجنسين قال (عليه السلام):(قلوبٌ خلت من ذكر الله فاذاقها الله حب غيره)[١].

وعلى هذا يكون من الطبيعي ما ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (العفّة رأس كل خير)[٢] لان حصول ملكة العفّة في النفس تجعل الإنسان صالحاً مؤهلاً لاستقبال الالطاف والتوفيقات الإلهية كما ورد في القرآن الكريم في حق مريم (عليها السلام) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:٩١) والفاء هنا للتفريع فعفتها واحصانها كان سبباً لنيل هذه الكرامة، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (اذا أراد الله بعبد خيراً أعفّ بطنه وفرجه)[٣].

وتحصل ملكة العفاف بعلاجين: نظري وعملي:

اما النظري فمن خلال الالتفات الى أهمية العفّة في استقامة الانسان وعظيم بركاتها في الدنيا والآخرة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (أفضل العبادة العفاف)[٤] وورد عنه (عليه السلام) في فضل من له القدرة على ارتكاب ما ينافي العفاف

(١) أمالي الصدوق: ٧٦٥/ ح١٠٢٩.

(٢) غرر الحكم للآمدي: ٦٢/ح١٢١٢.

(٣) غرر الحكم للآمدي: ٢٨٩/ح ١٤٠.

(٤) الكافي للكليني: ٧٩/٢/ح٣.

سواء في العلاقة مع الجنس الاخر أو أكل الحرام أو الظلم أو النيل من الآخرين بلسانه ونحو ذلك لكنه يمنع نفسه عن ذلك تعففاً قال (ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم اجراً ممن قدر فعفَّ، لكاد العفيف ان يكون ملكاً من الملائكة)[١] وعنه (عليه السلام) قال (من عفَّ خفَّ وزره وعظم عند الله قدره)[٢] وجعل (عليه السلام) في حديث آخر من ثمراتها قلة الاحزان[٣].

ومن العلاج النظري: ان يلتفت الإنسان الى قدر نفسه وعظيم ثمنها وحينئذ لا يرضى لها بغير العفاف والترفع عن اتباع الاهواء والشهوات والخوض في الأمور الدنية، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (ينبغي لمن عرف نفسه ان يلزم القناعة والعفَّة)[٤] وعنه (عليه السلام) قال :(من عقل عفَّ)[٥].

اما العلاج العملي: فنعني به ترويض النفس ومجاهدتها وتدريبها على القناعة بالقليل من الحلال اذا وجد، او الصبر اذا لم يحصل على القليل، ولذا يوصي أمير المؤمنين (عليه السلام) من يريد التأسي به بقوله (الا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد)[٦] وفي حديث مروي عنه (عليه السلام) قال (أصل العفاف القناعة)[٧] وعنه (عليه السلام):(من قنعت نفسه اعانته على

(١) نهج البلاغة:٣٨٧/ الحكمة ٤٧٤.

(٢) غرر الحكم للآمدي: ٢٥٦/ح٥٤٢٦.

(٣) أنظر: بحار الأنوار: ٧٥/ ٧/ ح٥٩.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ٣٩١/ح٩٠٠٦.

(٥) غرر الحكم للآمدي: ٥٣/ح٤٢٨.

(٦) نهج البلاغة: ٣/ ٧٠/ كتاب ٤٥.

(٧) بحار الأنوار: ٧٥/ ٧/ ح٥٩.

النزاهة والعفاف)[١].

وهذا واضح من أصل اشتقاق الكلمة لغوياً فقد قيل انها من (العُفّة) وهي بقية اللبن في الضرع فكأن الضرع يعف بها عن الخروج ويحفظها فيه او ان هذه البقية من اللبن تعف عن ميل اللبن الى الخروج وتُسمى (العُفافة) ايضاً فيقال عففت فلاناً أي سقيته العُفافة وهو ((الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العُفافة، والعُفّة:أي البقية من الشيء))[٢].

والحياء و العفّة توأمان، فالحياء ينتج العفّة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (سبب العفّة الحياء)[٣] وعنه (عليه السلام) قال (على قدر الحياء تكون العفّة) وفي رسالة الإمام الصادق (عليه السلام) الى شيعته التي امرهم بمدارستها والنظر فيها يومياً (عليكم بالحياء، والتنزه عما تنّزه عنه الصالحون قبلكم)[٤].

اننا اليوم احوج ما يكون الى إشاعة ثقافة العفّة في جميع المجالات حيث تعاني المجتمعات من الانحراف الأخلاقي والاجتماعي والفكري والفساد المالي والإداري والكل يتحدث عن النزاهة والمبادئ العليا والاخلاق الكريمة وحقوق الانسان ولا نجدها على الواقع بينما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (النزاهة آية العفّة)[٥].

وتحقيق العفاف مسؤولية اجتماعية تضامنية يشترك فيها الجميع، فالشاب

---

(١) غرر الحكم للآمدي: ٣١٨/ح٧٣٤٧.

(٢) مفردات القرآن للراغب الاصفهاني، مادة (عف).

(٣) غرر الحكم للآمدي: ٢٥٧/ح٥٤٤٤، وص٢٥٦،ح٥٤١٤.

(٤).تحف العقول- ابن شعبة الحراني:٣١٣.

(٥) غرر الحكم للآمدي: ٣١٨/ح٧٣٤٣.

الذي يريد ان يتعفف ويحصِّن نفسه بالزواج ولا يجد الى ذلك سبيلاً يتحمل مسؤولية تزويجه القادرون على ذلك، وعفّة اليد تتطلب مؤسسات فاعلة تثقف المجتمع بحرمة التجاوز على المال العام وتكافح الفساد، وعفّة البطن تدعو الى مراقبة السوق وأنواع الكسب الموجودة لمنع الكسب الحرام وهكذا بقية المجالات.

وفي يوم العفاف الذي اختير له ذكرى ميلاد سيدة العفاف العقيلة زينب الكبرى (عليها السلام) نقف إجلالاً ونقدّم اسمى تحيات الاكبار والتعظيم للسيدات العفيفات على مر التاريخ وقدواتهن المباركات السيدة مريم ابنة عمران وآمنة بنت وهب أم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين التي كانت تُسّمى (الطاهرة) في الجاهلية التي عم فيها الفساد، وفاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين (عليه السلام) التي كانت عابدة موّحدة في الجاهلية الوثنية وفاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة نساء العالمين وزينب بنت أمير المؤمنين (عليها السلام) عقيلة آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) اللواتي يفتخر الإمام المعصوم زين العابدين (عليه السلام) بالانتساب لهن ويقف فى مجلس الطاغية يزيد ويقول (أنا ابن نقيات الجيوب، أنا ابن عديمات العيوب)[1]، ومن سار على نهجهن من النساء المؤمنات.

ونستذكر في هذه المناسبة المؤمنات العفيفات اللواتي مضين الى ربهّن شهيدات صابرات صامدات في سجون الانظمة الطاغوتية الجائرة قديماً وحديثاً ولم يتنازلن عن شرف المبادئ السامية رغم التعذيب الوحشي فطوبى لهن وحسن

(١) الاحتجاج- الطبرسي: ٣٩/٢، وبعض المصادر ترويها عن الإمام الحسن في مجلس معاوية كما في (مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ١٧٨/٣.

مآب، واشكر الاخوة الذين وفّقوا لإحياء ذكراهن واستعادة كلماتهن والتذكير بمواقفهن ضمن فعاليات هذا اليوم الشريف.

القبس/١٤٦

سورة النو ر:﴿٣٦﴾

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾

موضوع القبس: بيت النبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) أرفع البيوت وأفضلها

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور:﴿٣٦﴾-﴿٣٧﴾).

بيوت جمع بيت، وأصل البيت لغة[1] مأوى الإنسان الذي يستريح فيه ويبيت فيه في الليل، ثم عمّم إلى مكان الشيء فيقال للمساجد بيوت الله لأنها محال ذكر الله تعالى والصلاة والدعاء، وبيت الله بالمعنى الأخص الكعبة لأن الناس يتوجهون إلى الله تعالى باستقبالها قال تعالى: ﴿وَطَهّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركَّع السّجُود﴾ (الحج:﴿٢٦﴾)، وبيت المال للمكان الذي يحرز فيه المال، ويقال بيت النار لمكان الموقد، وبيت الخلاء للمكان الذي تقضى فيه الحاجة، ونحو ذلك.

(١) أنظر: مفردات غريب القرآن - الأصفهاني: ٦٤.

ورفع البيت يمكن أن يكون مادياً بتشييده وإنشائه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة:١٢٧)، وقد يكون رفعه معنوياً بتعظيم قدره ومكانته وتطهيره من الأرجاس والمعاصي، وإنما يتحقق ذلك عندما يكون محلاً لذكر الله تعالى وصناعة الإنسان الصالح ومنطلقاً لهداية الناس وفعل المعروف، ولا تأبى الآية إرادة المعنى الأول أي بناء المساجد التي يذكر فيها الله تعالى، وإن كان الثاني فيها أوضح، فإن الجملة الظرفية ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلقة بما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[1] فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾ (النور:٣٥)، فهذه البيوت التي أذن الله تعالى أن ترفع هي كالمشكاة التي يشع منها نور الهداية للناس جميعاً لأنها تكون مأوى أولياء الله تعالى وحججه على خلقه، فالمصباح رسالة الله تبارك وتعالى، والزجاجة التي تحفظه وتؤجج نوره هم المعصومون (سلام الله عليهم) وبيوتهم هي مشكاته ولا يؤتمن على الرسالة الإلهية من لا يكون بيته بهذه الأوصاف.

وقد روى الفضيل بن يسار قال: (قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام)): ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: كذلك الله عز وجل، قلت: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ قال لي:

---

(١) قيل ان المشكاة: بيت أو تجويف يُشقّ في الحائط ليحفظ فيه المصباح ويركّز نوره ويجمعه، ويغلّفون المصباح بزجاجة لتزيد من إضاءته وتنظم دخول الهواء إليه.

محمد (صلى الله عليه وآله))[1]. فالبيوت الرفيعة هي بيوت محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم).

وقد حرص النبي (صلى الله عليه وآله) على ترسيخ هذا المعنى عند أصحابه ومن خلاله إلى الأمة جميعاً، فقد روى الحاكم بسنده عن أنس (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يمرّ بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الصبح ويقول: الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣))[2].

وروى الشيخ الصدوق في أماليه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) نفس المعنى[3].

وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن أبي حمزة إلى أن قال: (فقال له: من أنت؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): ويحك يا قتادة إن الله جل وعز خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه فهم أوتاد في أرضه، قوّام بأمره، نجباء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه أظلة عن يمين عرشه، قال: فسكت قتادة طويلاً ثم قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك، قال له أبو جعفر (عليه السلام): ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

(١) رواه الشيخ الصدوق في التوحيد: ص١٥٧/ ح٣، وفي معاني الأخبار: ص١٥/ ح٧.

(٢) مستدرك الحاكم: ٣/ ١٥٨، وصحّحه على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) أمالي الصدوق: ٢٠٨.

فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فأنت ثَم ونحن أولئك، فقال له قتادة: صدقت والله، جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين)[1]، فهو يعترف بأن هذه البيوت المرفوعة أفضل من المساجد التي عبَّر عنها ببيوت من حجارة وطين.

وروى السيوطي وهو من علماء العامة بسنده عن انس بن مالك وبريدة قال: (قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) هذه الآية ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه وآله): بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت - أي بيت علي وفاطمة- منها؟ قال: نعم، من أفاضلها)[2]، فهذا البيت الطاهر أعلى من بيوت الأنبياء وأشرف وأفضل لأنه ضمَّ أكمل الخلق وهم المثل الأعلى والأسوة الحسنة لسائر الناس.

والمصابيح درجات ومراتب، وقد روى الشيخ الصدوق عن الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث طويل إلى أن قال في تفسير الآية: (وهي بيوتات الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى)[3].

وكلّ مؤمن صالح يمكن أن يكون مشكاة تضيء لأهله ويجعل بيته من هذه البيوت، وقد يتوسّع فيهدي أصدقائه أو ما هو أوسع من ذلك بحسب علمه ومعرفته وهمّته في هداية الناس روى في عدة الداعي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله:

---

(١) الكافي: ج٦/ ص٢٥٧.

(٢) الدر المنثور: ج٧/ ص٢٠٢.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ج١/ ص٢٤١/ ح٢.

(نوروا بيوتكم بتلاوة القرآن، فإن البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كثر خيره، وأمتع أهله، وأضاء لأهل السماء كما تضئ نجوم السماء لأهل الدنيا)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن البيت إذا كان فيه المسلم يتلو القرآن يتراءاه أهل السماء كما يتراءى أهل الدنيا الكوكب الدري في السماء)[1].

﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ فالمؤمن لا يعمل إلا وفق ما يأذن به الله تعالى ويشرِّعه، وقد أذن برفع المساجد وجعلها خالصة لله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الجن:١٨)، كما أن الرفعة المعنوية لا تكون إلا بإذن الله تعالى تكويناً وتشريعاً، حيث شاء الله تعالى لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) بإرادته التكوينية أن يكونوا مطهرين منزهين من الخطأ والخطيئة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وأمر بإرادته التشريعية أن يكونوا أئمة وسادة وقادة وأوجب على جميع الخلق ولايتهم وطاعتهم.

ومن آثار هذه الرفعة وجوب قصد هذه البيوت والتشرف بها والاستفادة من بركاتها ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (يونس:٨٧) ومحبة أهل هذا البيت وتعظيمهم وطاعتهم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم:٣٧)، روى في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فإنه أخبركم أنهم ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾)[2].

---

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٢/٦١٠/ ح٢.

(٢) الكافي – للشيخ الكليني: ج٢، ص٤٨.

وقد ذكرت الآية الكريمة علة رفع هذه البيوت لأنها ﴿يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي أول النهار وآخره كناية عن اشتغالهم في جميع الوقت بذكر الله تعالى كما يقال ليل نهار، فهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في جميع حركاتهم وسكناتهم متوجهون إلى الله تعالى.

﴿رِجَالٌ﴾ إذا أريد بها الذكور البالغون فهو من باب التغليب، وإلا فإن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) داخلة في هذا البيت بنص آية التطهير والحديث النبوي المتقدم في كون بيت علي وفاطمة من أفاضلها، ويدخل فيهم الأئمة الذين تولوا الإمامة وهم في عمر الصبا، وإن أريد بها الرجولة بمعنى الفتوة فإنها تشمل من ذكرناهم حقيقة، ويأتي نفس التقريبين في مثل قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ (التوبة:١٠٨) وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣).

وقد تكون في الآية إيماءة عفافٍ فخصّت الرجال بالذكر باعتبار إن النساء المطهرات محتجبات في البيوت ولا يتصدين لمسؤولية الإمامة والهداية العامة.

﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فحياتهم كلها لله تعالى وفي ذكر لله تعالى، والصلاة والزكاة من مظاهر ذكر الله تعالى، وإن قاموا ببعض الأعمال التي تتطلبها شؤون الحياة الطبيعية للإنسان إلا أنهم مشغولون فيها بذكر الله تعالى، وذُكِر البيع لأنه أوضح الشواغل الدنيوية، والتجارة هي الحرفة وإن لم يكن في ممارسة فعلية للبيع الذي هو أحد مصاديقها، فليس المطلوب ترك التجارة والبيع وسائر الحركات التي تتطلبها طبيعة الإنسان

ووجوده في هذه الدنيا، وإنما المطلوب أن لا تلهيهم ولا تشغلهم عن الهدف الأسمى وهو نيل رضا الله تبارك وتعالى، روى الشيخ الصدوق في الفقيه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله في هذه الآية: (كانوا أصحاب تجارة فإذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجراً ممن لا يتّجر)[1].

ومن خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) عند تلاوته ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ قال (عليه السلام): (وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأهل الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لا يَسْمَعُونَ)[2].

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ أي تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء ومن حالٍ إلى حالٍ بحسب ما يرونه من أهوال يوم القيامة، وتتقلب أبصارهم طلباً للنجاة، ولأنهم وعوا هذه الحقيقة فهم يخشون يوم القيامة حيث يظهر الإنسان على حقيقته ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق:٩) وتفنى الصور الظاهرة التي لمّعها صاحبها للناس، ويبدو ما كان خافياً، لذا فإن أهل ذكر الله تعالى يقلّبون قلوبهم في هذه الدنيا عن الشواغل والملهيات ويفرّغونها لله تعالى

(١) من لا يحضره الفقيه – الشيخ الصدوق: ١٩٢/٣/ ح ٣٧٢٠.

(٢) نهج البلاغة: ٤٦٦، شرح صبحي الصالح، خطبة ٢٢٢.

ليكونوا ممن ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٩) ويكونون من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

وقد كان الأئمة (عليهم السلام) يؤكدون للناس هذا المعنى لبيوت الله تعالى التي أُذِن لها أن ترفع، خصوصاً مع علماء العامة، روى في كتاب المناقب عن أبي حمزة الثمالي قال: (لما كانت السنة التي حج فيها أبو جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) ولقيه هشام بن عبد الملك أقبل الناس يتساءلون عليه فقال عكرمة: من هذا؟ عليه سيماء زهرة العلم لأخزينه، فلما مثل بين يديه ارتعدت فرائصه وأسقط في أيدي أبى جعفر (عليه السلام)، وقال: يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفا، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): ويلك يا عبيد أهل الشام إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه)[1].

وخاطبهم الله تعالى في زيارة الجامعة الكبيرة: (السلام على محالّ معرفة الله ومساكن بركة الله ومعادن حكمة الله وحَفَظة سرّ الله وحملة كتاب الله وأوصياء نبي الله وذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ورحمة الله وبركاته) وفيها أيضاً (خلَقَكم اللهُ أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتى منَّ علينا بكم فجعلكم في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه)[2].

(١) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ج٣/ ص٣١٧.

(٢) مصابيح الجنان للكاشاني: ٤٥١-٤٥٣، عن من لا يحضره الفقيه، للصدوق: ٢/ ٦١٣.

فوا عجباً بعد كل هذا عجباً لا ينقضي إلى يوم القيامة من هجوم القوم على بيت علي وفاطمة الذي كان يستأذن النبي (صلى الله عليه وآله) وهو ربّ الدار قبل أن يدخل!، والأعجب من ذلك أن يقال للثاني: إن في الدار فاطمة؟ فيقول: وإن[1].

وا عجباً يستأذنُ الأمينُ عليهمُ ويهجمُ الخؤونُ

قال سليمٌ: قلتُ: يا سلمانُ هل دخلوا ولم يكُ استئذانُ

قال: نعم، وعزّة الجبارِ وما على الزهراء من خمارِ[2]

فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٧).

(١) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة الدينوري: ج١/ ص٣٠.

(٢)كتاب سليم بن قيس: ١٥٢.

ملحق: مقامات القرآن الكريم وصنوه أهل البيت (عليهم السلام)

التلازم بين القرآن واهل البيت(عليهم السلام):

نشير اولاً باختصار إلى الاقتران والتلازم في المقامات بين القرآن الكريم وأهل البيت (عليهم السلام)، هذا التلازم الّذي أفاده حديث الثقلين الذي أجمع الفريقان[1] على صحّته وصدوره عن النبي (صلى الله عليه وآله)، ففي مسند أحمد بن حنبل[2] بسنده عن زيد بن ثابت قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إنّي تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل مدود ما بين السماء والأرض- أو ما بين السماء إلى الأرض- وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض) ورووه عن جمع غفير من الصحابة.

لا يرتاب مسلم في معنى أهل البيت (عليهم السلام):

وقد بيّن النبي (صلى الله عليه وآله) بالقول وبالفعل المقصود من أهل البيت في مواطنٍ كثيرة وهُم علي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم أجمعين)، ففي مستدرك الصحيحين روى بسنده عن أمّ سلمة أنّها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣) قالت: فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فقال: (اللهمّ هؤلاء أهل بيتي) قالت أمّ سلمة:يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنّك إلى خير. وهؤلاء أهل بيتي اللهمّ أهل بيتي أحق)[3].

---

(١) لمعرفة مصادره من كتب العامّة راجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستّة: ٥٢/٢).

(٢) مسند أحمد: ٥/ ١٨١/ ح٢١٠٦٨.

(٣) راجع مصادر الحديث في المصدر السابق: ١/ ٢٦٩.

ولا حاجة بعد هذا للدخول في مناقشات لغوية في معنى أهل البيت ومن هو المشمول بها بعد أن حدّد النبي (صلى الله عليه وآله) بنفسه المراد بهذا العنوان.

الزهراء (عليها السلام) عِدل القرآن الكريم:

فالسيّدة فاطمة الزهراء من أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم - بموجب حديث الثقلين - صنو القرآن وعدل القرآن ولا يفترقان حتّى يردا الحوض يوم القيامة، ومن هذا الاقتران والملازمة نستنتج خصائص كثيرة ومقامات رفيعة لأهل البيت (عليهم السلام) وللصدّيقة الطاهرة (عليها السلام) ولأمير المؤمنين (عليه السلام) لتضاف إلى الأدّلة على إمامته وتقدّمه على الخلق أجمعين بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) منها:

١- مقام العصمة، لأنّ القرآن ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) وكذلك السيدة الزهراء (عليها السلام) معصومة بغضّ النظر عن الأدلة الأخرى على عصمتها كآية التطهير وغيرها.

٢- مقام العلم والإحاطة بكل شيء ممّا علمهم الله تبارك وتعالى فقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بقوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿النحل:٨٩) وقال تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨) فالسيدة الزهراء (عليها السلام) لها هذا المقام من العلم والإحاطة بمعرفة كلّ شيء وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، قال تعالى ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾ (البقرة:٢٥٥).

٣- والقرآن له مقام الإمامة والقيادة والحجة ولزوم الطاعة على الخلق أجمعين ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر:٧)

وقال تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤) وللقرآن مقام الإمامة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):(عليكم بالقرآن فاتخذوه إماماً وقائداً)[١] فكذلك السيّدة الزهراء (عليها السلام) لها مقام الإمامة والقيادة ولزوم الطاعة على الخلق أجمعين، لذا روي عن الإمام العسكري قوله (نحن حجج الله على خلقه وجدّتنا فاطمة حجّة الله علينا)[٢].

٤- والقرآن هو الحق والحقّ معه ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ (الجاثية:٢٩) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات:٢٣) وهكذا السيّدة الزهراء (عليها السلام) فإنّ الحقّ يدور معها حيث دارت.

٥- وللقرآن القيمومة[٣] العليا المطلقة على الخلق قال تعالى:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۞ قَيِّماً﴾ (الكهف:١-٢) كما أنّ القيّم على الأسرة أو المجتمع له الولاية عليهم يقودهم ويدلّهم على ما يصلحهم ويسعدهم، فكذلك الزهراء (عليها السلام) لها القيمومة على الناس ومنهجها هو المنهج القيّم والمستعلي على المناهج كلّها، وقد علّلت الآية علّة القيمومة بأنّ لا عِوَجَ له.

٦- والقرآن مبارك ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام:٩٢) ﴿كِتَابٌ

---

(١) كنز العمال- المتقي الهندي: ٥١٥/١.

(٢) خطاب المرحلة: ٧/ ٥٢.

(٣) شرحنا معاني هذه الصفات للقرآن في فصل (القرآن يصف نفسه) في ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠)، في تفسير من نور القرآن.

أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (ص:٢٩) فهو كثير البركة والخير والعطاء ومبارك في آثاره على النفس والمجتمع لأنّه مصدر الهداية والإرشاد والسعادة والحياة المطمئنة للبشرية ومصدر العلوم كلّها، وهكذا الزهراء (عليها السلام) كثيرة البركة وعطائها لا ينفد، حتّى أنّ الله تعالى سمّاها الكوثر الذي يعني الخير الكثير.

٧- والقرآن عصمة للأمة من التفرّق والتشتّت والضياع ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ (آل عمران:١٠٣) والقرآن وأهل البيت (عليهم السلام) هم الحبل الممدود الذي يعصم الأمّة، وفي هذا قالت السيّدة الزهراء (عليها السلام) (وجعل إمامتنا نظاماً للملّة وأماناً من الفرقة)[١].

٨- والقرآن عزيز يصعب مناله في كتابٍ مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون، وعزيز لأنّه قاهرٌ غالب على من خاصمه، وهو عزيز يندر وجود مثله، وعزيز لأنّه يمتنع عن النيل بسوء، وعزيز لأنّه مطلوب وكلّ مفقودٍ مطلوب، وهكذا السيّدة الزهراء (عليها السلام) عزيزة بكل هذه المعاني.

٩- والقرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة للعالمين كما وصف نفسه وهكذا السيّدة الزهراء (عليها السلام).

١٠-وللقرآن مقام الشفاعة كما وصفه النبي (صلى الله عليه وآله) (فعليكم بالقرآن فإنّه شافعٌ مشفّع)[٢].

---

(١) الاحتجاج- الطبرسي: ١٣٤/١.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٢/ ٥٩٨/ ح٢.

وللزهراء (عليها السلام) الشفاعة يوم القيامة حتّى ورد في الرواية أنها (عليها السلام) تلتقط مواليها ومحبّيها يوم المحشر كما يلتقط الطير الحبّ الجيّد من الحبّ الرديء[1].

١١-والقرآن مخاصم لمن هجره وأعرض عنه ولم يعمل به وحجّته غالبة ومصدّقة من دون بيّنة أو دليل كما وصفه النبي (صلى الله عليه وآله) بأنّه (ما حل مصدّق)[2] أي مخاصِم مصدّق فيما يقول وهكذا السيّدة الزهراء (عليها السلام) ستخاصم من ظلمها وأنكر حقّها وجحد ولايتها، وهي مصدّقة في دعواها.

١٢-والقرآن خالد محفوظ إلى يوم القيامة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) وهكذا الحجج من أهل البيت (عليهم السلام) باقون ببقاء القرآن وهذا دليل على وجود الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وذكر فاطمة وأهل البيت (عليهم السلام) باقٍ إلى يوم القيامة ونورهم باقٍ مهما حاول الحاسدون والمنافقون والمبغضون إطفاءه والقضاء عليه وإزالته ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:٨).

١٣-وفي التمسّك بالقرآن النجاة من الفتن، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:(إنّها دار بلاء وابتلاء وانقطاع وفناء، فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار)[3]، فالتمسك بهدى الزهراء (عليها السلام) ينجي من الفتن ويقود إلى الهداية.

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٥٢/٨.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٢/ ٥٩٨/ ح٢.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني: ٢/ ٥٩٨/ ح٢.

١٤-والقرآن يصف نفسه ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۞ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق:١٣-١٤) وهكذا كلمات فاطمة (عليها السلام) كلّها فاصلة ليس فيها هزل لا محصّل من ورائه أو هزيلة خالية من المعاني، وكان يومها يوم الفرقان.

١٥-والقرآن أنيس، يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام): (لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشتُ بعد أن يكون القرآن معي)[١] وهكذا ذكر السيّدة الزهراء وأهل البيت (عليهم السلام) فإنّه أنيس للمحبّين والموالين وبلسم لنفوسهم المتعبة).

١٦-والقرآن لا يبلى ولا يُملُّ بكثرة التكرار، قال امير المؤمنين (عليه السلام) (لا تُخلقهُ كثرةُ الرّد وولوجُ السمع)[٢] وهكذا ذكر الزهراء (عليها السلام) كلما يتكرّر يزدادُ اقبالاً وبهجة حتى لو استمر طيلة أيام السنة وعلى مدى السنين.

١٧-ولمن حمل القرآن وتعلّمه وعلّمه أجر عظيم، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله:(حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبوسون بنور الله عزّ وجل)[٣] فلمن أحيا ذكر الزهراء (عليها السلام) ونشر فضائلها ومناقبها ومظلوميتها مثل هذا الأجر العظيم.

١٨-وإنّ على حامل القرآن أن يتّصف بالخير، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إنّ أحقّ الناس بالتخشّع في السرّ والعلانية لحامل القرآن، وإنّ أحقّ الناس

---

(١) الكافي: ٦٠٢/٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧/٢/ خطبة: ١٥٦.

(٣) جامع الأخبار- محمد الشعيري: ٤٦.

في السر والعلانية بالصلاة والصوم لحامل القرآن)[١] فعلى الموالين للسيّدة الزهراء (عليها السلام) ان يكونوا على مثل هذه الخصال الكريمة.

١٩-وللقرآن ارتباط وثيق بليلة القدر وكان نزوله فيها ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان:٣) وللسيّدة الزهراء (عليها السلام) ارتباط وثيق بليلة القدر؛ ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (فمن عرف فاطمة (عليها السلام) حقّ معرفتها فقد أدرك ليلة القدر)[٢]، وقد شرحنا في بعض أحاديثنا وجوهاً لهذا الحديث.

٢٠-ومن آداب تلاوة القرآن أن يُقرأ بالحزن، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (اقرأوا القرآن بالحزن فإنّه نزل بالحزن)[٣]، وعنه (صلى الله عليه وآله) (اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)[٤]، ومن وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) للمتّقين (أمّا الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلا يحزّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم)[٥] فكذلك السيّدة الزهراء (عليها السلام) لا تُذكر إلاّ ويفيض القلب حزناً لذكراها، فضلاً عمّا لو ذُكرت مظلوميتها.

روي أن رجلاً دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) وقد وُلدت له بنت فقال (عليه السلام) (ما سمّيتها؟ قال:فاطمة فقال (عليه السلام) (آه آه ثم وضع يده على جبهته –

---

(١) الكافي: ٢/٦٠٤/ ح٥.

(٢) راجع مصادره في الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (عليها السلام): ١٨/٤٣٨.

(٣) الكافي: ٢/٦١٤/ ح٢.

(٤) تفسير الثعالبي: ٢/ ٤١٣.

(٥) نهج البلاغة: ٢/ ١٦٠/ خطبة ١٩٣.

إلى أن قال- أما إذا سمّيتها فاطمة -فلا تسبّها ولا تلعنها ولا تضربها)[1].

وهذه الخصائص التي ذكرناها للزهراء (عليها السلام) ثابتة للأئمة الأطهار (عليهم السلام) لكونهم من أهل البيت (عليهم السلام) وإنّما خصصنا السيّدة الزهراء (عليها السلام) بالذكر لأنّها صاحبة المناسبة.

إن ما قمنا به من بيان هذه المقامات لأهل البيت (عليهم السلام) فيه دعوة لإتباع هؤلاء السادة الهداة تلبية لدعوة الإمام (عليه السلام) (قال الرضا (عليه السلام): رحم الله عبدا أحيا أمرنا، فقيل له:وكيف يُحيي أمركم ؟.. قال: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا)[2].

(١) وسائل الشيعة كتاب النكاح، أبواب أحكام الأولاد، باب ٨٧.

(٢) جواهر البحار، الجزء الثاني، كتاب العلم، عن كتاب: معاني الأخبار.

القبس/١٤٧

سورة النور:﴿٥٥﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

موضوع القبس: الوعد الإلهي بالاستخلاف والتمكين

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

يتعرّض المؤمنون في حياتهم إلى ضغوط عديدة من قبل أعدائهم وخصومهم في الفكر والعقيدة، وهذه الضغوط قد تكون على نحو الاستهداف بالقتل والتشريد والسجن والإرهاب، وقد تكون على نحو صناعة المشاكل الاجتماعية والانحرافات الأخلاقية والشبهات العقائدية، وقد تكون على نحو التجويع والحصار الاقتصادي وحرمان الإنسان من حقه في حياة حرة كريمة، وغير ذلك.

ولا يتوقف الخصوم والأعداء عن هذه الممارسات التي تأخذ أشكالاً متعددة قوية عنيفة تارة وناعمة خفية تارة أخرى؛ حتى يهيمنوا على المؤمنين ويتسلّطوا عليهم ويجرّدوهم من عقيدتهم وأخلاقهم ويحبطوا مشروعهم الإصلاحي ويذوّبوا هويّتهم على طريقة العولمة التي يتحدثون اليوم عنها، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾

(البقرة:﴿١١٧﴾) وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:﴿١٢٠﴾) وهم ينطلقون في ذلك من أنانيتهم واستكبارهم وحبهم للدنيا واتباعهم للشهوات وحسداً للمؤمنين على طهارتهم وسموّهم عن الرذائل والموبقات، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة:﴿١٠٩﴾).

ويساعد على نجاح خطط هؤلاء الأعداء الخارجيين من داخل المجتمع المسلم حمقى ومنافقون وجهلة وطلاب الدنيا وعُبّاد الشهوات.

وفي ظل هذه الضغوط يعيش المؤمنون حالة من الضيق والقلق والخوف واليأس من نجاح مشروع الهداية والإصلاح فيأتي هذا الوعد الإلهي المذكور في الآية ليطمْئنهم ويعيد إليهم الثقة بالنفس ويزرع في قلوبهم التفاؤل والأمل حتى يثبتوا على إيمانهم ويستمروا في أداء رسالتهم، ولا شك أن هذا الوعد حق لا يمكن أن يتخلف ﴿وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾ (النساء:﴿١٢٢﴾) ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الروم:﴿٦﴾) ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران:﴿٩﴾) (الرعد:﴿٣١﴾).

نعم قد تطول المدة حتى يتحقق هذا الوعد الإلهي ولو في بعض مراتبه؛ لأن بناء المجتمع الصالح يحتاج إلى جهود مضنية وعمل دؤب مع صبر ومصابرة ومرابطة وإلى زمن لتتحقق شروطه وظروفه ومقوماته، فعلى المؤمنين أن يستمروا بعملهم والقيام بمسؤولياتهم وليس عليهم توقيت النتائج أو استعجال حصولها.

والوعد الذي تشير إليه هذه الآية التي نزلت في المدينة ذكرته آيات سبق نزولها في مكة[1] كالذي تضمنه قوله تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص:٥-٦) وقد كان المسلمون يومئذٍ قلة معدمين تلاحقهم قريش فتعذبهم وتحاصرهم وتصادر أموالهم وتقتلهم ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال:٢٦)، فوعد الله تعالى المؤمنين بالأمور التي ذكرتها الآية:

١-الاستخلاف في الأرض بأن تكون بأيدي المؤمنين الصالحين العاملين الإمكانيات المادية والمعنوية التي يستطيعون بها إعمار الأرض وتوفير الحياة الكريمة للبشرية جمعاء.

٢-تمكين الدين الذي ارتضاه تعالى لهم وهو الإسلام والانقياد لله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة:٣) ويتحقق تمكين الدين بثباته واستقراره في القلوب والنفوس وعندما تكون له القيمومة والسيادة على الأنظمة والقوانين والدساتير التي وضعها البشر بقصورهم وتقصيرهم.

٣-الحرية في الإيمان بالعقائد الحقة وممارسة العبادة الخالصة لله تعالى ونبذ

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣).

الشركاء جميعاً سواء كانوا أصناماً حجرية أو بشرية أو طواغيت أو أهواء أو عصبيات أو تقاليد، ويقترن ذلك بالأمن من الخوف وزوال الضغط والإرهاب عنهم وتأثير الشبهات والضلالات عليهم.

هذا في الدنيا أما في الآخرة فينبئك الله بتحقق وعده ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر:٧٤).

لكن الوعد الإلهي بتحقيق هذه الأمور لا يتم بمجرد ادعاء الإيمان أو الاكتفاء بممارسة العبادات والشعائر الظاهرية من دون أن يتحول إلى حركة فاعلة دائبة تنطلق من منهج متكامل للحياة فيجعل المرجعية للدين الحق في كل شؤون الحياة وتفاصيلها وفي كل عوالم الإنسان وسلوكه حتى في مشاعره وعواطفه وميوله فيجعل الله تعالى نصب عينيه ويجعل هدفه الوحيد تحقيق مرضاة الله تعالى وتجنب معصيته وغضبه سبحانه، لذا ذكرت الآية ﴿مِنكُمْ﴾ أي ليس كلكم وإنما بعضكم الذي توفّرت فيه هذه الصفات.

أما من ينتسب إلى الإسلام وربما الانتماء لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وربما يقيم الصلوات ويشارك في إحياء الشعائر الدينية لكنه يظلم الناس ويتجاوز على حقوقهم ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ولا يطبق أحكام الله تعالى في القضايا والوقائع فإنه ليس مشمولاً بهذا الوعد الإلهي لأن الخطاب موجّه إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾

(الحجرات:٤).

روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه كان جالساً مع أصحابه فجاء خبر إلى أحدهم بأن امرأته قد ولدت فتغيّر وجه الرجل فسأله النبي (صلى الله عليه وآله): عما أصابه، فقال: خرجتُ والمرأة في حالة مخاض وولادة وأخبرت الآن أنها ولدت أنثى، فسأله النبي (صلى الله عليه وآله): كم سنة مضت عليك في الإسلام، قال:سبع عشرة سنة، فقال (صلى الله عليه وآله): كل هذه المدة ولم يدخل الإيمان قلبك[1].

فهذا الرجل رغم أنه من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين الذين تحملوا الأخطار والمشاق، إلا أن هذه المشاعر القلبية منه سلبته حقيقة الإيمان وإن كان مؤمناً بحسب الظاهر.

أيها الأحبة:

إن هذا الاستخلاف والتمكين ليس من الضروري أن يكون مقترناً بالوصول إلى السلطة والحكم[2]، وإن كانت السلطة والحكم من العناصر المساعدة على الوصول إلى الهدف الأسمى أي تكون وسيلة وليست غاية وهي من مصاديق القوة التي أمر الله تعالى بإعدادها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠).

فالملحوظ في تحقق الوعد الإلهي هو حصول النتائج التي ذكرتها الآية

---

(١) الحادثة مروية في المصادر مثل وسائل الشيعة: ١٥/ ١٠١/ ح٢ لكن ذيلها لم نعثر عليه في حدود البحث الذي أجريناه.

(٢) بل قد تكون السلطة وبالاً على أصحابها عندما ينظرون اليها على انها غنيمة يحوزونها بجشع واستئثار.

الكريمة، فبالرغم من أن السيدة الزهراء (عليها السلام) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) كانوا في مظلومية دائمة ومستمرة وإقصاء كامل إلا أنهم كانوا القدر المتيقن من المقصودين بآية الوعد الإلهي، وقد أكد النبي (صلى الله عليه وآله) هذه الحقيقة بصراحة ووضوح حينما جمع أهل بيته (عليهم السلام) قبيل وفاته وقال لهم:(أنتم المستضعفون بعدي)[1] وهي تعني فيما تعنيه أنتم المقصودون بالوعد الإلهي للمستضعفين بالاستخلاف والتمكين ووراثة الأرض ولو على يد حفيدهم المهدي الموعود (عجل الله فرجه الشريف) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض كلماته:(ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

لقد كانت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على ثقة تامة بهذا الوعد الإلهي رغم أنها بحسب الظاهر كانت امرأة مستضعفة ومسلوبة الحقوق وزوجها مكبّل وقد فقدت الناصر والمعين وهي تواجه خصماً بيده السلطة مدججاً بالسلاح ومحفوفاً بالأعوان المتأهبين لفعل كل شيء بلا رادع لكنها تخاطبهم بكل شجاعة وثبات وثقة بالنفس واطمئنان بالنتائج بقولها (عليها السلام):(وأبشروا بسيف صارم يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم! وأنّى بكم وقد عميت عليكم!

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ٧٩.

(٢) نهج البلاغة، من كلمته (عليه السلام) لعمر بن الخطاب لما استشاره في الخروج إلى العراق لقتال الفرس.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1] (هود:٢٨).

إنها ليست لغة الأسير المستضعف بل لغة الواثق بالنصر والذي يرى هزيمة خصمه عين اليقين، فتحذّرهم من سوء العاقبة والمصير.

وقد ورثت ابنتها العقيلة زينب (عليها السلام) هذه الثقة بالوعد الإلهي فقالت مخاطبة يزيد الطاغية المتفرعن المغرور بالنصر الذي توهّمه: (فكِد كيدك واسعَ سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحونَّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحَضُ عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود:١٨)[2].

أيها الإخوة والأخوات:

إننا نتلمّس اليوم بوضوح جملة من علامات تحقق هذا الوعد الإلهي بإظهار الدين الذي ارتضاه على كل الأنظمة الوضعية المصطنعة وتمكين المؤمنين الصالحين من أخذ دورهم في إعمار الأرض بما ينفع البشرية كلها ويعبّد لها طريق الهداية والصلاح، ومن تلك العلامات:

١- وصول صوت أهل البيت (عليهم السلام) إلى جميع الشعوب حتى تتعرف على المبادئ الإنسانية السامية التي يريدون إقامتها مما ولّد مقبولية واسعة لهذه المدرسة المباركة لدى الشعوب وإقبالاً متزايداً على الانتماء لها.

٢- تصاعد مستوى الشجاعة والتضحية في سبيل الله وحماية المقدسات

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٤٠/١.

(٢) راجع مصادر الخطبة في كتاب الصحيح من مقتل سيد الشهداء وأصحابه: ١١٢٥.

وامتلاك المبادرة والإقدام والشعور بالمسؤولية لدى المستضعفين، وقد تجلّى كل ذلك في العمليات التي تخوضها قواتنا المسلّحة بكل صنوفها وأبطال الحشد الشعبي وقوافل الدعم اللوجستي خصوصاً في معارك الموصل الأخيرة حيث اعترف قادة جيش أقوى دولة في العصر الحديث بأن هذه المعركة تصعب على أي جيش في العالم مع ما رافقها من النبل وسمو الأخلاق والتضحية من أجل الإنسان أي إنسان بغضّ النظر عن دينه وطائفته وقوميته.

٣- تنامي حالة الوعي واليقظة لدى الأمة وإدراك تحديات المرحلة ومتطلباتها وهذه الحالة وإن كانت في بداياتها إلا أنها تبشّر بخير بإذن الله تعالى.

٤- ظهور علامات الضعف والضمور والتفكك عند الدول المستكبرة وازدياد مشاكلها التي تعجز عن حلّها فتحاول التخلص منها بتصديرها إلى الخارج.

أيها المؤمنون:

لكي نساهم في تحقق هذا الوعد الإلهي واكتماله بظهور منقذ البشرية بقية الله في أرضه وحجته على خلقه إمامنا المهدي الموعود (أرواحنا له الفداء) فعلينا أن نبذل قصارى جهودنا في إدامة وتعزيز هذه العلامات المذكورة، وقد ذكرت آية كريمة أخرى صفات وأعمال الذين يُمكَّنُ لهم في الأرض، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج:٤١).

وعلينا أيضاً أن نتجنب كل ما يعرقل هذه الحركة المباركة نحو التكامل من عصيان وتمزق وتشتت وصراعات وخوض في الباطل واتباع للشهوات والأهواء

وأن نعي مؤامرات الأعداء ونحذر منها وهي كثيرة وخطيرة ومعقدة لكنها لا تخفى على القيادة الرشيدة وأهل البصائر، تبدأ من نشر مظاهر الفسق والفساد وتجريد المسلمين من عناصر هويتهم العقائدية والأخلاقية، وتنتهي بانقلاب القيم والأفكار حتى يستحي المسلم من إعلان هويته والدعوة إلى مشروعه ويتباهى بتبعيته وذوبانه في المشروع المعادي[1].

وهذا مما حذّر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمته منه في الحديث المشهور (كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون هذا يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشرٌّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشرٌ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)[2].

إن هذه التحديات الهائلة تضاعف علينا المسؤولية، فليستمد المؤمنون من

---

(١) وننقل هنا نموذجاً مما يريدون فعله أنقله من قراءة وترجمة أحد الإخوة المغتربين لكتاب (محو العراق: خطة متكاملة لاقتلاع عراق وزرع آخر) ووصفه الكاتب بأنه تطبيق لكتاب سابق بعنوان (فهم الشر: دروس من البوسنة) من خلال مصطلح (إبادة الشر) جاء فيه (هدم كل قيم التضامن وعلاقات الجوار والأحياء السكنية وبناء نظام الحواجز المادية والنفسية والدينية وسيطرة الارتياب والخوف من الآخر، والأخطر انقلاب المقاييس حيث يصبح المتشاطر ذكياً، والنبيل العفيف غبياً لأنه لا يشارك في الوليمة العامة والنهب، ويصبح اللص سوياً والشريف منحرفاً وغيرها من التناقضات التي تقلب منظومة القيم الأخلاقية والسياسية السوية لصالح نقيضها من خلال خطة منسقة لأعمال مختلفة تهدف إلى تدمير الأسس الأساسية للمجتمع).

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، باب١، ح١٢.

هذا الوعد الإلهي العزيمة والهمّة والقدرة غير المحدودة على مواصلة العمل الرسالي حتى تحقيقه بإذن الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۞ وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (المعارج:٦-٧).

الفهرس

القبس/١٠٦ ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾سورة النحل:١٦..... ٥
موضوع القبس: أهل البيت (عليهم السلام) نجوم أهل الأرض..... ٥
القبس/١٠٧ ﴿مَا عِنۡدَكُمۡ يَنۡفَدُۖ وَمَا عِنۡدَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾سورة النحل:٩٦..... ١٤
موضوع القبس: أعملوا لما عند الله تعالى ١٤
القبس/١٠٨ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّنۡ ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾سورة النحل:٩٧..... ٢٢
موضوع القبس: الإسلام يحقّق الرفاه في الدنيا والسعادة في الآخرة ٢٢
القبس/١٠٩ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾سورة النحل:٩٨..... ٣٤
القبس/١١٠﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾سورة الإسراء:١١..... ٣٦
موضوع القبس: في العجلة الندامة الا في فعل الخير..... ٣٦
القبس/١١١﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾سورة الإسراء:١٩..... ٤٤
القبس/١١٢﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ سورة الإسراء:٢٣ ..... ٥٠
موضوع القبس: بر الوالدين ٥٠
القبس/١١٣﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ سورة الإسراء:٣٦..... ٥٨
موضوع القبس: لا تعتنق عقيدة أو فكرة ولا تقل أو تفعل فعلاً إلا عن علم ويقين بصحّته..... ٥٨
القبس/١١٤﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ سورة الإسراء:٧٠..... ٦٧

موضوع القبس: الكرامة المطلقة للإنسان..... ٦٧
القبس/١١٥﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سورة الإسراء:٧٩..... ٧٧
موضوع القبس: صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة..... ٧٧
القبس/١١٦ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ سورة الإسراء:١٠٠..... ٨٩
موضوع القبس: معالجات قرآنية لعدم الإنفاق..... ٨٩
القبس/١١٧﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾سورة الكهف:١٣..... ١٠١
موضوع القبس: الفتّوة زينة الانسان..... ١٠١
القبس/١١٨﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ سورة الكهف:١٦..... ١٠٦
موضوع القبس: اللجوء إلى الكهف المعنوي..... ١٠٦
القبس/١١٩﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾سورة الكهف:٢٨..... ١١٧
القبس/١٢٠﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ سورة الكهف:١٠٩موضوع القبس: معاني القرآن لا تنتهي..... ١٣١
القبس/١٢١﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ سورة مريم:١٦..... ١٤٠
موضوع القبس: مريم الصدّيقة الطاهرة برؤية قرآنية..... ١٤٠
ملحق: مقارنة بين الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) والسيدة مريم إبنت عمران..... ١٥٢
القبس/١٢٢﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾سورة مريم: ١٧..... ١٥٦

موضوع القبس: السيدة الزهراء (عليها السلام): المثل الأعلى للعفاف ١٥٦
القبس/١٢٣﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سورة مريم:٤٨ ..... ١٦٢
موضوع القبس: المعنى الصحيح للاعتزال ١٦٢
القبس/١٢٤﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾سورة مريم:٥٩ ..... ١٧٣
موضوع القبس:إنحراف الامة بعد رحيل قائدها ١٧٣
القبس/١٢٥﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾سورة مريم:٨٤ ..... ١٨٢
موضوع القبس: لا تهولنّكم قوة الباطل فإنها إلى فناء ١٨٢
القبس/١٢٦﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾سورة طه:٤١ ..... ١٨٩
موضوع القبس: الصناعة الإلهية للإنسان ١٨٩
القبس/١٢٧﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾سورة طه:٧٢ ..... ١٩٥
موضوع القبس: مبدأ استراتيجي في الحياة ١٩٥
القبس /١٢٨﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾سورة طه:١١٤ ..... ٢٠٣
القبس/١٢٩﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾سورة طه:١٢٤ ..... ٢١٣
موضوع القبس: الاعمى من لم يبصر طريق الهداية ٢١٣
القبس/١٣٠﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾سورة طه:١٣١ ..... ٢٢١
موضوع القبس: الطمَعَ يورَث الشقاء ٢٢١

القبس/١٣١﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ سورة الأنبياء:٩٠..... ٢٣٠
موضوع القبس: المسارعة الى الخير ٢٣٠
القبس/ ١٣٢﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾سورة الأنبياء:٩٤..... ٢٣٤
موضوع القبس: النبي (ﷺ) مكفور النعمة..... ٢٣٤
القبس/١٣٣﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾سورة الحج:٥..... ٢٤٢
موضوع القبس: إنبعاث الحياة المعنوية ٢٤٢
القبس/١٣٤﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾سورة الحج:١١..... ٢٤٩
موضوع القبس: عدم الثبات على الحق ٢٤٩
القبس/١٣٥﴿لِيَشۡهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمۡ﴾سورة الحج:٢٨..... ٢٥٦
القبس/١٣٦﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾سورة الحج:٢٩..... ٢٦٧
موضوع القبس: الولاية ثمرة الحج ٢٦٧
القبس/١٣٧﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ سورة الحج:٣٢..... ٢٧٤
موضوع القبس: احياء الشعائر الدينية ٢٧٤
ملحق: إلى المشكّكين بجدوى الزيارات المليونية..... ٢٨٠
القبس/١٣٨﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾سورة الحج:٤٠..... ٢٨٥
موضوع القبس: سنة التدافع ٢٨٥
القبس/١٣٩﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾سورة المؤمنون:٧٠..... ٢٩٦

موضوع القبس: لماذا يكره أكثر الناس الحق؟..... ٢٩٦
القبس/١٤٠﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾سورة المؤمنون:٩٦..... ٣١٢
القبس/١٤١﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَاكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾سورة المؤمنون:١١٥ ..... ٣١٧
موضوع القبس: لا مكان للتفاهة في حياة الإنسان..... ٣١٧
القبس/١٤٢﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾سورة النور:٢١ ..... ٣٢٨
موضوع القبس: خطط الشيطان الناعمة للوصول الى غرضه..... ٣٢٨
القبس/١٤٣﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾سورة النور:٢٢ ..... ٣٣٧
موضوع القبس: درس من حياة الإمام السجاد (عليه السلام) ٣٣٧
القبس/١٤٤﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾سورة النور:٣١..... ٣٤٢
ملحق: تحريك الدوافع نحو التوبة والرجوع الى الله تبارك وتعالى..... ٣٤٧
القبس/١٤٥﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾سورة النو ر:٣٣ ..... ٣٧٩
موضوع القبس: العفّة رأس كل خير..... ٣٧٩
القبس/١٤٦﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ سورة النور:٣٦ ..... ٣٨٨

موضوع القبس: بيت النبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) أرفع البيوت وأفضلها ٣٨٨
ملحق: مقامات القرآن الكريم وصنوه أهل البيت (عليهم السلام) ٣٩٧
القبس/١٤٧﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾سورة النور:٥٥ ..... ٤٠٥
موضوع القبس: الوعد الإلهي بالاستخلاف والتمكين ٤٠٥
الفهرس ٤١٥